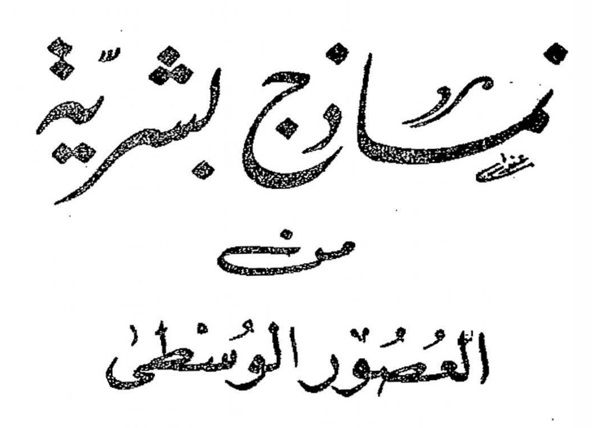

ايلين بور
نماذج بشرية
من العصور الوسطى
ترجمة محمد توفيق حسين
دار الثقافة - بيروت

نماذج بشرية

من

العصور الوسطى

نشر بالاشتراك مع
مؤسسة فرنكلين المساهمة للطباعة والنشر
بيروت ــ القاهرة ــ نيويورك
١٩٥٧



تأليف

آيلين بور

ترجمة

محمد توفيق حسين

راجعه

الدكتور نقولا زياده
والاستاذ فؤاد ترزي

منشورات دار الثقافة — بيروت

هذه الترجمة حلقة من مشروع أشرفت عليه هيئة الدراسات العربية
في الجامعة الاميركية ببيروت بمساعدة مؤسسة روكفلر .

This is an authorized translation of
MEDIEVAL PEOPLE
By
Eileen Power
First published in 1924 by Methuen & Co., Ltd., London. It was published in the United States by Barnes and Noble, Inc., and re-issued by Doubleday & Co., Anchor Books in 1954.

مقدمة

في سنة ١٩٥٢ تقدمت هيئة الدراسات العربية في الجامعةالاميركية في بيروت الى مؤسسة روكفلر الاميركية بمشروع متواضع يرمي الى نقل ستة من الكتب العالمية الى العربية على سبيل التجربة، فلقي المشروع القبول لدى المؤسسة فمولته. ثم دعت الهيئة لجنة من اهل الاختصاص من العراق وسورية ولبنان والاردن ومصر، فاجتمعت في بحمدون في ايلول من السنة نفسها وبعد البحث والدراسة والتداول قررت اللجنة ترجمة الكتب التالية وهي (١) «آراء جفرسون الحيّة» لجون ديوي ° (٢) «آراء روسو الحية» لرومان رولاند. (٣) «ماذا حدث في التاريخ» لجوردون تشايلد (وقد تولت نشره في ١٩٥٦ مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر بالتعاون مع مشروع الالف كتاب. وقد نقله الى العربية الدكتور جورج حداد استاذ ورئيس قسم التاريخ في الجامعة السورية، وقدم له الدكتور حسين مؤنس وهو اشهر من ان يعرف). (٤) «هـذا العصر الحديث» للاستاذ ف. هابولد. (٥) «الطاعون» لالبرت كامو. (٦) «نماذج بشرية من القرون الوسطى» لايلين بور، وهو الكتاب الذي نحن في صدد التقديم له.

اما الباعث الاساسي للاقدام على هذا المشروع الصغير فكان اعتقادنا ان الفكر لا ينتج ما لم يلقح دوما بالفكر. لذلك رأينا ان نخرج، على سبيل التجربة فقط، الكتب الستة المذكورة فتكون نموذجاً يقتدى به الآخرون في تلقيح الفكر العربي الحديث بثمار الفكر

الغربي بأوسع معانيه . والحقيقة ان الفكر لا يعرف غرباً او شرقاً ، جنوباً او شمالا ، بل هو فكر انىّ كان مصدره . والزمن كفيل بغربلته « فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض » .

والكتاب الذي نحن في صدد التقديم له يمثل فتحاً جديداً في كتابة التاريخ . فقد انصرف المؤرخون في الماضي الى التاريخ السياسي في اكثر الاحيان فأرخوا للملوك والسلاطين والامراء وذكروا الحروب والمعارك واهملوا التاريخ الاجتماعي على الرغم من ان المواد لهذا النوع من التاريخ كثيرة وان تكن مبعثرة في مختلف الكتب ولا سيا الادبية.

ولم يشذ المؤرخون العرب عن هذه الخطة الناقصة في تدوين التاريخ العربي ؛ القدامى منهم والمحدثون على السواء ، فاقتصروا على سرد الحوادث واهتموا بالجانب السياسي وقلما اعاروا الحياة الاجتماعية والاقتصادية ما تستحقان من الاهتمام ، واهملوا الرجل العادي اهمالا يكاد ان يكون كاملا .

والكتاب الذي نحن في صدده يؤرخ للحياة الاجتماعية في القرون الوسطى بمختلف جوانبها ونواحيها ويصور حياة الطبقات المختلفة تصويراً دقيقاً تدعمه الوثائق ـــ فهناك حياة الفلاح والتاجر وحياة اسرة من اسر الطبقه الوسطى وآراء القرون الوسطى في المرأة وحالة الصناعة كما تنعكس كلها في حياة الافراد العاديين . ولعل ظهور هذا الكتاب الطريف في حلته العربية ينبه مؤرخينا الى الاهتمام بهذه الناحية الخطيرة من التاريخ العربي فيقوم بعضهم بسد حاجتنا الملحة الى هذا الجانب الهام من تراثنا التاريخي .

الجامعة الاميركية في بيروت   نبيه امين فارس
غرة نيسان ١٩٥٧

مؤلفة الكتاب : هي المرحومة آيلين بور . ولدت في الترنيكان من اعمال بلاد الانكليز سنة ١٨٩٩ وتلقت علومها الجامعية في جامعة كمبردج وبعد ان تنقلت في سلك التعليم مدة وجيزة عينت استاذة للتاريخ الاقتصادي في جامعة لندن واستمرت في هذا المركز الى وفاتها في سنة ١٩٤٠ .

مترجم الكتاب : الاستاذ محمد توفيق حسين الاستاذ المساعد للتاريخ العربي والفلسفة الاسلامية في الجامعة الاميركية في بيروت .

مراجعو الكتاب : الدكتور نقولا زيادة ، الاستاذ المشارك لتاريخ العرب الحديث في الجامعة الاميركية في بيروت ، والاستاذ فؤاد ترزي احد مدرسي اللغة العربية في الجامعة نفسها .

توطئة

يعاب على التاريخ الاجتماعي ، في بعض الاحيان ، كونه غامضاً ، عاماً، مطلقاً ،غير قادر على مباراة التاريخ السياسي في جاذبيته للطالب المتخصص او للقارىء العـادي ، وذلك لافتقاره الى الشخصيات البارزة . على ان الحقيقة الواقعة لا تقر هـذا الامر ، ولا تؤيده ، فهنالك ، في اكثر الاحيان ، مادة لاعادة بناء حياة شخص عادي ، بسيط غاية البساطة ، لا تقل عن المادة المتوفرة لكتابة تاريخ روبرت النورماندي ، او فيليبيّا الهينولتية . ولئن كانت حياة هؤلاء الاشخاص البسطاء ، المدون تاريخها على هذا الشكل ، أقل لمعاناً واثارةللإعجاب من حياة الشخصيات البارزة ، فهي ، بالتأكيد ، لا تقل عنها امتاعاً وتشويقاً . وإني لاعتقد بان التاريخ الاجتماعي ذو قابلية خاصة على ان يعالج بما يمكن ان يسمى بالمعالجة الشخصية . كما ان الماضي يمكن ان يبعث حياً امام القارىء العادي ، ويكون أشد تأثيراً ، اذا ما قدمناه له مشخصاً ، مجسماً ، بدلا من ان نقدمه له على شكل ابحاث علمية، تشرح نموه اقطاعيات النبلاء ، او تجارة القرون الوسطى ، مع ما لهذه الابحاث من اهمية للمتخصصين . فالتاريخ ، بعد كل اعتبـار ، مهم وثمين بقدر ما يكون حياً . يجب ان تكون صرخة ميترلنك : « لا يوجـد اموات ! » شعار كل مؤرخ . ان الفكرة القائلة بان التاريخ موضوعه الاموات ، او مـا هو أسوأ من هذا وهو ان موضوعه الحركات والظروف والاحوال التي تبدو مرتبطة بعواطف

الناس واعمالهم ارتباطاً غامضاً ، هي التي طردت التاريخ من رفوف المكتبات ، حيث ما زالت القصة التاريخية تحتل مقاماً رفيعاً محترماً .

لقد حاولت ان ارسم بهذه السلسلة من الصور الحياة الاجتماعيه في العصور الوسطى بمختلف جوانبها ونواحيها ، كما حاولت ان اصور طبقات شتى من الناس تصويراً تدعمه الوثائق التاريخية . فبودو يصوّر حياة الفلاحين ، وحالة مقاطعة صميمة من مقاطعات القرون الوسطى في اول ظهورها . وماركو بولو يصوّر تجارة البندقية مع الشرق . والسيدة ايغلينتاين تصوّر حياة الراهبات . وزوجة « المدبر » تصوّر الحياه العائلية في اسرة من اسر الطبقــة الوسطى ، وآراء القرون الوسطى في المرأة . وتوماس بتسون يصور تجارة الصوف ، ونشاط الشركة الانكليزية العظيمة « نقابة تجار الاصواف» . وتوماس بيكوك يصوّر صناعة النسيج في انجليا الشرقية . ان جميع هؤلاء الاشخاص اناس عاديون ، لم يحظوا بالمجد والشهرة ، عدا ماركو بولو . وقد اعتمدت في رسم هذه اللوحــات على مصادر شتى ، اليك نماذج منهــا :

سجل لمقاطعة احد النبلاء ، وقصص الرحالة واخبارهم ،وسجلات القسس ، ورسائل تعليمية في تدبير المنزل ، ومجموعات من الرسائل العائلية ، وعدد من اللوحات التذكارية النحاسية ، وعدد من الوصايا. وقد اضفت في نهاية الكتاب فهرساً بالمصادر التي تكوّن المادة الدولية التي اعتمدت عليها في بعث هــذا التاريخ الذى اكتبه ، كما اضفت بعض الملاحظات والايضاحات . واني لآمل ان تمتع هــذه المحاولة المتواضعة لبعث « بعض آبائنا الذين انجبونا » القارىء العادي ساعة او ساعتين ، كما آمل ان يفيد منها المدرس الذي يحرص على ان

يجعل بعض حقائق تاريخ العصور الوسطى الاجتماعي والاقتصادي المطلقة العامة ، حقائق واقعة ، معينة ، وذلك بتقديمها مشخصة ومجسمة .

واقدم شكري لناشري مؤلفاتي السادة متوين وشركائهم لسماحهم لي باقتباس حوالي فصل كامل من كتابي (The Paychokes of Coggeshall) وتضمينه في الفصل السادس من هذا الكتاب . ولمطبعة كمبردج لسماحها لي باقتباس بعض الجمل من كتابي (Medieval English Nunneries) واود ان اشكر ايضاً صديقتي الآنسة م . ح . جونس والانسة هـ.م.ر. موراي في كلية كيرتون بجامعة كمبردج على الملاحظات والانتقادات المتعددة التي قدمتاها لي . كما اشكر لشقيقتي الآنسة رودا بور جهودها في إعداد الفهرست .

آيلين بور

مدرسة لندن لعلمي الاقتصاد والسياسة ،
جامعة لندن ، ايار : ١٩٢٤

فلنمدح الآن النجباء المشهورين وآباءنا الذين أنجبونا ...
ان منهم من تركوا وراءهم صيتاً يوحي بمدحهم .
وإنّ منهم من لم يخلفوا وراءهم ذكراً . لقــد هلكوا وكأنهم لم يكونوا ، وصاروا عدماً كأن لم يولدوا ، وهلك من بعدهم ابناؤهم .
ولكنّ هؤلاء كانوا رجالاً رحماء ، لم ينس عدلهم وصلاحهم .
وسيبقى في ذريتهم تراث مجيــد ، وسيبقى ابناؤهم محافظين على عهد الرب .
وسيبقى ابناؤهم وذريتهم محافظين على ايمانهم ، ثابتين من أجلهم .
وستبقى ذريتهم متعاقبة الى الابــد . ومجدهم لن ينمحي ولن يزول .
لقد دفنت اجسادهم بسلام . ولكن اسمــاءهم ستحيا الى ابد الابدين .

« يشوع بن سيراخ »
الفصل الرابع والاربعون

إلى

زميلاتي وطالباتي في كلية غيرتون ، كمبردج ١٩١٣ ــ ١٩٢٠

لئن كانت الجنة موجودة على هذه الارض ، وتيسر لكل نفس دخولهـا ،

فهي انما تقوم في دير او مدرسة ، ولي على ذلك دلائل وشواهد .

فلا يأتي الى الدير انسان يؤنبني ويملأ قلبي غيظاً وكمداً ، وإنمـا تجري الحياة فيه رخية محبورة ، موفورة النشاط .

وفيه كتب اقرأها ، واتعلم منها .

وقد يلقى المرء في المدرسة هزءاً .

ولكنّ « الكاتب » ، اذا ما اتيح له ان يتعلّم ، سيحب المدرسة ويألفها ، ففيها يحب الناس بعضهم بعضاً .

لانغلاند

« بييرز بلومان »

« اوصيك بألا تغلق قلبك ولا مكتبك »

تشارلز لام

الفصل الاول

بودو الفلاح

الحياة في مقاطعة ريفية في عصر شارلمان

ثلاثة اشياء ناعمة ، رقيقة ، تسند العالم وتكفله احسن كفالة :
شؤبوب الحليب الناعم يتدفق من ضرع البقرة في السطل ،
وساق الحنطة الاخضر النحيف يعلو منتصباً فوق الارض،
والخيط الرفيع بيد المرأة الماهرة .
ثلاثة اصوات عظيمة الغناء : خوار البقرة ساعة تحلب ، وضجة
حانوت الحداد ، وحفيف المحراث .
من « محاكمات ارلندا » ــ القرن التاسع .

التاريخ الاقتصادي ، كما نعرفه ، احدث فروع التاريخ . وقد كان اهتمام المؤرخين وعامة القراء ، حتى منتصف القرن الماضي ، منحصراً في التاريخ السياسي والدستوري ، وفي الاحداث السياسية ، وفي الحروب ، وفي الاسر والسلالات الملكية ، وفي المؤسسات السياسية ونموها . كان التاريخ ، اذن ، يعنى بصورة جوهرية ، بالطبقات الحاكمة . لقد كان شعار المؤرخ : «فلنمجد ، الآن ، النجباء المشهورين » ونسي ان يضيف : «وآباءنا الذين انجبونا » ولم يكن المؤرخ ليهتم بسبر غور حياه جماهير البشرية الغفيرة ، الغامضة ،

ونشاطها الخفي . اولئك الناس الذين قامت رفاهية العالم وسعادته على كدحهم البطيء ، والذين كانوا الاساس الخفي لذلك الصرح السياسي والدستوري الذي بناه الرجـــال المشهورون ، الذين يمجدهم المؤرخ تمجيداً . كان الحديث عن الرجال العاديين البسطاء لا ينسجم ووقار التاريخ . ولقد ارسل كارليل نداء ثوريا عظيم الاهمية حين قـــال : « ليس الشيء الذي اود ان اراه قـــوائم الكتب الحمراء ، وتقاويم البلاط ، وسجلات البرلمان ، وانما حياة الانسان في انكلترا . مـــاذا عمل الناس ، وبم فكروا ، وكيف تمتعوا بالطيبات وسعدوا ، وكيف تألموا وشقوا ... انه لمن المحزن حقا ان تبصر حالة هذه الصناعة التي يدعونهـا التاريخ في هـذا الزمن المستنير ، الزاخر بالانوار . اتستطيع ان تحصـــل ، حتى ولو قرأت حتى تعمى مـــن القراءة عيناك ، على اعتم ظل لجواب هـــذا السؤال العظيم : كيف عاش الناس ، وكيف كانوا يحيون ؟ وليكن السؤال اقتصادياً من قبيـــل ما هي الاجور التي كانوا يتقاضونها ؟ وماذا كانوا يشترون بها ؟ واأسفاه ! لن تستطيع ان تحصل على جواب ... ان كتب التاريخ المجلدة تجليداً فاخراً مذهباً لا تثقف الناس وتعلمهم خيراً مما تستطيع «صناديق النرد» المصنوعة على هيئة الكتب المجلدة ، أن تعلمهم . »

كان كارليل صوتاً يصرخ في البرية . غير أن التاريخ الجـــديد ، الذي مهد طريقه كارليل ، قد جاء اليوم . ان العصر الحديث يختلف عن العصور التي خلت ، بشعوره الواضح بذلك الشخص الذي أهمل دهراً طويلا : رجل الشارع ، او صاحب الحرفة (كما كان يدعى في تلك العصور الخوالي غالباً) . لقد أصبح المؤرخ اليوم معنيا بحيـــاة الماضي الاجتماعية ، غير قاصر اهتمامه على الحروب وعلى مغامرات

الامراء ودسائسهم . ان القرن الرابع عشر ، مثلا ، ليس قرن حرب «المائة عام » ، والأمير الاسود ، وادوارد الثالث ، فحسب ، وانما هو ، بالدرجة الاولى ، عصر اضمحلال القنانة الاقطاعية البطيء في انكلترا ، هذا الحدث الذي هو اهم كثيراً من النضال في سبيل املاكنا في فرنسا ، اذا ما نظرنا الى نتائجه البعيدة، المؤثرة في احداث التاريخ. نحن ما زلنا نمجد مشاهير الرجال . فان من يهمل شخصاً من الاشخاص العظماء الذين اضفوا على التاريخ بطولة ومجداً لهو مؤرخ مسكين . على اننا نمجدهم ونحن عالمون ، حق العلم ، بان احداث التاريخ لم يصنعها الافراد العظماء حسب ، وانما اشترك في تكوينها الناس بصورة عامة ، جماهير الناس الذين لا نعرف لهم اسماء ، ولم يشتهروا بميزة ، اولئك الذين ترقد عظامهم في قبور مجهولة الاسماء . لقد عـــاد آباؤنا الذين انجبونا الى اهليهم أخيراً ، ونالوا حقوقهم . وكما قال اكتن : «ان المؤرخ العظيم يتناول طعامه اليوم في المطبخ » .

ان هذا الكتـــاب يعنى ، عناية اساسية ، بمطابخ التاريخ . واول ما سنزور من مطابخ التـــاريخ هذه ، مقاطعة ريفية في مطلع القرن التاسع . فقد اسعفتنـــا الظروف بمعلومات مدهشة عن هذه المقاطعة ، لان شارلمان نفسه اصدر عدداً من الاوامر لوكلائه يوضح لهم فيها كيف يجب أن يديروا أمـــور اراضيه الخاصة ، ويخبرهم فيها عن كل ما يلزمهم علمه من الامور المهمة الى الخضر التي يطلب منهم زراعتها في الحديقة . ولكن مصدر معرفتنا الاساسي انما هو سجل مقاطعة مدهش ، كتبه ارمينون رئيس رهبان دير سانت جرمان دو باري الواقع على مقربة من باريس، حتى يعرف المسؤولون عن الدير الاراضي العائدة له ، ومن يسكن في تلك

الاراضي . كما فعل وليم الاول حين كتب سجلا لمملكته بأسرهـا ، دعاه « كتاب يوم الحساب » . في هذا السجل ذكرت اسماء جميع الاقطاعيات الصغيرة ، او ما كان يدعى في تلك الايام « فيسك » Fiscs ، التي تعود للدير ، مع وصف الاراضي التي يديرها وكلاء الدير لحسابه الخاص ، والاراضي المؤجرة ، واسماء المستأجرين وزوجاتهم وابنائهم ، وما كانوا يدفعونه من ايجار او ريع ، وما كانوا يقومون به من خدمات ، او يدفعونه من ايجار ، محسوباً الى حد البيضة ولوحة الخشب حساباً دقيقاً ، لقاء ما كانوا يشغلون من اراضي الدير . ونحن نكاد نعرف اليوم اسماء جميع الرجال والنساء والاطفال الذين عاشوا في تلك الاقطاعيات الصغيرة «فيسك» في عهد شارلمان ، كما نعرف الكثير عن حياتهم اليومية .

لنتأمل لحظة في كيفية تنظيم المقاطعة التي كانوا يسكنون فيها . لقد قسمت اراضي دير سانت جرمان الى اقطاعيات صغيرة تدعى كل واحدة منها «فيسك» . وجعلت كل اقطاعية ذات مساحة مناسبة لان يديرها وكيل خاص . وقد قسمت اراضي كل «فيسك» الى قسمين: ارض الفلاحين ، او الاراضي الخراجية التي يستأجرونها من الدير ، واراضي خاصة بالدير، يديرها الرهبان بوساطة وكلاء، او موظفين. وارض الفلاحين مقسمة الى عدد من المزارع الصغيرة ، يسمى كل واحد منها « مانس » Manse . وكانت تستغل كل مزرعة منها اسرة واحدة ، او اكثر ، من اسر الفلاحين . كنت تبصر، اذا زرت المزرعة الرئيسية التي يقوم بادارتها رهبان، بيتاً صغيراً ذا غرفات ثلاث او اربع ، مبنية بالحجارة غالباً ، تواجه فناء داخلياً . وكنت تبصر، على احد جوانب هذا البيت ، مجموعة خاصة من البيوت

الصغيرة ، رصف بعضها الى بعض ، حيث تعيش الاقنان التابعات للدار ويقمن باعمالهن . وكنت ترى بيوتاً خشبية صغيرة يسكنها الاقنان ، ودكاكين ارباب الحرف ، ومخابز ، ومطابخ ، وأهراء المحاصيل ، واسطبلات ، وما الى ذلك من ابنية المزارع. ويلتف حول هذه المباني جميعاً سياج زرعت عنده الاشجار بعناية فائقة ، فصارت الابنية ، والسياج يحيط بها ، تشبه فناء واسعاً مسوراً . ويتصل بهذه المزرعة المركزية مساحة واسعة من الارض : حقول للزراعة ، ومراع ورياض ، وبساتين كرم ، ومعظم ما في المقاطعة من غابات ومروج. ومن الواضح الجلي ان زراعة هذه الارض الواسعة ، والعناية بها ، كانت تستلزم مقداراً كبيراً من العمل . بعض هذا العمل كان يوفره عمال مستعبدون ؛ ملحقون بالحقل الرئيسي ، ويعيشون في الدور الملحقة به . ولما كان هؤلاء الاقنان غير مستطيعين انجاز جميع الاعمال المطلوبة في ارض الدير كان من الضروري ان يقوم المالكون الآخرون في المقاطعة بمعظم الاعمال والخدمات اللازمة .

وكان يقوم ، الى جانب الحقل الرئيسي الذي يملكه الاسياد ، عدد من الحقول الصغيرة التابعة ، يعود الى رجال ونساء يتمتعون بدرجات متفاوتة من الحرية ، الا انهم يشتركون جميعاً في كونهم مجبرين على العمل في الحقل الرئيسي . لا حاجة بنا لتحمل مشقة البحث عن الطبقات الاجتماعية المختلفة . لقد كانت الفروق بين الطبقات ، من الناحية العملية ، ضئيلة . وقد امتزجت الطبقات خلال قرنين من الزمن ، وأصبح الناس ينتمون الى طبقة واحدة مشتركة عامة هي طبقة اقنان العصور الوسطى . وكان الناس المدعوون بالمستوطنين «Coloni» اي المعمرين ، اعظم اصناف الفلاحين اهمية في تلك العصور . وكان

هؤلاء المعمرون شخصياً احراراً ، أي ان القانون كان يعتبرهم احراراً الا انهم كانوا مربوطين بالارض ، لا يستطيعون ترك حقولهم ، وكانوا يباعون مع الارض اذا بيعت . وكان كل حقل من هذه الحقول التابعة يعود الى اسرة واحدة ، او اسرتين ، او ثلاث اسر ، من اسر الفلاحين ، تتكاتف جميعاً ، وتتعاون ، للقيام بالعمل الضروري. وكان كل حقل «مانس» يتألف من بيت واحد (او عدد من البيوت) ومن البنايات الضرورية في المزرعة (وهي بنايات تشبه البنايات القائمة في المانس الرئيسي ، سوى انها مبنية بالخشب ، واقل منها فخامة) ومن حقل ، ومرج لرعي الماشية ، وربما الحق به بستان كرم صغير. وكان مالك المانس التابع ، او مالكوه المشتركون ، يعملون في ارض المانس الرئيسي ، مدة ثلاثة ايام من كل اسبوع ، او نحوها ، لقاء استغلالهم الارض التي تحت تصرفهم . كان الواجب الرئيسي للوكيل هو ان يشرف عليهم ، ويتأكد من انهم يقومون بالعمل على الوجه المطلوب . وكان من حقه ان يطلب اليهم القيام بنوعين من العمل : النوع الاول هو عمل الحقل ، حيث كان يطلب من كل رجل انيحرث مساحة معينة من ارض الدومين(١) (كما كانت تدعى بعد هذا العصر). والنوع الثاني هو عمل السخرة ، فقد كان باستطاعة الوكيل ان يأمر هؤلاء الفلاحين بحرث مساحة غير ثابتة من الارض كل اسبوع اذا اقتضت الضرورة . وهذا التمييز بين هذين النوعين من العمل يقابله تقسيم العمل ، في اواخر العصور الوسطى ، الى عمل الاسبوع ، والعمل الذي يقدم منحة boon work .

---

(١) أي مجموع ما تحت يد السيد الاقطاعي من الارض التي يستغلها لحسابه (المترجم)

اما النوع الثاني من العمل ، الذي كان كل مالك لحقل مجبراً على القيام به في ارض الدير ، فكان يدعى بالعمل اليدوي . ومعنى هذا انه كان مجبراً على المعاونة في تجديد الابنية واصلاحها، وقطع الاشجار وجمع الاثمار ، وصنع البيرة ، وحمل الاثقال ، اي القيام باي عمل يأمره به الوكيل . وبهذه الوسيلة يتمكن الرهبان من زراعة حقولهم الخاصة . وفي الايام الباقية من الاسبوع يكون هؤلاء المستأجرون ، المثابرون ، المجدون ، احراراً في العمل في حقولهم الصغيرة الخاصة بهم . وكانوا يبذلون ، ولا ريب ، في هذه الحقول ضعف ما يبذلونه من جهد ومثابرة في حقول الدير .

على ان التزاماتهم لا تنتهي عند هذا الحد . فقد كان عليهم ان يدفعوا ايجاراً الى البيت الكبير (الرئيسي) ولم تكن الضرائب الحكومية موجودة في تلك الايام . ولكن كان على كل رجل ان يؤدي رسم الجيش ، ذلك الرسم الذي كان شارلمان يستحصله من الدير ، وكان الدير يحصله من المستأجرين . وكان هذا الرسم عبارة عن ثور وعدد من الشياه او ما يعادلها من النقود . ويأتي الشرط التالي في رأس قائمة التزامات الرجل الحر : «يدفع الى المضيف شلنين فضيين» . وكان على الفلاحين ان يدفعوا ثمن كل امتياز خاص يمنحهم اياه الرهبان . فقد كان عليهم ان ينقلوا حملا من الخشب الى البيت الكبير (الرئيسي) مقابل السماح لهم بالتقاط الحطب من الغابة ، الذي كان الرهبان يحافظون عليه بعناية فائقة ليستفيد منه سكان الدير . وكان عليهم ان يدفعوا للدير عدداً من دنان النبيذ لقاء السماح لهم برعي خنازيرهم في هذه الغابة الثمينة نفسها . وكان عليهم ان يدفعوا للدير ، في نهاية كل ثلاث سنوات ، رأساً من الغنم مقابل السماح لهم برعي مواشيهم في حقول

المزرعة الرئيسية ، كما كان عليهم ان يدفعوا جزية مقدارهـا اربعة سنتات عن كل شخص . والى جانب هذه الانواع من الايجارات الخاصة كان على الفلاح ان يدفع الى الدير ايجارات اخرى مما ينتج عينا . ففي كل سنة يصبح الفلاح مديناً للدار الكبيرة بثلاث دجاجات وثلاث عشرة بيضة ، وزوج من الخنازير . وكان يدفع احياناً كمية من الحنطة ، والنبيذ ، والعسل ، والشمع ، والصابون ، والزيت . واذا كان الفلاح يجيد احدى الصناعات تحتم عليه ان يدفع ضريبة مما ينتج . فان كان حداداً صنع رماحاً وقدمها للدير رسماً للجيش ، وان كان نجاراً صنع براميل واطارات وعضادات الكروم ، وان كان صانع عربات قدم عربة . حتى نساء الفلاحين كن يشتغلن اذا اتفق وكن اقناناً . فقد كانت النساء المستعبدات مجبرات على حياكة قطع من القماش ، او عمل رداء ، للدار الكبيرة .

كان الوكيل ـ الذي كان يدعى عصرئذٍ فيلكس ، او ميجر ، او عمدة ـ هو الذي يفرض على الفلاحين جميع ما تقدم ذكره من الرسوم والايجارات ، ويحصلها منهم . وكان الوكيل هذا رجلا مجداً مثابراً ، كثير الاعمال . وان من يطالع الاوامر السبعين التي وجهها شارلمان الى وكلائه لا يستطيع ان يمنع نفسه من الشعور بالشفقة عليه . كان يحصل على جميع الخدمات المطلوبة من المستأجرين ، كما كان عليه ان يخبرهم بما يجب عليهم عمله كل اسبوع ، ويراقبهم بنفسه ليتأكد من انهم يؤدون الاعمال المطلوبة ، كما كان عليه ان يتأكد من انهم يؤدون الى الدار العدد المعين من البيض والخنازير ، وانهم لا يدسون عليه الواح الخشب المعوجة . وكان عليه ان يشرف على الاقنان التابعين للدار ، ويوجههم للعمل ، وكان مسؤولاً عن خزن المحاصيل

وبيعها ، او ارسال محاصيل المقاطعة والايجارات التي يدفعها المستأجرون الى الدير . وكان عليه ان يقدم كل سنة حساباً مفصلاً الى رئيس الدير ، كان الوكيل يملك مزرعة «مانس» خاصة به . وكان يقوم ، لقاء تمتعه بملكيتها ، ببعض الخدمات ، ويدفع ايجاراً . وكان شارلمان يوصي وكلاءه بان يسارعوا الى دفع ما يتوجب عليهم حتى يكونوا قدوة حسنة للمستأجرين . كانت اعمال الوكيل الرسمية ، في اغلب الظن ، تستغرق معظم اوقاته ، ولا تترك له الا وقتاً قصيراً للعمل في حقله الخاص . فكان عليه ان يعهد بمزرعته الى شخص آخر يتولى العمل فيها ، كما كان شارلمان يطلب من وكلائه ان يفعلوا . ومهما يكن من شيء فقد كان تحت امرة الوكيل ، في اغلب الاحيان ، عدد من الموظفين يدعون عرفاء deans يعاونونه في اعماله ، كما كانت مهمة استلام المؤن والاشراف على المخازن والاهراء في الدار الكبيرة منوطة بخازن خاص .

فلنحاول الآن — بعد ان اوجزنا بكلمات قليلة الطريقة التي كان رهبان دير سانت جرمان ، وغيرهم من الاقطاعيين الفرنجة ، يتبعونها في ادارة مقاطعاتهم في عهد شارلمان — ان ننظر الى هذه المقاطعات نظرة اكثر انسانية ، ولنر كيف كانت الحياة تبدو لفلاح عاش في احداها . كان الدير يملك مقاطعة صغيرة تدعى « فيلاّ ري » قرب باريس ، في المكان الذي يقوم عليه اليوم متنزه سنت كلود . واذا تصفحنا سجل مقاطعة «فيلاري » وجدنا ان رجلاً يدعى بودو كان يعيش هناك . كان لبودو زوجة تدعى ارمنترودو وثلاثة ابناء ، هم : ويدو وجيربيرت وهيلديغارد . وكان يملك مزرعة صغيرة تتألف من حقل للزراعة ومرعى ، وبضع كرمات . انّ معلوماتنا عن بودو تكاد

تعدل معلوماتنا عن اي ملاك صغير يعيش اليوم في فرنسا . فلنحاول ان نتخيل يوماً من ايام حياته . ينهض بودو مبكراً ، في صباح يوم مشرق من ايام الربيع في اواخر عصر شارلمان . لقد كان ذلك اليوم يوم عمله في حقل الدير ، ولم يكن ليجرؤ على التأخر فيه خشية من الوكيل . ومع ان بودو قد اهدى الى الوكيل في الاسبوع المنصرم في اغلب الظن ، عدداً من البيض وكمية من الخضر ، ليطيب مزاجه ويأمن بدواته ، فهو يعلم انه لن يتسامح معه حين يتأخر ، لان الرهبان ما كانوا ليسمحوا لوكلائهم باخذ رشوات كبيرة ، كما يحدث احياناً في المقاطعات الاخرى . ولما كان عليه ان يحرث في ذلك اليوم فقد اخذ ثوره الكبير ، وصحب معه ابنه ويدو الصغير الذي كان يعدو الى جانبه حاملا منخسه بيده . وفي الطريق ينضم بودو الى عدد من رفاقه الفلاحين الآتين من حقول قريبة ، والذاهبين مثله للعمل في حقول الدار الكبيرة . لقد حضروا جميعاً ، وكان بعضهم قد استصحبوا معهم خيولاً فارهة ، وكان بعضهم يحملون معاول ومجارف وفؤوساً ومساحي ومناجل ، وتفرقوا زمراً زمراً ليشتغلوا في حقول الدير ومراعيه وغاباته حسب اوامر الوكيل . كانت المزرعة المجاورة لمزرعة بودو تحت تصرّف عدد من الاسر : فرامبرت وارموين وريغينولد ومعهم نساؤهم وابناؤهم . وقد القى عليهم بودو تحية الصباح وهو يمر بهم . كان فرامبرت ذاهباً ليعمل سياجاً حول الغابة ليمنع الارانب من مغادرتها واكل المزروعات الناجمة . وكان ارموين ذاهباً لينقل بعربته حملاً من الحطب الى الدار . اما ريغينولد فكان يرقع ثقباً في سقف الزريبة . سار بودو وهو يصفر في الصباح المقرور ومعه ابنه وثوره . ولا حاجة بنا لان نتبعه اكثر مما فعلنا . فقد حرث

طوال يومه ، وتناول غداءه مع الفلاحين الآخرين في ظل شجرة ، وكان يومه ذاك مملاً ، رتيباً .

ولنعد الى ارمنترود ، زوجة بودو ، ولنر ماذا كانت تفعل . لقد كانت هي ايضاً منهمكة في العمل . فقد كان ذلك اليوم هو يوم دفع ايجار الدجاج ، وكان مقدار ما يجب عليها دفعه فرخة فارهة واحدة وخمس بيضات . وتركت ابنها الثاني البـالغ من العمر تسع سنوات ليشرف على هيلديغارد الطفل ويعنى به ، وزارت جارة لها كانت ذاهبة الى الدار الكبيرة . كانت هذه الجاره قناً . وكانت تحمل الى الوكيل قطعة من القماش ، يبعث بها الى دير سانت جرمـان ، ليصنع منها كساء لاحد الرهبان . اما زوجها فيعمل طول النهار في كروم السيد . فقد كان الاقنان يشتغلون في بساتين الكرم ، بينما كان الفلاحون الاحرار يقومون باعظم جزء من الحرث . ذهبت ارمنترود ومالفن الى الدار الكبيرة معاً . وكان كل من في الدار مشغولاً بعمله ، عاكفاً على اداء واجبه . وكان في محترف الرجال عدد من الصنـاع الماهرين : حذّاء ونجار وحداد وصائغان . ولم يكن موجوداً من الصناع غيرهم لان مهرة الصناع في مقاطعة سانت جرمان كانوا يعيشون قرب الدير كي يقضوا حاجات الرهبان في نفس المكان فيوفروا العمل اللازم لنقل المصنوعات من محل الى آخر . على انه كان يوجد دائماً في كل مقاطعة عدد من الصناع كانوا اما اقناناً مرتبطين بالدار الكبيرة ، او احراراً يعيشون في مزارع يملكونها . وكان العقلاء من الاقطاعيين يحرصون على ان يكون في مقاطعاتهم اكبر عدد من الصناع الماهرين. كان شارلمان يأمر كل واحد من وكلائه ان يحرص على ان يكون في

المقاطعة الواقعة تحت اشرافه : «صناع ماهرون هم بالتعيين: حدادون وصاغة ذهب ، وصاغة فضة ، وحذّاءون ، وخرّاطون ، ونجارون وصانعو سيوف ، وصيادو سمك ، وصانعو صابون ، ورجال يجيدون صنع البيرة وشراب التفاح وشراب الكمثرى وغيرها من الاشربة المتنوعة ، وخبازون يحسنون صنع الفطائر والرقاق المحشوة لمائدتنا ، وصانعو شباك لصيد الاسماك والحيوانات البرية والطيور ، وغيرهم من الصناع الذين لا يسمون لكثرة عددهم » وكان بعض هؤلاء الصناع يعملون للرهبان في مقاطعة فيلا ري .

على انّ ارمنترود لم تتوقف عند محترف الرجال . فقد وجدت الوكيل ، وبعد ان انحنت له باحترام وسلمت عليه ، قدمت له الفرخة والبيض ، وأغذت السير الى القسم الذي تشغله النساء لتثرثر مع الاقنان .

كان من عادة الافرنج ، في ذلك العهد ، ان يسكنوا النساء المتصلات بالاسرة جناحاً خاصاً منفصلا عن الدار ، يقمن فيه بالاعمال التي تعتبر ملائمة لطبيعة المرأة ، كما كان يفعل قدماء الاغريق . ولو ان احد النبلاء من الفرنجة كان يسكن في الدار الكبيرة اذن لكانت زوجته تشرف على النساء وتلاحظ عملهن . ولكن لما لم يكن احد من النبلاء في الدار الحجرية في فيلا ري كان الوكيل هو الذي يشرف على النساء ويراقب عملهن . كان جناح النساء مؤلفاً من مجموعة من البيوت الصغيرة ، وغرفة للعمل «محترف» ، محاطة كلها بجدار مرتفع ذي باب كبير محكم كدار « الحريم » . وما كان باستطاعة احد الدخول الا اذا كان يحمل اذناً . وقد استطاعت ارمنترود ان تدخل الى جناح النساء بحكم كونها امرأة ، فوجدت في غرف العمل المريحة ،

التي تسخنها المدافىء ، نحو اثنتي عشرة امرأة قنا ؛ يغزلن ، ويصبغن النسيج ، ويخطن الثياب . وكان من عادة الوكيل ان يأتيهن ، في نهاية كل اسبوع ، بالمواد الاولية التي يحتجنها في عملهن ، ويأخذ منهن ما يكنّ قد انجزن من اشياء. وقد اصدر شارلمان ، الىوكلائه، عدداً من التعليمات بشأن النساء الملحقات بمزارعه . وكان رهبانسانت جرمان يفعلون ، ولا ريب ، ما كان يفعله شارلمان في مقاطعاتهم النموذجية . يقول شارلمان : « على جميع وكلائنا ان يعطوا النساء اللاتي في خدمتنا ، في الاوقات المعينة ، المواد التالية : الكتان والصوف والزنجفر والفوّة وامشاط الصوف والصابون والدهنوغيرها من المواد الضرورية . وعليهم ان يعنوا بمساكن هؤلاء النسوة التي يجب ان تحتوي على الدور والغرف المجهزة بالمدافىء ومخازن المؤن ، ويجب ان تكون مسورة باسوار متينة ، ويجب ان تكون ابوابها قوية منيعة ، حتى تتمكن هؤلاء النسوة من انجاز اعمالنا على الوجه المطلوب . وبعد ان ثرثرت ارمنترود مع النسوة ما شاءت ان تثرثر عادت مسرعة الى بيتها ، وعلينا نحن ان نعود معها أيضاً . ذهبت الى حقلها وبدأت تشتغل في بستان الكرم الصغير . وبعد ان انفقت في البستان ساعة او ساعتين عادت الى الدار لتهيء الطعام لاطفالها .

ثم انها قضت بقية النهار تحوك لهم ثياباً دفيئة من الصوف . وكان بعض جاراتها يعملن في حقول ازواجهن ، وبعضهن يعنين بالدواجن او يشتغلن في بساتين الخضر ، او يخطن الثياب . ففي الريف لا تقل النساء عن رجالهن كدحا . وقد كن يقمن في عصر شارلمان ، مثلا ، بجز معظم الغنم . واخيراً عاد بودو الى الدار

ليتناول عشاءه . وما ان غابت الشمس حتى أوى افراد الاسرة الى مضاجعهم . فقد كانت الشمعة المصنوعة في الدار لا تبعث الا ضوءاً خافتاً لا يكاد ينير ، وعدا عن ذلك فقد كان على بودو وزوجته ارمنترود ان يستيقظا في الصباح الباكر . وصف دي كوينسي مرة ، باسلوبه الفريد ، كيف كان القدماء ، في كل مكان ، يأوون الى مضاجعهم : «كانوا يأوون الى مضاجعهم بين الساعة السابعة والساعة التاسعة مساء ، كما يفعل الاولاد الطيبون .

... كان الرجل ، في تلك الازمان السحيقة ، ينام مبكراً ، لان الارض ، امه الفاضلة ، لم تستطع ان تمده بشمعة . كانت ، وهي العجوز الطيبة ... سترتجف حقاً لو سمعت احد الشعوب من ابنائها يطلب شموعاً ، وكانت ستقول : شموع ؟ نعم شموع ! من سمع بمثل هذا الشيء ؟ وهـــذا ضوء النهار الباهر ، الذي وهبته مجاناً للناس ، يذهب هدراً ! ترى ماذا سيطلب هؤلاء الاشرار بعد هذا ؟»

كانت مثل هذه الحالة سائدة حتى في زمن بودو .

هكذا ، اذن كان بودو وزوجته ارمنترود ، يقضيان يوم عملهما عادة . ولكن رب قارىء يتشكى قائلا : كل ما قلت حسن ! لقد عرفنا احوال المقاطعة التي عاش فيها هؤلاء الفلاحون ، وعرفنا مبلغ ما كانوا يدفعون من ايجار ، ومقدار ما كانوا يؤدون من خدمات . ولكن بماذا كانوا يفكرون ؟ وماذا كانوا يحسّون ؟ وباي شيء كانوا يسلّون انفسهم عندما يفرغون من اعمالهم ؟ ان الايجارات والخدمات اشياء خارجية ، وان سجل المقاطعة لا يصف الا الاعمال الرتيبة المألوفة . من العبث ان نحاول تصوير حياة جامعة معتمدين على قوائم المحاضرات التي تلقى فيها . ومن العبث ، كل العبث ، ان نحاول

تصوير حياة بودو مستندين إلى سجل المقاطعة الذي عـني سيده بتدوينه . انك لن تفيد من تناول طعامك في المطبخ ، اقل فائدة ، اذا لم تتحدث الى الخدم . ان هذا الاعتراض حق . ولاجل ان نصل الى افكار بودو وعواطفه ومسرات عطله واعياده يجب علينا ان نودع سجل المقاطعة الذي خطه الراهب ارمينون ، ونحدق النظر في بعض الزوايا الحالكة الظلام حقـاً ، وعلينا منذ الآن ان نتعلم سر الحبر الخفي ، والقراءة بين السطور . فمع اننا نستطيع ، بمساعدة تشوسر ولانغلاند وعدد من ملفات البلاط ، ان نعرف الشيء الكثير عن احساسات فلاح عاش بعد الحقبة التي نبحث فيها بستة قرون ، نجد الطريق غير ممهدة بالنسبة للقرن التاسع لندرة المصادر ، وضآلة المواد التاريخية .

لقد كانت لبودو ، بكل تأكيد ، احساسات جمة قوية . فلطالما تمنى ، وهو يغادر فراشه الدفيء مرتجفاً يزيل الصقيع من على لحيته ليحرث ارض الدير في الصباح البارد ، بينما ارضه بامس الحاجة الى عمله ، طالما تمنى ان تهوي الدار الكبيرة وكل ما يتصل بها مـن الارض الى قاع البحر ، الذي لم يره في حياته قـط ولم يستطع ان يتخيله . وكان يتمنى ، في احايين أخرى ، أن يكون صياداً للدير يصطاد الحيوانات في الغابة ، او ان يكون راهباً من رهبان سانت جرمان يرنم الاناشيد الحلوة في كنيسة الدير ، او تاجراً يحمل رزم الثياب والمعاطف والزنانير الى باريس . لقد كان ، في الحقيقة ، يتمنى ان يكون اي شيء الا ان يكون فلاحاً فقيراً يحرث أرض اناس آخرين . لقد تخيل كاتب انكلو-سكسوني هذا الحوار معه :

— حسناً ايها الحراث كيف تقوم بعملك ؟

– آه يا سيدي ! انني ابذل جهداً مضنياً في عملي . اغادر داري عند الفجر فاسوق الثيران الى الحقل حيث اشد اليها المحراث . لا استطيع البقاء في داري ، مهما كان الشتاء بارداً مقروراً ، خوفاً من سيدي . وعليّ أن احرث كل يوم ، بعد ان اضع النير على الثورين وأشدّ اليه المحراث ، فداناً كاملا من الارض او يزيد .

– ايساعدك شخص آخر في عملك ؟

– يساعدني ابني الذي يسوق الثورين بمنخسه . وتراه الآن مبحوح الصوت من الصراخ المتواصل والبرد القارس الشديد . (مسكين يا ويدو الصغير)

– حسناً ، حسناً هل عملك مجهد كثير المتاعب ؟

– اجل انه لعمل مجهد ، كثير المتاعب .

ومهما يكن من شيء ، ومهما كان العمل متعباً ، فقد كان بودو يغني بشوق ورغبة ،ليسلي نفسه ، وليدخل السرور على نفس ويدو . ألم يقص علينا التاريخ ان احد الكتاب كان يغني « هللويا » بحضرة الامبراطور شارلمان ، ذات مرة ، فقال الامبراطور لاحد اساقفته : « كاتبي يغني غناءً ممتازاً » فاجابه الاسقف الفظ : « ان اي فلاح جلف في اريافنا يدندن لثيرانه ، وهي تجر المحراث ، مثل هـــذا الكاتب » . ومن المؤكد ، ايضاً ، ان بودو كان موافقاً على الاسماء التي اطلقها شارلمان العظيم على شهور السنة بلغة قومه الفرنجة. فقد دعا كانون الثاني « شهر الشتاء » ، وشباط « شهر الوحل » ، وآذار « شهر الربيع » ، ونيسان « شهر الفصح » ، وايار « شهر الفرح » وحزيران « شهر الحراثة » ، وتموز « شهر التبن » ، وآب « شهر الحصاد » ، وايلول « شهر الرياح » ، وتشرين الاول «شهر

قطاف العنب » ، وتشرين الثـاني « شهر الخريف » ، وكانون الاول « الشهر المقدس » .

وكان بودو مخلوقاً يؤمن بالخرافات . لقد مضى على اعتناق الفرنجة للمسيحية حتى عهده سنوات عديدة ؛ غير ان الفلاحين ، وان اصبحوا مسيحيين ، ظلوا محافظين على اعتقاداتهم القديمـة ، متمسكين بخرافاتهم الراسخة . لقد كنت تجد الفلاحين ، في مقاطعات رهبان سانت جرمان الصالحين ،يتلون تعاويذ قد تقادم عليها الزمن، بعضها أغان كان يتغنى بها الفلاح الافرنجي على أرضه المسحورة قبل ان ينحدر جنوباً الى الامبراطورية الرومانية ، وبعضها رُقىً كان مالك النحل يرقي بها نحله وهو يجمعها على سواحل بحر البلطيق . لقد لونت المسيحية هذه الرقى والتعاويذ ولكنها لم تمح اصولها الوثنية. ولما كانت الزراعة اقدم الحرف التي عرفها الانسان واشدها امتناعاً على التغيير ، فقد ظلّت العقائد القديمة والخرافات البالية لاصقة بها ، وظلّ الآلهة القدامى يسيرون متخطرين على الاخاديد السمر التي يشقها المحراث في وجه الارض ، بعد أن امحت آثارهم من البيوت والطرقات وزالت منذ عهد بعيد . كان الفلاحون يرقون مواشيهم المريضة (كما كانوا يرقون المرضى من ابنائهم ايضاً) ، وكانوا يقرأون العزائم والادعية السحرية على حقولهم ليجعلوها اكثر خصباً واعظم انتاجاً . ولو سرت وراء بودو ، عندما يضع محراثه في الارض يشق فيها اول اخدود ، لرأيته يخرج من سترته القصيرة كعكة صغيرة ، اعدتها له زوجته ارمنترود من مختلف اصناف الطحين ، ولرأيته ينحني ويدسها في الاخدود وهو يغني :

ايتها الارض ، ايتها الارض ، ايتها الارض ، ايتها الارض ، يا امنا !

ليمنحك رب العالمين ،الذي اوجد كل شيء ، اخصاب التراب، ونمو الزروع .

ويهبك القوة العظيمة ، ويجعلك حبلى بالذرة الصفراء . ويغمرك بالعديد من سيقان الحنطة الخضر والنباتات المتألقة الزاهرة .

ويملوءك بازهار الشعير العريض ، وسنابـل الحنطة البيضاء ، السمينة ، الناضجة ، ويمتعك بحصاد كل ما عليك من نبات ... ايها الحقل الشبع ! لتُنْتِج للناس طعاماً وعلفاً ، ولتزهر نباتاتك ببهجة وإشراق ، ولتكن مباركاً .

وليمنحك الربّ ، الذي خلق الارض ، هبة النماء ، حتى تسد جميع الحبوب حاجاتنا ، وتكفينا مؤنتنا .

ثم يدفع بودو محراثه في الارض يشق وجهها شقاً .

لم تتدخل الكنيسة الحكيمة في هذه الشعائر والطقوس القديمـة . ولكنها علمت بودو ان يصلّي لرب العـالمين ، بدلا من ان يصلي لابيه السماء ، وان يرفع صلواته لمريم العذراء بدلا من ان يصلي لامه الارض . ولم تمانع الكنيسة ، بعد ان احدثت هذه التغييرات، في ان يصطنع الناس رقاهم وتعاويذهم وعزائمهم القديمة . لقد علّمته الكنيسة مثلا ، ان يدعو المسيح ومريم في التعويذة التي يرقى بها نحله . وعندما كانت ارمنترود تسمع نحلها يطن ، وهو يتجمع ويتزاحم ، كانت تقف بباب كوخها وتعوذها بهذه التعويذة :

يا يسوع المسيح ! ثول من النحل خارج كوخي .

طيري الي ياقطيعي الصغير . ارجعي الى البيت سليمة آمنة .

يرعاك الرب ؛ ويحوطك السلام المبارك ، اجلسي اجلسي ، ايتها النحلة ،

مريم القديسة تأمرك بذلك .

لن يؤذن لك بالذهاب ، ولن تطيري الى الغاب ،

ولن تهربي مني ، ولن تذهبي بعيداً عني ، اجلسي هادئة، ساكنة،

وانتظري ارادة الرب الراهنة .

والكنيسة ايضاً هي التي علمت بودو ان ينهي تعويذته للمريض بهذه الجملة : « ولتكن مشيئتك يا رب » . لقد اعتقد اجداد بودو، منذ دهور طويلة ، هذه العقيدة الراسخة التي تزعم ان المرء اذا احسّ بوخز مؤلم في جنبه ، او شعر بالم في اي موضع من جسمه ، فان مصدر الالم دودة استقرت في نخاع عظامه فهي تأكله اكلا . واذا اراد المريض الخلاص من اله فما عليه الا ان يضع على الموضع المتألم من جسمه سكيناً او سهماً او اية قطعة من المعدن ، ثم يتلو تعويذة من التعاويذ المناسبة ، تتملق الدودة ، وتحتال عليها للخروج الى حد النصل . وهذه هي التعويذة التي كان اجداد بودو الوثنيون يقرأونها دائماً، والتي كان بودو نفسه يقرأها اذا ما احس ويدو الصغير بألم : «اخرجي ايتها الدودة ، ومعك تسع دودات صغيرات ، اخرجي من النخاع الى العظم ، ومن العظم الى اللحم ، ومن اللحم الى الجلد ، ومن الجلد الى السهم » . ويضيف بعد ذلك (اطاعة للكنيسة) : « ولتكن مشيئتك يا رب » . على أن اعمال بودو وتصرفاته لم تكن مسيحية كلها . فقد كان يزور ، في بعض الاحيان، رجلا يظن الناس ان له قوى سحرية ، وكان يوقر شجرة ملتوية الجذع ، تحوم حولها اقاصيص قديمة لم تكد الايام تمحوهـا ، توقيراً

مبعثه الخرافة . وفي قضايا مثل هذه كانت الكنيسة متشددة . فقد كان يسأله القسيس ، عندما يعترف امامه في الكنيسة : « هـل استخرت السحرة والعرافين والمعزمين ؟ وهل نذرت النذور للاشجار والينابيع؟ وهل شربت شيئاً من شراب الحب السحري ؟ » وقد يسأله عما فعله عندما مرضت بقرته آخر مرة . على ان الكنيسة ، الى جانب تشددها وتزمتها ، كانت بالفلاحين رحيمة . فهـذا اسقف يقول لقسسه : «اذا جاءكم الاقنان فلا تطلبوا منهم ان يصوموا مثلما يصوم الاغنياء . اسألوهم ان يؤدوا نصف الفرائض فقط . ان الكنيسة لتعلم جيداً بان بودو لا يستطيع ان يسير وراء محراثه طول اليوم ومعدته خالية خاوية ، اما النبلاء الفرنجة ، الذين يقضون اوقاتهم في الصيد وحول موائد الطعام والشراب فلن يضيرهم ان يخسروا وجبة طعام.

ومن هذه الكنيسة المتشددة ، الرحيمة العطوفة في الوقت ذاته ، كان بودو يحظى بايام العطـل . فالكنيسة هي التي حملت الامبراطور التقي على ان يصدر امراً ملكياً بمنع العمل في أيام القديسين والآحاد . وقد اعاد ابن شارلمان اصدار هذا الامر الملكي عام ٨٢٧ ، وهذا هـو :

«لقد اصدرنا امرنا هذا ، بحسب قـانون الرب ، وبحسب امر والدنا المبارك الذكرى في منشوراته الرسمية ، بان لا يأتي الاقنان باي عمل في ايام الآحاد ، وان لا يقوم سائر الناس باعمـالهم الزراعية كذلك . فلا يشتغلون في بساتين الكروم ، ولا يحرثون الحقول ، ولا يجمعون الحبوب ، ولا يحصدون التبن ، ولا يقيمون السياجات للغابات ، ولا يقطعون الاشجار ، ولا يشتغلون في المناجم ، ولا يبنون البيوت ، ولا يشتغلون في الحدائق ، ولا يحضرون الى المحكمة ، ولا يطاردون

الصيد . ويسمح القانون للمرء ان ينقل حملا في واحدة من هذه الحالات الثلاث : ان يحمل اشياء للجيش ، او يحمل طعاماً ، او ينقل احد السادة النبلاء الى قبره عند اقتضاء الضرورة . ويجب على النساء أيضاً ان لا يغزلن ، ولا ينسجن ، ولا يفصلن القماش ، ولا يخطن بعضه الى بعض بالابرة ، ولا يمشطن الصوف ، ولا يدققن القنب ، ولا يغسلن الملابس على ملأ من الناس ، ولا يجززن المواشي ، حتى يكون يوم الرب يوم راحة . ولكن ليأت الناس من كل مكان فيشهدوا القداس في الكنيسة، وليحمدوا الرب ويشكروه على جميع الاشياء التي انعم بها علينا في ذلك اليوم . »

على ان بودو وارمنترود واصدقاءهما ، لسوء الحظ ، لم يكن ليرضيهم ان يذهبوا الى الكنيسة في ايام القديسين ، ويعودوا الى بيوتهم في سكينة وهدوء . فقد اعتادوا ان يقضوا ايام عطلهم بالرقص والغناء والمزاح والمجون ، كما كانت عادة الناس منذ القديم حتى عصرنا هذا المعتم المجول . لقد كانوا فرحين ، مرحين ، بعيدين كل البعد عن متطلبات الاخلاق الرفيعة والاذواق الرهيفة . وكان حوش الكنيسة هو المحل الذي يختارونه لرقصهم دوماً . وكانت معظم الاغاني التي يغنونها وهم يرقصون ، لسوء الحظ، اغاني وثنية قديمة ، توارثوها عن اجدادهم الاقدمين ، وتحدرت اليهم من احتفالات « يوم ايار » الذي لم يستطيعوا ان ينسوه ، او من اغاني حب ماجنة كانت الكنيسة تمقتها مقتاً شديداً . وقد شكت المجامع الكنسية ، المرة بعد المرة ، من ان الفلاحين ، واحياناً القسس انفسهم ، يغنون « اغاني شريرة تصاحبهم فيها جوقة من الراقصات . » او يقيمون حلقات للاناشيد والرقص والاغاني العابثة الشريرة ، وما الى ذلك من مغريات

الشيطان . وكم مرة منع الاساقفة هذه الرقصات والاغاني ولكن دون جدوى . لقد ظل سكان الريف ، في جميع اقطار اوروبا ، طوال القرون الوسطى والى عهد الاصلاح الديني ، يغنون ويرقصون في حوش الكنيسة . وبعد مئتي عام من وفاة شارلمان نشأت اسطورة راقصي «كولبيغ» الذين رقصوا ليلة عيد الميلاد في حوش الكنيسة رغم تحذير القسيس وانذاره ، فسمّروا جميعاً في الارض سنة كاملة حتى اطلقهم اسقف كولون . ويقول بعض الناس انهم لم يسمروا في الارض وقوفاً ، ولكنهم جعلوا يرقصون في مواضعهم العـــام كله ، فلما اطلق سراحهم ، كانوا قد غاصوا الى اوساطهم في الارض . وقد اعتاد الناس ان يرددوا هذه الابيات اللاتينية التي كان يغنيهـــا اولئك الراقصون :

ذهب بوفو ، ممتطياً فرسه ، خلال الغابة الوريقة
وكانت موسويند حبيبته الجميلة تخب الى جانبه
لماذا نقف نحن ساكنين ؟ لماذا لا نستطيع نحن الذهاب ؟ .

وهنالك قصة اخرى ، متأخرة النشأة عن قصتنا هذه ، تحدثنا عن قس في ورسترشاير ، ظل يقظاً طول الليـــل لان اصوات المغنين والراقصين في حوش الكنيسة كانت تتسلل الى اذنيه وتبعد عنه النوم ولم يستطع ان يبعد عن فكره هذه اللازمة التي كانوا يرددونها في اعقاب اغانيهم : « اعطفي عليّ يا حبيبتي » ، حتى انه في صباح اليوم التالي ، لما اخذ يتلو القداس ، قال : « اعطفي عليّ يا حبيبتي » بدلا من ان يقول : «ليحفظكم الرب» فصارت هذه الحادثة فضيحة فاضحة دونتها كتب التاريخ والاخبار .

وكان بودو لا يرقص ، احياناً ، بـــل يستمع لاغاني المنشدين المتجولين . وكان القسس لا يرضون عن هؤلاء المنشدين الافاقيين الذين كما يقولون ، سيدخلون جهنم حتماً جزاء انشادهم اغاني دنيوية نجسة تدور جميعها حول اعمال الابطال الوثنيين الفرنجة العظيمة ، بدلا من ان يرنموا الاناشيد المسيحية . على ان بودو واصدقـــاءه كانوا يحبون هذه الاغاني ، ويكلفون بها كلفاً عظيماً . وقد تفاقم هذا الامر بحيث كانت المجامع الكنسية ، احياناً ، توبخ رؤساء الاديرة ورئيساتها على الاستماع لهذه الاغاني . واسوأ ممـــا تقدّم ان الامبراطور نفسه ، شارلمان الصالح ، كان يحبها ، وكان دائم الاستماع الى احـــد هؤلاء المنشدين . ويحدثنا مؤرخ سيرته آينهارد : « انه كتب الاغاني البربرية القديمة ، التي كانت تتغنى بأعمال الملوك وحروبهم ، واستظهرها . » وقد بقيت ، على الاقل ، واحدة من هذه الحكايات الشعرية ، كان شارلمان يحب ان يكتبها الناس ، محفوظـــة على غلاف مخطوط لاتيني ، دونها راهب في أوقات فراغه . اما لويس التقي فقد كان يختلف عن والده شارلمان في هذا الامر . فقد أنكر القصائد القومية التي استظهرها في حداثته ، وما كان ليسمح لاحد ان يتلوهـــا ، او ينشدها ، أو يعلمها . وقد حرم المنشدين المتجولين من حق التقاضي في المحكمة، كما منع الرقص، والقصص ، والاغاني العابثة ،في المحلات العامة ، ايام الآحاد . على انه قد جر ، كذلك ، مملكة والـــده الى هاويـــة الخزي والدمار . ولقد جازى هؤلاء المنشدون المتجولون شارلمان على احسانه اليهم وعطفه عليهم فمنحوه شهرة خالـــدة ، اذ بفضلهم كانت اسطورة شارلمـــان تنمو خلال العصور الوسطى ، كما شارك شارلمان ملكنا ارثر شرف البطولة في احدى قصص العصور

الوسطى العظيمة . كان كل قرن من تلك القرون المختلفة يلبس شارلمان ثيابه الخاصة ، وينشد فيه الاناشيد الجديـــدة . لقد صنع هؤلاء المنشدون المحتقرون ، الملعونون ، لشارلمان ما لم يصنعه له المؤرخون الرهبان في صوامعهم : لقد منحوه شيئاً ، ربمـــا كان أهم وأبقى من مكان في التاريخ ، بوّأوه مكاناً علياً في الاساطير . ليس كل الاباطرة الذين يحكمون في ممالك الارض يحكمون في ممالك الذهب التي تحدث عنها الشاعر كيتس . لقد حكم شارلمان في مملكة الذهب مع الملك أرثر وكان اشراف بلاطه يطاعنون « فرسان المائدة المستديرة » على ظهور الخيل . وعلى كل حال فقد أفـــاد بودو من حب شارلمان لهؤلاء المنشدين الآفاقيين . وليس بعيداً عن الاحتمال ان يكون قـــد سمع ، في حياة الامبراطور نفسه، البدايات الاولى لهذه الاساطير التي صارت ملازمـــة لاسم شارلمان فيما بعد . وبإمكان المرء ان يتخيل بودو في حوش الكنيسة ، وقد اتسعت حدقتاه دهشاً ، يستمع للقصص الخرافية التي تصوّر حملة شارلمان الحديدية على بافيا ، كتلك القصص التي دونها في أخبـــاره فيما بعد راهب عجوز محب لفضول الكلام من رهبان القديس غال Gall .

اغلب الظن ان فكرة بودو عن حياة الامبراطور لم تكن لتعدو ما تتحدث عنه هذه الاساطير . هذا الامبراطور الذي كان حتى الاقنان الفقراء ، الذين لم يسيروا في مواكبه الى بلاط أو معسكر ، فخورين به . ولكن شارلمان كان سائحاً عظيماً . فقد كان ، مثل سائر الملوك في مطلع العصور الوسطى ، ينفق أوقاته ، حين لا يكون مشغولا في الحروب ، في التنقل في ارجاء مملكته وفي زيارة مقاطعاته الواحـــدة تلو الاخرى . وكان اذا حل في مقـــاطعة لا يتركها حتى يستنفد هو

وعياله ما فيها من مؤنة . وكان يغير وجهة سيره ، أحياناً ، فيزور مقاطعـــات اساقفته أو نبلائه الذين كانوا يضيفونه ضيافة ملكية ، ويكرمون مثواه أحسن إكرام . ولعله زار اسياد بودو ، في طريقهالى باريس ، ومكث في الدار الكبيرة ردحاً من الزمن . وعندئـــذ رآه بودو رجلا بسيطاً. فقد كان شارلمان يقطع الطريق راكباً فرسه ،لابساً سترته القصيرة المصنوعة من فرو ثعالب الماء ، ملقياً على منكبيهمعطفه الازرق البسيط . (يخبرنـــا آينهارد ان شارلمان كان يكره الملابس الفخمة ، وكان يرتدي في الايام العادية ، لباس عامـــة الناس .) وكان يأتي وراءه أبناؤه الثلاثة ، وحرسه ، وبناته الخمس . ويحدثنا آينهـــارد ايضاً فيقول : « كان يهتم بتربية أبنائه وبناته ، وتنشئتهم ، اهتماماً عظيماً ؛ فكان لا يجلس لطعام الا وهم معه ، ولا يسافر دون ان يصحبوه في سفره . وكان ابناؤه يسايرونه على الطريق ، أما بناته فكن يركبن في المؤخرة . وكان بعض حرسه يراقبون نهاية خطالسير عندما يسافرون في معيته . كانت بناته جميلات بارعات الجمال . وكان هو يحبهن حباً عظيماً . وعلى هذا فقد كان غريباً ان لا يزوجهن من أي انسان ، سواء كان من ابناء شعبه أم من ابناء شعب آخر . وقد أبقاهن في بيته حتى ساعة وفاتـــه ، مدعياً انه لا يستطيع فراقهن ، وترك عشرتهن . »

ولعل الحظ قد ساعد بودو فشاهد ، وركبتاه تصطكان خوفاً ، شيئاً هائلا لا عهد له به من قبل ، ذاك هو فيل الامبراطور . فلقد أهدى هارون الرشيد ، سلطان « ألف ليلة وليلة » العظيم ، هذ الفيل الى الامبراطور شارلمان ، وكان يرافقه في جميع اسفاره . كان اسمه ابا

لبابة ، وهي كلمة عربية معناها ابو الذكاء(١). ومات هذا الفيل ميتة الأبطال ، في حملة ضد الدانمركيين عام ٨١٠ م . من المؤكد ان أرمنترود، بعد مشاهدتها للفيل، ظلّت تخوف غيربرت الصغير ،عندما يشاكسها ، وعندما تريد حمله على السكوت بقولها : « سوف يأتي أبو لبابة ، ويحملك بخرطومه الطويل . » أما ويدو ، الذي كان قد بلغ من العمر ثماني سنين وأخذ يعين أباه في اعالة الاسرة ، فكان يصرح بأنـه لم يحس بأي خوف عندما أبصر الفيل ، ولكنه كان يعترف ، عندما يسأل بالحاح ، بانه يفضل على الفيل هديـة هارون الرشيد الاخرى الى الأمبراطور ، الا وهي الكلب المحب ، الأليف ، الذي كان يلتفت لمن ينادونه باسم : بيسبريلو .

واذا جاء هؤلاء العظام زادت مشاغل بودو ، وازدحمت أوقاتـه بالاعمال. اذ يجب ان تكون جميع الاماكن والاشياء نظيفة عند قدومهم ويستدعى صانعو المقانق والفطائر ، وتعدّ مائدة عظيمة . ومع ان الاقنان من حشم الدار كانوا يقومون بمعظم الاعمال ، فقد كان من المحتمل ان يستدعى بودو لمساعدتهم . ولقد ترك لنـا راهب القديس غال ، المحب للقيل والقال ، صورة مسلية لما اعترى الناس من هرج ومرج واهتياج عندما زارهم شارلمان فجأة ؛ إذ قال :

«كانت توجد ابرشية تقع على طريق شارلمان عندما كان ينتقل في رحلاته واسفاره ، وكان يصعب عليه ان يتجنب المرور بهـا . وكان اسقف تلك الابرشية ، الذي كان ارضاء الامبراطور شغـله الشاغل ، يضع كل ما يملك تحت تصرف شارلمان . ولكنّ شارلمان

١) مما يستلفت النظر ان لفظ هذا الاسم لم يتناوله التحريف في اسفار المؤرخين والاخباريين .

زار الابرشية ، ذات يوم ، زيارة مفاجئة ، لم تكن في الحسبان . فأخذ الاسقف يتطاير ها هنا وها هنالك ، قلقاً مهموماً ، كالسنونو. ولم يأمر بتنظيف القصور والدور وكنسها فحسب بل لقد امر بتنظيف الساحات والاحواش كذلك . واخيراً تقدم لاستقبال الامبراطور وهو مهدود القوى ، مشدود الاعصاب ، مهتاج النفس . وقد ادرك هذا كله الامبراطور التقي غاية التقوى . وبعد ان فحص كل صغيرة وكبيرة باعتناء قال للاسقف : «يا مضيفي الكريم ! انت دائماً تنظف كل شيء ، تنظيفاً رائعاً ، احتفاء بقدومي » . ثم ان الاسقف ، وكأنما ألهم بوحي من السماء ، أحنى رأسه ، وأخفى هياجه ، وأمسك بيد الملك اليمنى ، التي لم تقهر ابداً ، فقبلها قائلا : « من حقك يا مولاي ان ينظف كل شيء تنظيفاً جيـــداً اينما حللت » . فاجاب شارلمان ، احكم الملوك جميعاً ، وقد فهم الحالة : « لئن كنت أفرغ فانا املأ ايضاً » . واضاف قائلاً : « لقد وهبتك المقاطعة المجاورة لابرشيتك ، فهي ملك لك ولخلفائك من بعدك أبد الدهر . » وفي نفس هذه الرحلة ايضاً قدم الامبراطور على اسقف كان يسكن موضعاً لا بد له من المرور فيه . وكان الامبراطور في ذلك اليوم ،الذي كان السادس من ايام الاسبوع ، راغباً عن اكل لحوم البهائم والطيور ، فأمر الاسقف ، الذي لم يستطع ان يحضر سمكاً في الحال بسبب طبيعة المكان ، ان يقدم له جبن دسم ، ممتاز . ثم ان شارل ، وهو اضبط الناس لجماح نفسه بحسن تأتيـــه الذي يبديه في كل مكان وفي كل المناسبات ، وفر على الاسقف حمرة الخجل ، فامر بان لا يقدم له لون آخر من الطعام . ولكنه امسك السكين بيده فكشط بها غشاء الجبن ، الذي ظنه خبيث الطعم ، واخذ يأكل لب الجبن الابيض .

ولما رأى الاسقف ، الذي كان يقف على مقربة من المائدة كأنه احد الخدم ، ما صنع الامبراطور ، دنا منه ، وقال له : « لماذا تفعل هذا يا سيدى الامبراطور ؟ انك لترمي احسن اجزاء الجبنة . » ثم ان شارل ، الذي لم يخدع احداً قط ولم يعتقد بوجود واحد يغشه ويخدعه وضع في فمه قطعة من الجبنة ، بناء على اقناع الاسقف له ، واخذ يمضغها مضغاً بطيئاً ، ثم ازدردها كما يزدرد الزبدة . وقال مصدقاً لنصيحة الاسقف : « يا مضيفي الطيب ! ان ما قلته حق ، كل الحق . » ثم اردف : « ولا تنس ان ترسل لي ، الى ايكس ، كل عام عربتين محملتين جبناً من هذا الجبن نفسه . » فارتعب الاسقف من هذا الطلب الشاق ، المستحيل التنفيذ ، وقال ، وهو يخشى ان يفقد وظيفته ورتبته الكنسية : « مولاي ! باستطاعتي ان اعد الجبن ، ولكني لا استطيع ان اعرف اي نوع من الجبن تحبون ، واي نوع منه لا تحبون ، ولا ترغبون فيه . وانا اخشى ان اخطىء في الامر فيلحقني غضبكم ، وينالني لومكم . » ثم ان شارل ، الذي لم يفلت من بعد نظره وحذقه شيء مهما كان غريباً وجديداً ، قال للاسقف ، الذي يعرف منذ طفولته هذه الانواع من الجبن وان لم يكن يستطيع اختبارها ، : « اقسم الجبن قسمين ، وشك قطع الجبن التي تظن انها من النوع المطلوب في سفود واحفظها في سرداب بيتك بعض الوقت ، ثم ارسلها لي . أما الباقي فابقه لنفسك ولقسسك وافراد اسرتك . »

وصنع الاسقف هذا عامين ، وكان الملك قد أمر أن تؤخذ هذه الهدية من الجبن دون ابداء أية ملاحظة . فلما كانت السنة الثالثة حمل الاسقف بنفسه جبنه الذي تعب في جمعه تعباً شديداً . على ان شارل ، أعدل الناس ، أشفق على جهده وقلقه ، فاضاف الى ابرشيته مقاطعة ممتازة ، ينعم هو وخلفاؤه من بعده بما تنتج من حبوب ونبيذ . »

قد نشفق على الاسقف المسكين ، المضطرب ، وهو يجمع حمل عربتين من الجبن ، وقد نتألم له . ولكن عطفنا الحقيقي يجب ان نسبغه على بودو الذي كان عليه ، في أغلب الظن ، ان يدفع أجاراً أضافياً من الجبن ، ليرضي ذوق الامبراطور ، دون ان يحظى بمقاطعة تعوضه عما انفق من جهد ومال .

ومهما يكن من شيء فقد كانت زيارة الامبراطور حدثاً فريداً في حياة بودو ، يظل يتحدث عنه سنين عديدة ، ويقص أنباءه على ابنائه وحفدته . وكان هنالك حادث آخر ، يقع في العام مرة ، كان بودو وأصدقاؤه ينتظرونه بنفوس قلقة ، مهتاجة . ففي كل عام يأتي قضاة الملك المتنقلون ، ويعقدون محكمتهم ، ليتأكدوا من ان الاسياد المحليين «الكونتات» يسوسون الرعية بالعدل . كان يأتي من هؤلاء القضاة المتنقلين أسقف وكونت . وربما كانوا يبيتون ليلة واحدة في الدار الكبيرة ، ضيوفاً على رئيس الرهبان ، ثم يرحلون الى باريس في اليوم التالي حيث يعقدون هنالك محكمتهم ، في الساحة الواسعة المكشوفة أمام الكنيسة . ويتوافد على المحكمة ، من جميع المقاطعات المحيطة بباريس ، كبار الناس وصغارهم ، النبلاء منهم والمحررون والمستوطنون «الكولون» ، يعرض كل واحد منهم شكواه ، ويطلب من المحكمة أن تأخذ له حقه ، وتنصفه من غرمائه . وقد يذهب بودو الى المحكمة يعرض شكواه على القضاة ، اذا سطا عليه سارق ، او اعتدى عليه معتد . ولو كان بودو ذكياً فطناً لما ذهب الى المحكمة خالي اليدين من الهدايا ، واثقاً بالعدالة ، معتمداً على نزاهة القضاة . فمع ان شارلمان كان صارماً جداً لم يمتنع القضاة في عهده عن الرشوة ، اللهم إلا اذا كانوا من ذوي النزاهة النادرة ، والتقوى الخارقة للعادة.

لقد ترك لنـــا ثيودولف اسقف أورليانز ، الذي كان أحد قضاة الامبراطور ، قصيدة لاتينية فائقة المتعة ، يصوّر فيهـــا رجال الدين والدنيا ، الذين كانوا يحتشدون في محكمة ، لشراء العدالة من القضاة. كان كل واحد منهم يقدم هدية على قدر إيراده ودخله . فكان الاغنياء يعطون النقود والجواهر والاقمشة اللطيفة ، والسجاجيـــد الشرقية ، والاسلحة ، والخيول ، والاواني الاثرية المصنوعة من الذهب أو الفضة وعليها نقوش تمثل هرقل وهو يقوم بأعماله . أما الفقراء فكانوا يقدمون الجلود المصنوعة في قرطبة ، مدبوغة وغير مدبوغـــة وقطع القماش الفـــاخر ، أو الانسجة الكتانية البيضاء (يا لأرمنترود المسكينة ! لقد أجهدت نفسهـــا ، ولا شك ، اجهاداً عظيماً خلال الشهر السابق لمجيء القضاة) وصناديق ، وشمعاً .

لقد صرخ الاسقف ثيودولف ، الذي كانت تهزه هذه الحالـــة وتقلق ضميره ، هذه الصرخة المدوية : « بهـــذا المنجنيق يريدون ان يهدموا اسوار روحي ، وما كانوا ليظنوا في انفسهم القدرة على زعزعتي لو لم يكونوا قد زعزعوا القضاة الاخرين من قبلي . » ولئن صحت هذه الصورة التي يرسمها القاضي الشاعر لكانت قوافل العربـــات والخيول تسير ابداً في ركاب قضاة الملك تحمل ما يحصلون عليه من الهدايا والهبات. وحتى ثيودولف نفسه عليه ان يعترف بأنه قد اضطر ؛ حتى لا يؤذي شعور الناس ، لقبول بعض الهدايـــا الزهيدة كالبيض والخبز والنبيذ والفراريج والطيور الصغار التي كانت اجسامها ، كما يقول وهو يتمطق ، صغيرة ناعمة ، ولكنها طيبة المذاق ، لذة للآكلين إن المرء يكـــاد ان يلمح ، وراء هذه البيضات والطيور الصغيرة ، وجه بودو القلق ، الساهم ، المهموم .

وكانت لبودو مسرة أخرى تحدث في العام مرة . فقد كانت سوق القديس دينيس الكبيرة تبدأ بانتظام كل عام في اليوم التاسع من شهر تشرين الاول ، خارج ابواب باريس ، وتمتد شهراً كاملا . وقبل ابتداء السوق باسبوع تأخـذ الحوانيت المؤقتة والمظلات بالظهور . وكان لكل من هذه الحوانيت والمظلات واجهات مكشوفة يعرض فيها التجار ما عندهم من بضائع وعروض . وكان رهبان القديس دينيس ، الذين كان لهم الحق في أخـذ ضريبة من التجار الذين يفـدون الى السوق لبيع سلعهم ، يعنون بتسييج السوق تسييجاً محكماً ، ويهتمون بان يروا الناس يدخلون السوق من ابوابها، ويدفعون ما يجب عليهم من نقود. فقد كان التجار المحتالون يتملصون من دفع الضريبة المفروضة ، أحياناً ، وذلك بان يحفروا حفرة تحت السياج أو يتعدوه طفرا . وتزدحم شوارع باريس بعشرات التجار وقد حملوا بضائعهم في عربـات النقل أو على ظهور الخيول والثيران . وتتوقف حركة التجارة المنتظمة في بـاريس شهراً كاملا منذ يوم افتتاح هذه السوق . فقد اتخذ صاحب كل حانوت في باريس لـه حانوتاً أو مظلة في مكان مـا داخل السوق ، واخذ يبادل ما تنتجه المقاطعة من حبوب ونبيذ وعسل بالسلع النادرة المجلوبة من الاصقاع الاجنبية . واغلب الظن انه كان لرهبان دير مقاطعة بودو دكـة في هذه السوق ، يبيعون عليها بعض تلك القطع من القماش التي نسجتها النساء الاقنان اللاتي يعشن في جناح النساء من الدار الكبيرة ، أوجبناً ولحماً مما تعد المقاطعة ، او نبيذاً مما يدفعه بودو وزملاؤه الفلاحون ايجاراً . ولا ريب في ان بودو كان يحصل على إجـازة ويذهب الى السوق . والحق ان الوكيل كان يلاقي صعوبة عظيمة في حمل رجاله على العمل خلال هذا الشهر . وقد اضطر شارلمان الى ان يوجـه

لوكلائه أوامر خاصة يطلب فيها منهم ان يكونوا : « معنيين بأن يروا الرجال يؤدون الاعمال الواجب عليهم القيام بها بحكم القانون ، ولا يضيعون اوقاتهم في الذهاب الى الاسواق العامة . » وكان بودو وزوجته أرمنترود وأولاده الثلاثة يرتدون احسن ملابسهم ، ويذهبون الى الاسواق ، وما كانوا ليعتبروا الذهاب الى السوق ، مرة اومرتين او ثلاثاً، هدراً للوقت . وكانوا يدعون بأنهم انما يذهبون الى السوق ليبتاعوا ملحاً يملحون به لحوم الشتاء ، او ليشتروا صبغاً من القرمز يصبغون بـه ثياب الطفلة الصغيرة . اما ما كانوا يريدونه حقاً فهو التجول في السوق . والتمتع بمرأى هذه العروض والسلع الغريبة التي كانت تزدحم بهـا الحوانيت والمظلات . فقد كان التجار يأتون الى سوق القديس دينيس ليبيعوا لاسياد بودو بضائعهم المجلوبة من بلاد الشرق النائية . وكان النبلاء الفرنجة الميسورون يساومون في السوق على الحلل الحريريـة الارجوانية المحلاة بحواش برتقالية اللون ، والستر القصار المصنوعة من الجلد الموسوم ، وريش الطواويس ، وريش النعام القرمزي (الذي يدعونه أديم العنقاء) ، والعطور ، واللآليء، والأفاويه ، واللوز،والزبيب ، والقردة والسعادين، لتلهو بها زوجاتهم كان هؤلاء التجار يفدون من البندقية ، احياناً ، على انهم كانوا ، في أغلب الاحيان ، سوريين ، أو يهوداً محتالين ، دهـاة . لقد ضحك بودو واصحابه ضحكاً عالياً عند سماعهم قصة التاجر اليهودي الذي خدع اسقفاً كان شديد الولوع بآخر ما يستجد من البدع الطرائف ، وذلك بان حشا فأراً بالأفاويه والتوابل ، وعرضها عليه للبيع قائلا : انه قد جلب هذا الحيوان الثمين ، الذي لم يره الناس من قبل ؛ من يهوذا ــ أرض الميعاد ؛ ولم يسلمه اياها الا بعد ان استوفى ثمناً غالياً

وكان هؤلاء التجار يشترون ، مقابل مـــا كانوا يبيعونه من بضائع وسلع ؛ القماش الفريزي ؛ الذي كان يمتدحه الناس كثيراً ؛ والحبوب وكلاب الصيد. واحياناً كانوا يبتاعون قطعاً من الحلي الذهبية الجميلة المصنوعة في محترفات الاديار . وكان بودو يسمع مئة لغة ولهجة وهو يطوف في السوق . فقد كان رجال من سكسونيا وفريزيا واسبانيـــا وبروفانس وروان ولمبارديا ، وربما رجل او رجلان من الانكليز ، يملأون الأزقة الضيقة . وكان يأتي الى السوق ؛ بين حين وآخر ، عالم أرلندي يحمل مخطوطاً يبتغي بيعه ؛ وتتردد على شفتيه اغاني أرلندة الغريبة ، الحلوة :

يحيط بي سياج من الشجر ،
ويغنيني الشحرور نشيداً ،
وفوق كتيبي المسطّر ،
تغني الطيور بصوتها الراعش ،
ويغني الوقوق ، في أعالي الشجيرات ،
مرتدياً حلته السمراء :
الحق اني لأجيد الكتابة تحت
الاشجار الخضراء ،
فليحرسني الرب ويرعني .

وكان في هذه الأسواق أيضاً كثير من المشعوذين ، والبهلوانات ، والحواة ، ومرقصي الدببة ، الـــذين يعرفون كيف يستلون فلوس بودو القليلة من جيبه استلالا . ثم تعود الاسرة الى الدار متعبة ، مسرورة ، في عربـــة من عربات النقل الصغيرة ، تتدحرج بهم على

الطريق ، وتهزهم ذات اليمين وذات الشمال .

اما بعد ، فان الحياة في المطبخ ليست معتمة ، كئيبة ، كما نتصور وبعد ان يفرغ المرء من شارلمان واشراف بلاطه ، فلا بأس عليه ان ينفق بضع دقائق مع بودو في حقله الصغير . ان التاريخ ، على وجه العموم ، يتألف من أمثال بودو هذا .

الفصل الثاني

ماركو بولو

رحالة بندقي من القرن الثالث عشر

« وكانت كينساي (هنغشو) اعظم مدن العالم جميعاً . كانت على درجة من العظم بحيث ما كنت اجرؤ على التحدث عنها لولا انني لقيت في البندقية خلقاً كثيراً قد زاروها ، ومكثوا فيها ... واظن ان من يرغب في التحدث عن اتساع المدينة ، وعظمة عجائبها ، سيجد امامه مادة للكتابة يتطلب تدوينها كمية عظيمة من الورق ، لانها اعظم مدن العالم واشرفها ، ولأن فيها الطف وانفس ما في العالم من سلع . » (١)

اودوريك البوردينوني

لنرجع بافكارنا الى الوراء — وحبذا لو كان بامكاننا ان نرجع باجسامنا ايضاً! — الى سنة ١٢٦٨ . انها سنة لم تترك في كتب التاريخ دوياً عظيماً ، ولكنها تفي بالغرض الذي نقصد اليه . كانت البندقية في تلك الايام ، كما هي في ايامنا هذه ايضاً ، تمتد على المستنقعات

(١) لم اترجم بضعة اسطر ، باللاتينية ، سبقت هذه المقدمة . (المترجم)

والبحيرات وكأنها ، كما رآها كاسيودورس منـذ عهد بعيد ، عش طائر بحري يطفو فوق الامواج . مدينـة كانها سفينة مشدودة الوثاق الى اليابسة ، لا تحس بالحرية والانطلاق الا في عرض البحـار .
والبندقية هي اعظم مدن العالم الغربي انفة وكبرياء . وحسب من يريد الاحاطة بعظمتها ان يلاحظ موقعها . لقـد استطاعت ان تجمع في ميناثها جميع الطرق التجارية البرية التي كان بامكان البراذين ان تسلكها والطرق البحرية التي كان باستطاعة السفن الشراعية ان تمخر فيهـا وذلك بحكم كونها واقعة على رأس البحر الادرياتي ـ الذي كان اعظم طريق بحرية لتجارة العصور الوسطى ـ متوسطة بين الشرق والغرب، وبحكم كونهـا ميناء من موانيء البحر الابيض المتوسط ، ميناء جعله وقوعـه في اقصى الطرف الشمالي يكاد ان يكون في قلب اوروبا. في البندقية كان يرسو التجار الذين يحملون الانسجة الحريرية ، والتوابل ، والطيوب ، والكافور ، والعاج، واللؤلؤ ، والعطور، والطنافس ، من الموانيء الواقعة في شرق البحر الابيض المتوسط ، ومن البلاد الحارة الممتدة الى الشرق منها . فسواء اتوا عن طريق مصر مقلعين في نهر النيل الواطيء الضفتين ، او مترنحين على ظهور الجمال الى الاسكندرية وسواء سلكوا سبل بلاد فارس الغنيـة البهيجة ، وصحراء بادية الشام الى انطاكية وطرابلس ، وسواء ساقوا قوافلهم ، الطويلة ، الضيقة ، سوقاً بطيئـاً ، عبر هضاب آسيا الوسطى وجنوب بحر قزوين الى طربزون، حيث يبحرون منها في البحر الاسود ومضيق الدردنيل، فان البندقية تبقى ابداً مركزهم الطبيعي، وملتقاهم. كان بامكان القسطنطينية فقط ان تزاحمها ، ولكنها قـد هزمت القسطنطينية ، وقهرتها . الى البندقية ، اذن ، كانت ترد اسلاب الشرق ، كانما يجذبها مغناطيس .

ومن البندقية كانت هذه الاسلاب تنقـل على ظهور الخيل الى المانيا وفرنسا عن طريق ممري سانت غوثارد وبرينر ، او تحمـل في السفن القديمةوالزوارق العظيمةالى انكلترا وبلاد الاراضي الواطئة(الفلاندرز) عن طريق مضيق جبل طارق . وتعود السفن وخيول النقل الىالبندقية مثقلة بمعادن المانيا ، وفراء اسكندناوة ، واصواف انكلترا الفاخرة ، واقمشة الاراضي الواطئة ، وخمور فرنسا .

واذا كانت الجغرافية قد منحت البندقية موقعاً لا منافس له ، فقد قام البنادقة بما يكمل عظمة مدينتهم . فلقـد تحدوا ، طوال السنوات الاولى من تاريخهم ، القسطنطينية في شرقهم ، والبـابا والامبراطور الروماني المقدس في غربهم . وكانوا ينحازون تارة الى هذا الجانب ، وتارة الى ذاك ، ولكنهم ظلوا محافظين طوال الوقت على استقلالهم باصرار وعناد . وكانوا يجيبون اذا دعوا ليكونوا اتباعـاً خاضعين : « لقد نجّانا الله، نصيرنا وحامينا، بان جعلنا نسكن فوق هذه المياه . ان البندقيـة ، التي انشأناها بين المستنقعات والبحيرات انشاء ، هي مسكننا القوي. ولن تستطيع قوة اي امبراطور او امير ان تمتد الينا» . وكانوا قادرين ، اذا مـا هوجموا ، ان يلجـأوا الى جزرهم ، حيث يطلقون ، ساخرين ، على العدو المعسكر على اليابسة والذي يبغي ان يذيقهم الجوع ، قذائف من الخبز . كانوا شاعرين على الدوام بـان مستقبلهم يمتد فوق مياه البحار ، وينبسط في ذلك الشرق الذي انسل لونه الى حضارتهم ، وادفأ دماءهم . كان البنادقة شرقيين وغربيين . فقد كانت لهم قلوب حارة للحب والانتصار ، وعقول باردة لتنظيم الخطط ، والحكم . لقد استولو على اليابسه القائمة وراءهم شبراً فشبراً، بينما كانوا يحبطون ، في الوقت ذاته ، غارات القرصان من الصقالبـة

والمسلمين الذين كانت سفنهم تبث الرعب في البحر الابيض المتوسط. ثم انحدروا على الساحل الدلماشي الذي كان قرصانه يهددون تجارتهم فاحتلوه بأجمعه ، وأصبح دوق البندقيـة دوق (١) دلماشيا . ويقول مؤرخهم : « الواقع ان البحر الدلماشي هو جزء من دوقية البندقية . » وقد دعوه «خليج البندقية». ومنذ ذلك الحين بدأ القيام بذلك الاحتفال الرمزي الرائع بزواج البحر من المدينة بهذه الكلمات الفخورة : « كانت مدينة عذراء مشرقة الطلعة ، حرة الشمائل ، لا تغويها خدعة ، ولا تستطيع انتهاك حرمتها اية قوة . ولما ارادت ان تتخذ لنفسها زوجاً ، تزوجت البحر الخالد » والحق ان البحر كان يبدو وكأنه قـد أقسم ان يكرمها ، ويطيعها .

ثم جاءت الحروب الصليبية ، عندما تناست أوروبا اختلافاتهـا وألقت بنفسها على «الكفّار» الذين كانوا يسيطرون على مواقع إيمانها المقدسة ، وعندما سارت جموع الناس ، من اقطار شتى ، تحت راية الصليب نحو ابراج القدس التي كانت اعظم حقيقة من برج بابـل . إذ ذاك رأت البندقية حلمهـا في متناول يدها ، فالبندقية هي التي امدت الحملات الصليبية بالسفن ، والحراس ، والجنود ، ومأموري الميرة ، متقاضية على ذلك مبالغ طائلة من المال . وعندما حل وقت توزيع الاسلاب والغنائم طالبت البندقيـة ان يكون لها في كل مدينة محتلة ، في سوريا وفلسطين ، كنيسة ، ومكتب للتجارة ، وان تعفى تجارتها من الضرائب والرسوم . وقد تحققت فرصتها العظيمة ، في الحملة الصليبية الرابعة ، حينما حوّل دوجها الأعمى انريكو داندولو الحملة الصليبية بأجمعها لمصلحتها ، بحجة ان الصليبيين لم يستطيعوا

---

(١) (دوج) Doge

تسديد اجور النقل المتفق عليها . فهاجمت ، باديء ذي بدء ، زارا التي تجرأت فاعلنت الحرب عليها، ثم هاجمت عدوتها القديمة ومنافستها الوحيدة ، القسطنطينية الخالدة نفسها . صحيح ان البابا حرم البنادقة أول مـــا وجهوا الجيوش ضد زارا . ولكن ما كانت جدوى ذلك الحرم ؟ لقد نهبوا القسطنطينية وأعـــادوا الى كنيسة القديس مرقص الاحصنة الاربعة المذهبة العظيمة – كنيسة القديس مرقص التي كانت تشبّه بكهف من كهوف اللصوص ، يغص باسلاب الشرق الادنى ، والتي كانت تضم رفات القديس المقدسة ، التي سرقها البنادقة من الاسكندرية ، بعد ان اخفوها في دنّ من الدنـــان التي كانت تحفظ فيها لحوم الخنازير المملحة ، تضليلا للمسلمين . وصار بطريرك بندقي يقرأ القداس في كنيسة ايا صوفيــا . ونالت البندقية لقب « حاكمة ثلاثة أرباع الامبراطورية » ، ذلك اللقب الذي ترن كلماتـــه رنين الطبول . وصار الدوج الآن ، الذي يرتدي حلة قرمزية اللون كما كان يفعل أباطرة الرومان الاقدمون ، الحاكم المطلق على اربعة بحار : البحر الادرياتي ، والبحر الايجي ، وبحر مرمرة ، والبحر الاسود . وكانت متاجر البنادقة ترصع سواحل شرقي البحر المتوسط : في طرابلس ، وصيداء ، وسالونيكا ، وأدرنه ، والقسطنطينية ، وفي طربزون على البحر الأسود ، بل وفي كافا ، في شبه جزيرة القرم النائية ، حيث تبدأ الطريق الخفية ، الغامضة ، الى روسيا . وكانت كريت ، ورودس ، وقبرص ، تحت حكمها . وكنست سفنهـا قرصان البحر كنسا . ولم تكتف لتصبر على منافس ينافسها ، اذ يجب ان تمر جميع التجارة مع الشرق بالبندقية ، بالبندقية وحدها . وقاومتها المدن التجارية الايطالية ، وكادت جنوة ان تنافسها . الا انها حطمت

الاسطول الجنوي ، تحطيماً تاماً ، في عام ١٢٥٨ ، ثم في عام١٢٨٤ . فما كان لمدينة جنوة « التي لها بحر بلا سمك ، وجبال بلا غابات ، ورجال بلا ايمان ، ونساء بلا حياء » ان تحطم الخيول المنتصبة في كنيسة القديس مرقص اجزاء دقاقاً . كانت البندقية تبدو ، عام ١٢٦٨ ، سيدة الممالك والمدن ، فقد كان سلطانها يمتد على القسطنطينية وسواحل المتوسط الشرقية . وكان من حق مؤرخها ان يكتب عنها: كانت دلماشيا ، والبانيا ، ورومانيا ، واليونان ، وطربزون ، وسوريا وارمينيا ، ومصر ، وقبرص ، وكانديا ، وابيوليا ، وصقلية ،وغيرها من الاقطار والممالك والجزر ، بساتين شعبنا المثمرة ، وقصوره الفخورة ، حيث وجدوا فيها المتعة ، والربح ، والأمن ... لقد طوّف البنادقة في البحر ها هنا وها هنالك ، وقطعوه طولا وعرضاً، وذهبوا الى كل محل يجري فيه ماء ، وابتاعوا السلع وجلبوها الى البندقية من كل مكان . ثم جاء الى البندقية المان ، وبافاريون ، وفرنسيون ، ولومبارديون ، وتوسكانيون ، وهنغاريون ، ورجال من كل شعب يعيش على التجارة ، فابتاعوا هذه السلع وحملوها الى بلادهم لا عجب إذن (كما لاحظ ذلك سائح من عصر متأخر) ان يفخر البنادقة بحكمهم العظيم ، وسلطانهم الباذخ ، وان يرددوا ، اذا ما رزق احدهم ولداً ، « لقد جاء الى العالم سيد »

الا يحق لنا ان نقول ان البندقية كانت اعظم مدن الارض فخراً واعتزازاً ؟ المدينة الشريفة التي تسمى البندقية ، والتي تحتل أجمل موقع في عصرنا هذا (١) لقد كانت الحياة فيها رخية ، زاهية ، لاولئك

(١) أوردت المؤلفة هذه الجملة بالفرنسية (المعرب)

الامراء التجار الذين كانوا يتنعمون بارباحهم المتدفقة عليهم من الشرق البهي عام ١٢٦٨ . في تلك السنة ، وفي بيوت تجاريـــة كبيرة مبنية بالحجارة تحفها قنوات المـــاء ، كان جماعة من التجار يضبطون ، وسجلاتهم في ايديهم ، أكياس حب الهـــال ، والتوابل ، وجوز الطيب ، والقرفة ، والزنجبيل ، الواردة عليهم من جزر الهند الشرقية، وبياذق الشطرنج العاجية الواردة من الهند الصينية ، والعنبر من مدغشقر ، والمسك من التبت .

وفي تلك السنة ايضاً كان المدعو مارتينو دا كانال ، الكاتب في دائرة الجمارك ، قد بدأ يشغل نفسه بكتابة تاريخ البندقية باللغة الفرنسية الأنيقة . (فهذه اللغة الفرنسية هي ألطف لغات العالم ، وآنقهـــا ، والذهـــا عند القراءة والسماع .) (١) ان تاريخ كانال كالماء رقة وتدفقاً ، كالنغمة الحزينة الحلوة . وتكاد حساسيته القوية ، المركزة ؛ تذيب نفسها في العناصر التي تتأملها . ولا يجد فيه القارىء ما يجده في الاوديسة من دوي واصطخاب وتدفق ، ولكن كلماته الحلوة تتألق تألق الشمس على صفحة مياه البحر الابيض المتوسط . ولا بدع ان كانت العبـــارة التالية تتردد في ثنايا الحديث كما تتردد اللازمة في القصيدة : « كان الجو صحواً ، رائق الصفاء ... وعندما يكون البحارة في عرض البحر يبسطون القلوع للريح ، ويتركون السفن تنزلق على سطح البحر ، واشرعتها مبسوطة أمام الريح . » فقدجرى معظم وقائع تاريخ البندقية على ظهور السفن . وقد كان تاريخ كانال الى ذلك ، فخوراً ، متشامخاً ، وكيف لا يكون كذلــك وصاحبه

---

(١) وردت هذه الجملة بنصها الفرنسي (المترجم)

مواطن في مدينة عظيمة ، وهو يعرف هذه الحقيقة احسن معرفة .
يقول كانال :

اريد ، الآن ، ان يعرف جميع الناس اعمال البنادقة، معرفةراسخة وان يذكروها الى الابد . اريدهم ان يعلموا جميعاً من هم البنادقة ، ومن اين جاؤوا ، ومن كانوا ، وكيف بنوا المدينة الشريفة التي تدعى البندقية ، والتي هي اليوم أجمل مدائن الدنيا طراً . وأود ان يعرف جميع من ينعمون بالحياة اليوم ، وجميع من سيولدون في المستقبل كيف انشئت هذه المدينة الشريفة ، وكيف اجتمع فيها كل شيء حسن وجميل ، وكم هو عظيم سيد البنادقة ، الدوج النبيل ، وما هي الاسر الشريفة التي استقرت فيها ، وأريدهم ان يدركوا مدى صولة البنادقة وأقدامهم ، وان يعرفوا انهم مؤمنون حق الايمان بدين يسوع المسيح ، مطيعون كل الطاعة للكنيسة المقدسة ، وانهم لم يخالفوا وصايا الكنيسة المقدسة مطلقاً . لم يجرؤ الملاحدة ولا المرابون ولا القتلة ولا اللصوص ان يعيشوا في البندقية النبيلة . وسأحيطك علما باسماء جميع الدوجات الذين حكموا البندقية ، الواحد بعد الآخر ، وأقص عليك انباء ما قاموا به في سبيل اعلاء مجد الكنيسة المقدسة ، ومدينتهم الشريفة . وسأخبرك عن اسماء القواد الشرفاء الذين بعثهم الدوجات الاجلاء ليقهروا اعداءهم ويخضعوهم ، وسأقص عليك طرفاً من انباء انتصاراتهم فهي تلائم غرضنا من هذا الكتاب ... في سنة ١٢٦٧ من تجسد ربنا يسوع المسيح ، في حكم سيدي رينييرزينو، دوج البندقية السامي المقام ، جهدت جهداً متواصلا ، وكافحت كفاحاً عنيفاً ، حتى وجدت تاريخ البنادقة القديم . من أين جاءوا أولا، وكيف انشأوا المدينة النبيلةالتي تدعى البندقية، والتي هي اليوم اجمل

مدائن العالم واحفلهـا بالبهجة والسرور المدينة المليئة بآيات الجمال وبكل ما هو حسن ومفيد . المدينة النبيلة التي تتدفق السلع خلالها كما يفيض الماء ويتدفق من الينابيع .. ويحيط بها ماء البحر المالح من جميع ارجائها ، ويتغلغل في كل مكان فيها عدا شوارعها وبيوتها . وعندما يغادر السكان بيوتهم يستطيعون ان يعودوا اليها سائرين في الشوارع او راكبين الزوارق ، حسبما يهوون . وتتدفق على المدينة السلع ، ويقبل عليها التجار من جميع الأقطار ، فيشترون من السلع ما يشتهون ويحملونها راجعين الى اوطانهم . امـا الطعام فموفور في المدينة ، مبذول ؛ ففيها الخبز والنبيذ ، وفيها من طيور اليابسة والماء اصناف، وفيها اللحوم الطرية والمملحة ، وفيها اسماك بحرية وأسماك نهرية ،... وبإمكانك ان تجد في هذه المدينة عـدداً كبيراً من النبلاء ، شباباً وشيوخاً ، وتجاراً يشترون ويبيعون ، وصرافين ، ومواطنين يتعاطون شتى الحرف ، وبحارة من مختلف المراتب والاصناف ، وسفناً تنقل الى جميع المواطن ، وبوارج حربية تقهر أعداءهم وتذلهم . وتجد في هذه المدينة ايضاً عدداً من السيدات، والصبايا العذراوات ، والفتيات الأبكار ، يلبسن افخر الثياب ، ويتحلين بأغلى الجواهر والحلي . »

وفي سنتنا المسيحية ١٢٦٨ نصب دوج جديد على المدينة ، اسمه لورينزو تيبولو . فسار الصناع وأرباب الحرف في موكب عظيم ، في ساحة القديس مرقص ، محتفلين باعتلائه دست الحكم . وقد راقب مارتينو دا كانال هذا الاحتفال ، وسجله بالتفصيل في تاريخه . ابتدأ الاحتفال بمرور خمسين سفينة حربية وتجارية ، على مقربـة من افريز الميناء ، وعلى سطوحها بحارتهـا يحيون ويهتفون . ثم جاء ارباب الصنائع سائرين على الأقدام . سار الحدادون في المقدمة ، وقد زينوا

رؤوسهم بالأكاليل ، تتقدمهم الطبول والرايات . ثم سار الفراءون مرتدين ثياباً من الحرير الأرجواني ، وعليهم أوشحة من الفراءالثمين والحاكة مرتدين ثمين الثياب. وبعدهم رؤساء الخياطين العشرة ، وقد ارتدوا ثياباً بيضاء ، مزينة بنجوم قرمزية . ثم سار صانعو الأقمشة يحملون بأيديهم اغصان الزيتون ، وقد وضعوا على رؤوسهم تيجاناً من اغصان الزيتون . ومن بعدهم صانعو الأنسجة القطنية ، مرتدين معاطف من نسيجهم مزينةبالفرو . ثم سار صانعو الالحفة والمضربات يمشون اثنين اثنين ، وعلى رؤوسهم أكاليل حباتهـا من الذهب ، ويرتدون ثياباً بيضاء مزينة بالسوسن ، وأمامهم الاطفال ينشدون الاناشيد ، ثم جاء صانعو الألبسة المذهبة وكانوا جميعاً يرتدون ثياباً مذهبة ، وسار وراءهم خدامهم يرتدون ثياباً مذهبة ارجوانية ، ثم جاء البزازون وعليهم ثياب قرمزية من الحرير . ثم صائدو السمك ، مرتدين ثياباً فاخرة ومعاطف من الفرو ، واضعين على رؤوسهم الاكاليل . ثم الحلاقون ومعهم فارسان مرتديان ثياب فرسان القرون الوسطى ، وأربع أوانس أسيرات عليهن ثياب غريبة الاشكال . ثم جاء صانعو الزجاج مرتدين ثياباً من الحرير القرمزي ، المغري ، وقد وضعوا على رؤوسهم قلانس مذهبة الحواشي ، وأكاليل من اللؤلؤ الثمين ، وحملوا كؤوساً وقوارير من زجاج البندقية المشهور . ثم جاء صانعو الامشاط وصانعو الفوانيس يحملون فانوساً مملوءاً بالطيور ليطلقوهـا في حضرة الدوج . ثم جاء الصاغة وقد زينوا رؤوسهم بأكاليل الزهر، وصدورهم بقلائد حباتها من الذهب والفضة والياقوت الازرق والزمرد والماس واليـاقوت الاصفر والياقوت الزعفراني والياقوت الحجري والياقوت الرماني والعقيق الاحمر واليشب . كان

السادة والخدم جميعاً يرتدون افخم الثياب واغلاها ، وكان كل واحد منهم ، تقريباً ، قد طرّز حاشية قلنسوته بالذهب ، وزين رأسه بأكاليل مذهب الخرزات والعقود . وكان مع كل طائفة من هؤلاء الصناع فرقة موسيقية تحمل مختلف الادوات الموسيقية ، كما كانت تتقدم كل فرقة كؤوس الفضة ، وأباريق الشراب . وكان الجميع يسيرون بانتظام، وينشدون القصص الشعرية، وأغاني المديح والترحاب وكانت كل طائفة تحيي الدوج والدوجة ، هاتفة : « فليعش سيدنا الدوج النبيل لورينزو تيبولو ». سارت نقابات الصناع جميعاً، الواحدة بعد الاخرى ، يرفل ابناؤها بأفخر ما عندهم من ثياب ، متحلين بأثمن ما يملكون من حلي ، فكانت مواكبهم بهجة السمع والنظر . واستمرت الافراح أسبوعاً كاملا . ولم تبق نقابة من نقابات الصناع والتجار الا وسارت في موكب فخم ، مهيب . وقد أجاد كانال في هذه الناحية لانه يحب الاحتفالات الرسمية حباً عظيماً . ولقد خص كل نقابة بفقرة من كتابه ، وصف فيها تقدمها ، وتحيتها للدوج ، ورجوعها . تترك هذه العبارات جميعاً في النفس تأثيراً متراكماً، ساحراً يشبه تأثير القصص الغنائية النثرية ذوات اللازمة المعادة في نهاية كل مقطع .

هكذا عاشوا في البندقية ذات يوم
حيث كان التجار ملوكاً
وحيث تقوم كنيسة القديس بطرس
وحيث اعتاد الدوجات ان يزوجوا البحر من المدينة

ان من يستمع الى التحيات الرائعة (١) التي كان يقدمها كهنة كنيسة

١) اوردت المؤلفة هذه التحيات بنصها اللاتيني ولم اترجمها (المترجم) .

القديس مرقص للدوج لا يشك ابداً في ان البندقية ، التي تحدت روما وقهرت القسطنطينية ، كانت أجمل مدائن العالم ، واروعها ، واغناها ، واقواها .

ولكن أحقاً كانت البندقية كذلك ؟ اصغ لما يأتي ثم احكم : الى الجنوب قليلا من نهر اليانكتسي ، وعلى مقربة من البحر ، كانت تقوم مدينة كينساي ، او هنغشو ، عاصمة اباطرة الصين من سلالة سونغ ، الذين كانوا يحكمون القسم الجنوبي من الصين ، ذلك القسم الذي لم يكن آنذاك – سنة ١٢٦٨ – قد خضع بعد لحكم التتر . كانت هذه المدينة تبعد عن البندقية الاف الاميال ، وتفصلها عنها اراضي آسيا الشاسعة ، وبحارها الواسعة . وكانت كينساي ، تقوم بين المستنقعات والبحيرات ، ويخترقها عدد لا يحصى من الجداول والقنوات . كانت مدينة واسعة محيطها مائة ميل ، عدا الضواحي والارباض المنتشرة في اطرافها – وكان كل شبر فيها مزدحماً بالسكان . وكان لها سور فيه اثنا عشر باباً عظيماً . وكان كل حي من الاحياء الاثني عشر الواقعة داخل هذا السور اعظم مساحة من مدينة البندقية بكاملها . كان عرض الشارع الرئيسي في مدينة كينساي مائتي قدم . وكان يمتد من اقصى المدينة الى اقصاها ، تقطعه ساحة واسعة على مسافة كل اربعة اميال . وكان هذا الشارع محاطاً من جانبيه بالبيوت والحدائق والقصور ودكاكين الصناع الذين كانوا منظمين في نقابات الصناع الاثنتي عشرة العظيمة . وعلى موازاة هذا الشارع الرئيسي كانت تجري القناة الرئيسة ، وتقوم على مقربة منها مخازن واسعة ، مبنية بالحجارة ، يمتلكها تجار يتاجرون مع الهند . وكان يقطع قنوات المدينة اثنا عشر الف جسر حجري . وكانت هذه الجسور عالية ،

تمر من تحتها المراكب منتصبة الصواري، في حين تمر العربات والخيول من فوقها . وفي اسواقها كان الناس يتساومون على لحوم الحيوانات المصادة ، واسماك البحر ، والخوخ ، والخمر المستقطر من الرز والتوابل . وكانت تقوم ، في اسفل الدور المحيطة بالسوق ، دكاكين تباع فيها التوابل، والطيوب، والادوية، والانسجة الحريرة، واللآلىء ، وجميع اصناف السلع المصنوعة . وكان الاشراف والتجار يسيرون هنا وهنالك في شوارع كنساي ، رافلين بالحرير الثمين . كما كانت اجمل نساء العالم طراً يتمايلن بدلال وفتور في محفاتهن الموشاة ، وقد زيّنت شعورهن السوداء بدبابيس من اليشم ، وناست على خدودهن الاسيلة اقراط اللؤلؤ الجميلة .

وتنبسط على احد جوانب المدينة بحيرة جميلة ، كانت مشهورة في التاريخ الصيني، وما زالت حتى اليوم تعتبر من اجمل مناظر الدنيا . كان سطحها مرصعاً بعدد من الجزر الخشبية تقوم عليها سرادقات جميلة تحمل هذه الاسماء الساحرة : « بحيرة الامل » ، « غرفات القصب » ، « بيت الجان الثمانية » ، « البهجة الصافية » . الى هذه البحيرة كان يفد رجال كنساي ، كما كان يفعل البنادقة ، طلباً للمتعة والسرور ، متنزهين في سفن مهيبة الاشكال ، فخمة الاثاث ، مزخرفة حجراتها بالزهور والمناظر الجبلية الجميلة . واذا أطل المتنزهون من نوافذ السفينة رأوا المدينة تمتد امامهم بقصورها وحدائقها ومعابدها وأديارها ، فاذا نظروا الى الجانب الآخر رأوا صفحة الماء تنبسط ، على مدى البصر، صافية رائقة زرقاء ، تغص بزوارق النزهة الملونة بأجمل الالوان ، وتتجاوب عليها أصوات المتنزهين الطروبين العالية الواضحة ، ونغمات آلاتهم الموسيقية ذوات الصدى الجميل .

ولا يسعفنا ضيق المجال على ان نسهب في وصف قصر الملك وما فيه من حدائق وبساتين وحجرات فخمة ، وما كان يكتنفه من غابات تخرج اليها السيدات يصطدن الحيوانات بالكلاب ، حتى إذا ما أملهن الصيد وثقل عليهن الفراغ ، خلعن ثيابهن ، وانزلقن في المـاء يسبحن ، ويلهين ، كأنهن سرب من الأسماك الفضية . على انه لا بد لنا من ان نقول كلمة عن السفن التي كانت تأتي الى الميناء على مسافة اربعة وعشرين ميلاً ، ثم تتابع سيرها في النهر حتى تصل المدينة ، وعن ذلك الحشد العظيم من السفن التي كانت تأتي الى زيتون (لعلها مدينة أموي الحاضرة) ميناء المقاطعة . يرد هذا الميناء كل عام مقادير عظيمة من التوابل تفوق مقادير التوابل التي ترد العالم المسيحي بأسره ، عن طريق موانىء شرق البحر المتوسط ، مائة مرة أو تزيد . الى هنا كان يرد من الهند الصينية وجزر الهند الشرقية التوابل والطيوب والند والصندل وجوز الطيب ، والناردين ، والعاج وغيرها من العروض الثمينة التي لا تدخل تحت حصر . تحمل هذه الاشياء سفن ضخمة ، مع ما تحمل من مسك التبت ورزم الحرير الواردة من جميع مدن مانسي (١) ، وتبحر بها في ارخبيل الهند الشرقية ، والنسيم الرضي ، المضمخ بالطيوب ، يملأ اشرعتها ويدفعها الى سيلان دفعاً رفيقاً . ومن هنالك كان تجار الملابار ، وتجار المدن التجارية العظيمة الواقعة في القسم الجنوبي من الهند ، يستقبلون هذه السفن بصحبة بضائعهم حتى

(١) كانت مانسي Mansi أو مانجي Manji تطلق على القسم الجنوبي من الصين . اما كاثي Kathay فكانت تطلق على القسم الشمالي من البلاد . وكانت الحدود الفاصلة بينهما تمتد على طول نهر هوانهو من الجهـة الشرقية ، وعلى التخوم الجنوبية لمقاطعة شنسي Shen-si من الجهة الغربية .

يبيعوها للتجار العرب ، الذين كانوا يبيعونها بدورهم للتجار البنادقة في واحد من هذه الموانيء المنتشرة في شرق البحر الابيض المتوسط . يقول الاوربيون الذين زاروا زيتون وغيرها من الموانيء الصينية انه ليس في استطاعة اي انسان ، حتى وإن كان من البندقية ، ان يتخيل ذلك العدد الضخم من السفن التجارية التي كانت تجوب تلك البحار الشرقية ، وتحتشد في تلك الموانيء الصينية . ويتفق أولئك الاوربيون على القول بان كنساي كانت ، دون اي ريب ، أجمل مدن العالم ، واشرفها ، وأعظمها غنى . وكانت البندقية تبدو لسكان كنساي عبارة عن ضاحية صغيرة ، وساحل المتوسط الشرقي كأنه ساحتها الخلفية . وكان الشرق بأجمعه مجالا تجارياً لرجال كنساي ، الذين شاخت ثروتهم واصبحت حضارتهم قديمة ، عندما كانت البندقية ما تزال عبارة عن حفنة من أكواخ الطين ، يسكنها صيادو السمك .

لم تكن كنساي المدينة الوحيدة التي لا تضاهيها مدينة أخرى بجمالها وثروتها . فعلى مسيرة ثلاثة ايام منها تقع مدينة سوغوي (التي تسمى اليوم سوتشاو) على القناة الرئيسية ايضاً . كان محيط هذه المدينة يبلغ عشرين ميلا . وكانت شوارعها تغص بسكانها العديدين . كما كانت تفخر باطبائها ، وفلاسفتها ، وسحرتها . وكان فيها كميات عظيمة من الزنجبيل ، حتى لقد كان بإمكان المرء ان يشتري اربعين رطلا منه بما يعدل قرشاً فضياً واحداً من قروش البندقية . وكانت المنسوجات الحريرية تصنع فيها بكثرة حتى لقد كان جميع سكانها يرفلون في ثياب الحرير، وزيادة على ذلك كانت السفن تغادرها دوماً وهي موسوقة برزم الحرير . وكانت سوغوي هذه تحكم ست عشرة مدينة غنية ، قد ازدهرت فيهاالتجارة والصناعات والفنون. ومن لم يرَ

هنغتشو لا يعتقد بوجود مدينة في العالم تمكن مقارنتها بسوغوي حتى ولو كانت البندقية او القسطنطينية أو غيرهما من المدن العظيمة . وفي الحق ان الصينيين ، لما رأوا جمال هاتين المدينتين ولمسوا ما تتمتعان به من ثروة ضخمة ، اعتقدوا ان قصور الجنة لا يمكن ان تقارن بهما . وكانوا يتمثلون ، فخورين ، بهذا المثل السائر : « لا شك في وجود الجنة في السماوات العلى . ولكننا نملك ، هنا على الأرض ، هنغتشو وسوغوى »

كانت كنساي ، في عام ١٢٦٨ ، بعيدة كل البعد عن انتباه البندقية ، بعيدة عن وجدانها ، فقد كانت تقع بعيداً بعيداً وراء مشرق الشمس . ومع ذلك فقد كان تلك السنة، في البندقية المنتصبة بين البحيرات ، فتى صغير يراقب مواكب نقابات الصناع التي وصفها كانال في تاريخه . لقد قدر لهذا الفتى ان يربط هاتين المدينتين في افكار الناس ربطاً محكماً الى ابد الدهر . كان صبيا ضامر الجسم ، له من العمر اربع عشرة سنة ؛ اسمه ماركو بولو . كان على الدوام يذرع رصيف الميناء حافي القدمين ، ملحاً على البحارة الغرباء في ان يقصوا عليه قصص البلاد البعيدة ، والاقطار النائية . لقد سمع كل ما حكوه له راغباً فيه ، معنياً به،واختزنه فيعقله النشيط، فقد كانت غريزة حب الاستطلاع عنده نهمة لا تشبع . وكانت القصص التي يصغي اليها برغبة وارتياح ، ويشغف بها شغفاً عظيما ، هي أبدا القصص التي تحدثه عن التتر وتحكي له عن اخبارهم .

كان التتر في ذلك الحين قد بلغوا قمة سطوتهم في الشرق والغرب . فقد حكموا من بكين جميع الصين الشمالية ، وكوريا ، ومنشوريا ، ومنغوليا ، والتبت . وأخذوا الجزية من الهند الصينية وجاوة ،

وانتشروا في آسيا الوسطى فسيطروا على تركستان ، وافغانستان ؛ وسيطرت القبيلة الذهبية على بلاد القوقاس ، وعلى جزء عظيم من روسيا ، وجزء من سيبيريا ، وسيطر التتر ايضاً على بلاد ايران ، وجورجيا ، وارمينيا ، وجزء من آسيا الصغرى . وعندما توفي مانغوخان العظيم ، عام ١٢٥٩ ، كانت امبراطوريته تنبسط على قارتي أوروبا وآسيا ، وتمتد من النهر الاصفر الى نهر الدانوب . لم يوجد مثل هذه الامبراطورية في التاريخ القديم ، ولم يوجد ما يماثلها في في التاريخ الحديث حتى قيام الامبراطورية الروسية في العصور الحديثة. وفي سنة ١٢٦٨ بدأت هذه الامبراطورية العظيمة تنقسم الى ممالك اربعة هي : مملكة الصين ، ومملكة آسيا الوسطى ، ومملكة روسيا ، ومملكة فارس . ولكن على الرغم من ذلك ظل التتر شعباً واحداً . وكان موقف الغرب من التتر يومئذ موقفاً ممتعاً يستحق الاهتمام . فقد خافهم الاوروبيون، بادىء ذي بدء ، واعتبروهم قصاصاً جديداً ابتلاهم به الله ، كما ابتلاهم بأتيلا وقبائل الهون الجرمانية من قبل . غمر التتر بولندا بجموعهم ، ودمروا المجر ونهبوا خيراتها ، وكادوا يغمرون اوروبا ويغرقونها باجمعها ، كأنهم السيل العظيم . ثم أخذ المد ينحسر ويتراجع ، ونسي الاوروبيون ، رويداً رويداً ، ما اصابهم من فزع وذهول ، وأخذت الآمال تساورهم في امكانية التحالف مع هؤلاء التتر الاشداء ضد اعدائهم المؤمنين ، ضد المسلمين . كان مسيحيو أوروبا يعلمون جيداً بان التتر قد قضوا على سلطان المسلمين في آسيا كما كانوا يعرفون جيداً بان التتر ليس عندهم دين واضح الحدود ، بيّن المعالم ، وانهم يحبون الاطلاع على جميع العقائد التي تعرض لهم . واقتنع الاوروبيون ، على توالي الايام ، بامكانية ادخال التتر في الدين

المسيحي ، وامكانية اشراكهم معهم في الحروب ، تحت راية الصليب ، ضد الهلال المقيت . وابتكروا اسطورة القس يوحنا (١) العجيبة ، يوحنا الذي كان ملكاً قسيساً وحكم في مكان ما في قلب آسيا ، والحق ان جماعات صغيرة من النساطرة كانت حتى ذلك الحين ما تزال باقية في شرقي آسيا . وبدأت السفارات تترى بين خانــات التتر وملوك أوروبـا . وابتدأت ايضاً سلسلة طويلة من ارساليات الرهبان الفرنسيسكان التبشيرية الى بلاد التتر . كان رجال تلك الارساليات علماء في الجغرافيا والسلالات البشرية مثلما كانوا مبشرين بالدين المسيحي وقد خلفوا لنا ابحاثاً لا تقدر بثمن عن البقاع التي زاروها . كان الناس، عام ١٢٦٨ ، يعرفون عن آسيا الوسطى الشيء الكثير. فقد ارسل البابا ، سنة ١٢٤٥ ، الراهب الايطالي يوحنا اوف بيــانو كاربيني الى هناك . وارسل ملك فرنسا القديس لويس راهباً فرنسياً من بلاد الاراضي الواطئة اسمه وليم أوف روبروك عام ١٢٥١ .. ووصل كلا الراهبين الى قراقورم ، المعسكر التتري على حدود الصين الشمالية ، وان لم يدخلا الصين نفسها . وعاد الراهبان سالمين ، يحملان عدداً لا يحصى من القصص يدور بعضها حول حياد أولئك الغزاة البدو ، الذين يحملون خيامهم في عربات ، ويشربون لبن الافراس المختمر ، ويدور بعضها حول عظمة الخان ، وحسن استقباله للزوار الغربيين ، واهتمامه بمواعظهم الدينية . وقد اصبحت هذه القصص ملكاً مشاعاً بين الناس يومئذ ، ولا شك في ان ماركو بولو قد اصغى اليها بانتباه.

كان ماركو بولو دائم التفكير في التتر . دائم السؤال عنهم . والحق ان اهتمامه بهم كان له ما يبرره من اسباب . كانت تلك السنة ، كما قلنا

(١) Prester John

سابقاً ، هي السنة الميلادية ١٢٦٨ . وقبل ذلك بثمانية اعوام (أو خمسة وعشرين سنة كما يقول البعض) سافر ابوه نيكولو بولو ، وعمه مافيو الى بلاد التتر ولم يعودا منها . كانا من تجار الجواهر الموسرين . وقد سافرا الى القسطنطينية بسفينتهما الخاصة، وهنالك قر عزمهما على القيام بمغامرة تجارية في بلاد القبيلة الذهبية، الواقعة في شمال البحر الاسود . وتم مـا عزمـا عليه ، فأبحرا الى شبـه جزيرة القرم حيث كانـا يملكان متجراً في سولدايا ؛ وبعد ان حمـلا كمية من الجواهر الثمينة (اذ كانا تاجري جواهر) سافرا على ظهور الخيل قاصدين خان التتر الغربيين. هذا هو كل ما عرفه البنادقة عنهما ، فقد وصلت اخبار من سولدايا تشير الى مغامراتهما التجارية تلك ، ولكنهما لم يعودا . ولهذا السبب كان ماركو بولو يذرع رصيف الميناء جيئة وذهابـاً ، ممسكاً بتلابيب البحـارة ، سائلا اياهم عن اولئك الفرسان المتوحشين الذين يشربون لبن الافراس ، وعما عندهم من قطعـان الماشية ، والسحرة والعرافين . وعندمـا كان يسأل اسئلته تلك كانت افكاره تنطلق الى ابيه وعمه اللذين لا يدري من امرهما شيئاً ، ولا يعلم اذا كانا لا يزالان على قيد الحياة ، ام ماتا وضاعت آثارهما ، في فيـافي التتر المهلكة . وبينما كان ماركو بولو يردد اسئلته، ويدير الاخيلة في نفسه ، ويضرب رصيف الميـنـاء بكعبيه ، وبينما كان الدوج تيوبولو يراقب مواكب الصناع، وبينما كان الكاتب كانال يقوم بحساب الرسوم الجمركية ، او بتدوين تاريخ البندقيـة القديم ، كان نيكولو بولو واخوه يشقان طريقهما بتراخ واعيـاء خلال مرتفعات آسيا الوسطى ، بصحبة قافلة بغال وحمير . ولقد واصلا سيرهما حتى بلغا مدينة سمرقند الذهبية ذات الاسواق الغاصة بالبائعين والشارين . ثم صارا يقتربان شيئاً فشيئاً من الغرب . وفي السنة التاليـة ، ١٢٦٩ ، وصلا مدينـة عكا . ومن

هنالك استقلا سفينـة حملتهما الى البندقية سالمين . وهكذا عادا الى الوطن اخيراً .

كانت قصة سفرهما قصة عجيبة ، أشد غرابة ، واعظم امتاعاً ، من جميع القصص التي سمعها ذلك الصبي النحيـل الطلعة على رصيف الميناء . فما كادا يصلان غايتهما حتى باعا مـا كانا يحملان من حلي وجواهر ، وامضيا سنة كاملة في معسكر خان القبيلة الذهبية القبجاقية المقيمة على نهرالفولكا العظيم . ثم نشبت حرب بين الحاكم الذي يقيمون في معسكره وبين خان مملكة فارس التتريه ، ممـا قطع عليهما طريق العودة الى وطنهما . على ان حب الاستطلاع ، الذي لمحناه عند ماركو بولو ، كان يجري في دماء آبائه ، فـا كان أي بندقي لينفر من رؤية البلاد الغريبة ، او ليحجم عن السعي لايجاد الفرص الجديدة للاتجـار والربح . وهكذا فقد وطد الاخوان عزمهما على زيارة خـان آسيا الوسطى، جغتاي؛ ومن يدري فلعلهما يستطيعان العودة الى القسطنطينية في مسالك غير مطروقة من قبل . وواصلا سيرهما المجهد في سهول لا يسكنها الا التتر الذين يقيمون في بيوت الشعر . ولا يعيش فيها الا الماشية ، حتى بلغا مدينة بخارى النبيلة . واغلب الظن ان الاخوين قد سلكافي رحلتهما طريق نهر جيحون. واذا عكسنا الوصف الرائع الذي كتبه ماثيو آرنولد في وصف مجرى ذلك النهر في قصيدته « سحراب ورستم » استطعنا ان نحصـل على صورة واضحة لرحلة الاخوين من آل بولو :

وظل النهر المهيب يجري بجلال
خارجاً من ضباب تلك الارض الخفيضة

مغادراً طنينها الداوي
مستقبلا ضوء النجوم الابيض ، المجلّد
وهناك ، في صحراء خراسان الصامتة ، القفراء
أخذ يجري فرحاً ، مبتهجاً
يؤانسه القمر المتوحد ،
وتدفق مستهدفاً نجم القطب
واجتاز « أوركنجي » بعيد ما بين الضفتين
متألقاً ، مترعاً بالماء .
ثم أخذت الرمال تحدق به ، وتسدّ على مسيله المسالك
وتشقق تياراته ، وتقطع مجاريه .
وأخذ جيحون الممزق ، المتضائل
يشق طريقه بجهد ، على مدى أميال عديدة
خلال وديان رملية ، وجزر يغطيها الاسل والحلفاء ،

ـ جيحون الذي نسي سرعته الخاطفة في مهده الجبلي في البامير جيحون التائه ، الخائب ، المتعرج ـ أخذ جيحون يشق طريقه بجهد حتى سمع ، بعد لأي ، تلاطم الامواج الذي كان يتلهف اليه ، وانفتح بيته المترع بالماء رحيباً ، متألقاً ، لامعاً ، وهادئاً ، مطمئناً ، بيته الذي خرجت من قاعه النجمة ، وقد استحمت ، لتتألق على بحر الاورال.

أقام نيكولو بولو وأخوه في بخارى ثلاثة أعوام . وقد حدث في ذات يوم ان مرّ بالمدينة وفد مرسل من خان مملكة فارس الى قبلاي خان العظيم ، الذي يحكم بلاد الصين النائية ، والذي يدين له جميع ملوك التتر بالطاعة . وقد اعجب رئيس الوفد بذكاء الاخوين ،

وجمالها الفتان ، وأقنعها في ان يصحبا الوفد في رحلته الى الخان العظيم الذي لم تقع عيناه على رجل من الغرب بعد . وقد أكد لها ان الخان سيستقبلها استقبالا مشرفاً ، ويكرم مثواهما ، ويعنى بهما . وما كان لها ان يرفضا هذه الفرصة الثمينة وهما البندقيان الاصيلان . فحملا امتعتها ، واستصحبا معها خدمها من البنادقة ، وسارا سنة كاملة ، بصحبة الوفد التتري ، في قلب آسيا ، حتى بلغا حضرة قبلاي خان العظيم . وقد وصف ماركو بولو نفسه ، بعد ذلك بأعوام ، استقبال الخان لها كما حدثاه عنه، قال:

« عندما ادخل المسافران الى حضرة قبلاي خان العظيم ، استقبلها بماعرف عنه من لطف وبشاشة ووداد . ولما كانا أول لاثنيين يدخلان البلاد فقد أقام لها المآدب الفخمة ، واسبغ عليها آيات الحفاوة والتكريم ، وتحدث اليها بلطف وايناس ، واستفسر عن أحوال القسم الغربي من العالم ، وعن امبراطور الرومان ، وعن الملوك والامراء المسيحيين الآخرين ... وقد سألها بصورة خاصة عن البابا ، واحوال الكنيسة وعن عبادات الديانة المسيحية وعقائدها ، مبدياً اهتماماً عظيماً بهذه الامور . ولما كانا مثقفين ثقافـــة جيدة ، وعلى حظ عظيم من الفطنة والحذر ، فقد اجابا عن هذه الاسئلة اجابات ملائمة . ولما كانا يجيدان اللغة التترية اجادة تامة فقد كانا يعبران عن افكارهما بعبارات موفقة دائماً . وقد اعجب بهما الخان ، وقدرهما تقديراً عظيماً ، حتى لقد كان يستدعيها الى حضرته مراراً وتكراراً . »

وقد رأى الخان العظيم ان يرجع هذين الغربيين الالمعيين الى وطنهما يحملان رسالـــة منه الى البابا يطلب منه فيها ارسال مائة من العلماء

يعلمون التتر ويعظونهم ، وارسال كمية من الزيت المقدس يؤخذ من السراج الذي يضيء ضريح المسيح في القدس . وقد جهزهما بقرص شرف ذهبي كان بمثابة جواز سفر لهما وأمر بان يكرم مثواهما ويسهل أمر سفرهما في كل مدينة يحلان فيها داخل حدود مملكته . وهكــذا بدأت عودتهما الى الوطن . على ان اخطار السفر ومشقاته ، كالبرد القارس ، والثلوج ، وفيضان الانهار ؛ جعلت سفرتهما طويلة ، بطيئة مضنية . ولم يصلا عكا في آذار سنة ١٢٦٩ ، إلا بعد أن أمضيــا في الرحلة ثلاث سنوات . وقد علما ان البابا كان قد توفي منذ عام ،وان البابـــا الجديد لم ينتخب بعد . ومعنى هذا كله انهما لا يستطيعان ان ينجزا ما جاءا من اجله قبل مضي وقت طويل؛ ولهذا عزما على زيارة اسرتهما أولاً . وهكذا فقد عــادا الى البندقية حيث وجد نيكولو زوجته ، التي غادرها حاملا ، قد توفيت مخلفة وراءها صبياً صغيراً ، ذاك هو صبينا الصغير ماركو الذي رأينــاه يتردد على أرصفة ميناء البندقية .

هذه هي القصة الرائعة التي رشفها ماركوبولو من شفاه أبيه وعمه اللذين وجدهما بعد ان كان يظن انهما من الهالكين . ولكن المستقبل قد خبأ لماركو عجائب اعظم من جميع ما سمع . فقد مكث نيكولو واخوه عامين كاملين في البندقية ينتظران انتخاب البابا الجديد ليقدما اليه رسائــل الخان ، ولكن الانتخاب لم يتم . وخشي الاخوان ان يظن قبلاي خان بهما الظنون ، ويتهمهما بغشه والتحايل عليه ، فعزما على الرجوع الى الشرق واستصحبا معهما ، هذه المرة ، ماركو وكان قـــد اينع واكتمل نموه ، وبلغ من العمر ست عشرة ، أو سبع عشرة سنة . كان ماركو ذا عينين براقتين تنظران في كل ناحية وتلتقطان كل

صورة ؛ وكان قوي الملاحظة ؛ هادىء التفكير ، شأن الرجال الكبار على انهم مـا كادوا يصـلون أيـاس الواقعـة على خليج الاسكندرونة حتى جاءتهم الانبـاء تعلن انتخاب تيبالدو بياسنزا باسم البابا غريغوري العاشر . ولما كان تيبالدو قد اهتم سابقاً برسالتهم فقد رجعوا بما اتيح لهم من السرعة الى عكا ، وحصلوا منه على رسائل الى الخان (لقد سافروا قبل هـذا الى القدس وحصلوا على كمية من الزيت المقدس) ، كما حصلوا منه ايضاً على راهبين من الرهبـان الدومينيكان ، « كانا اديبين عالمين ، كما كانا متبحرين في اللاهوت » وان لم يعطهم المائة عالم الذين طلبهم الخان . وهكذا ابحروا من عكا في شهر تشرين الثاني من سنة ١٢٧١م. قد يكون الراهبان الدومينيكان لاهوتيين كبيرين ، ولكنهما كانا مغامرين ضعيفي القلوب ، خائري العزائم . فعندما بلغتهما الاشاعات عن نشوب حرب في ارمينيا ، التي كان عليهما ان يمرا فيها ، سلما ما عندهما من الرسائل الى البنادقـة سريعاً ، ووضعا نفسيهما تحت رعاية الداوية (١) ، وانسلا الى الساحل آمنين ، مسرعين ما اتيحت لهما السرعة ، وتركا آل بولو ، غير هيابين من المصاعب ، ولا خائفين من الاخطار التي قد تمرسوا بها واعتادوها منذ زمن طويل » . يتابعون السير وحدهم . يقيناً لقد شمت القديس فرنسيس بالقديس دومينيك في أحد ابهاء الجنة ، فقد كان رهبانه لا يهابون الموت وهم يتنقلون مبتهجين نشيطين في حر الهند اللاهب ، وبرد آسيـا الوسطى القارس . ولا يشق عليك ان تتخيل انتقادات وليم أوف روبروك البدين وتعليقاته على فرار اللاهوتيين الكبيرين .

---

(١) الفرسان الرهبان. (المترجم)

بامكان القارىء ان يطلع على رحلة آل بولو الثانيـة في السفر المدهش الذي كتبه ماركو بولو فيما بعد ، يصف فيه عجائب الدنيا . لقد رحلوا من لاجاز و مجتازين تركمانيا مارين بجبل آرارآت حيث سمع ماركو ان سفينة نوح قد رست عليـه ، وحيث سمع لاول مرة بآبار نفط باكو وببحر قزوين العظيم . وبعد ان اجتازوا الموصل وبغداد ، قصدوا فارس ، حيث تصنع الانسجة الحريرية المشجرة الموشاة وحيث يجلب التجار القافلة بعد القافلة محملة بالتحف والنفائس ، واجتازوها الى ميناء هرمز الواقع على خليج فارس الذي ترسو فيه السفن القادمة من الهند موسوقة بالتوابل والعقاقير والطيوب والجواهر والعـاج والسندس . ولقد ارادوا ان يستقلوا البحر من هذا الميـناء ولكنهم عدلوا عن ذلك ، لعـل ما حدا بهم الى العدول تخوفهم من وضع انفسهم تحت رحمة السفن الواهية ، الخاليـة من المسامير ، التي كان العرب يقتحمون بها اخطار المحيط الهندي . وعلى هذا فقـد توجهوا الى الشمال ، وهيأوا انفسهم للسفر براً ، واجتازوا صحراء كرمان الملحية ، ورحلوا عبر بلخ وخراسان الى بدخشان حيث توجد خيول من نسل بوسيفالوس حصان الاسكندر المقدوني ، وحيث توجد مناجم العقيق الرماني واللازورد . في هذه الارض الجميلة الجبال ، الفسيحة السهول ، حيث تحتشد الجداول بالسمك ، ويطيب الصيد والقنص ، اقـام الاخوان ما يقرب من سنة كاملة ، فقد مرض ماركو الصغير في الفيافي الحارة . ان من يقرأ الصفحة التي يصف فيهـا ماركو بولو كيف استعاد صحته وسط هواء الجبال النقي ، ليشعر بانفاس النسيم الجبلي تهب من بين سطورها . وبعد ان ابلّ من مرضه ، واستعاد صحته ، تابعوا سفرهم فارتقوا أعالي جيحون الى هضبة بامير « سقف الدنيا »

كما تسمى في عصرنا الحاضر ، وهي ارض مثلوجة الجو ، شاهد فيها ماركو الضأن ذوات القرون العظيمة ، ووصفها في كتابه ؛ ولا زال الصيادون وعلماء التاريخ الطبيعي ينسبونها اليه فيقولون : ضأن بولو Ovis Poli . والتبت ارض لم يصفها احد بعد ماركو بولو (ما عدا بيندكت غويس حوالي سنة ١٦٠٤) حتى ذهب اليهـا جون وود الملازم في البحرية الهندية سنة ١٨٣٨ . ومن هضبـة بامير انحدر آل بولو الى كشغر ويرقند وخوتان حيث يوجـد حجر اليشم ، وهي مناطق لم يزرها احد ثانية حتى عام ١٨٦٠ . ومن خوتان اندفعوا الى جوار بحيرة لوب التي لم يصلهـا انسان بعد ذلك حتى تمكن مستكشف روسي من بلوغها عام ١٨٧١. وقد تلبثوا هنا قليلا ليحملوا الجمال والبغال بما يحتاجون من زاد ومتاع ، ثم بدأوا رحلتهم المخيفة التي تستغرق ثلاثين يومـاً عبر صحراء غوبي ، بنفوس مغموسة ، وقلوب خائرة ، يصف ماركو ، وصفا حيـا ، اهوال الصحراء ، والاصوات التي تتجاوب فيها وكأنهـا تنادي المسافرين باسمائهم ، وسُرى قوافل الاشباح التي تضل المسافرين عن طريقهم في الليل ، والارواح التي تملأ الهواء بانغام الموسيقى ، وقرع الطبول ، ورنين النواقيس ، وقعقعة السلاح . هذه الاوهام والاشباح والخيالات التي رآها الناس وسمعوها وخافوها في كل صحراء ، وكل عصر .

ما عسى ان يكون هذا ؟ الف خيال وشبح
اخذت تتجمع وتزدحم في ذاكرتي ،
من الاشكال التي تنادي ، والظلال الجريئة
التي تومىء وتشير ، والالسنة الوهمية الطلقة التي
تلفظ اسماء الرجال على الرمال والشطآن والبيادي المقفرة .

واخيراً وصلوا سالمين الى تنغوت في اقصى الشمال الغربي من الصين. وبعد ان عبروا سهوب منغوليا العظيمة بمحاذاة الحدود ، حياهم رجال الخان الذين ارسلهم لاستقبالهم على مسيرة اربعين يوماً . وهكذا بلغوا حضرة الخان في شهر ايار من سنة ١٢٧٥ ، بعد ان انفقوا في رحلتهم ثلاث سنوات ونصف السنة .

واستقبل الخان العظيم آل بولو استقبالا لطيفاً ، واستمع بانتباه الى التقرير الذي قدماه عن سفارتهم ، وامتدح غيرتهم ، وحمد لهم اخلاصهم . وتقبل الزيت المقدس وهدايا البابا باحترام . ثم لاحظ الخان وجود الصبي ماركو بينهم ، وقد اصبح الآن ، ولا شك ، « شاباً ظريفاً » فسأل من يكون . فاجاب نيكولو : « مولاي هذا خادمكم وولدي » فرد عليه الخان قائلا : « مرحباً به . لقد سرنا وجوده هنا سروراً عظيماً » ؛ واضاف الخان ماركو الى رجال حاشيته . وكان ذلك بداية صلة متينة الاواصر ، طويلة الامد ، فقد وجد قبلاي خان ، ولما يمض غير وقت قصير ، ان ماركو بولو فتى متألق الذكاء ، شديد الفطنة ، فبدأ يستخدمه في سفاراته المتعددة ووفوده المختلفة . وزيادة على ما تقدم فقد وجد ماركو بولو ان الخان شديد الرغبة في معرفة عادات واخلاق القبائل العديدة الخاضعة لحكمه إذ كان قبلاي خان على حظ عظيم من حب الاستطلاع السامي الذي هو بداية الحكمة . وكان يضايقه ان رسله، وهم ناس طيبون مستقيمو السريرة لا يرون الا ما يوصيهم به ، ولا يتلفتون الا الى ما يعينه لهم. بحيث انهم لم يلاحظوا ، مثلا عادة « التفريخ » (١) الفريدة الممتعة ،

(١) Couvade مأخوذة من كلمة Couver الفرنسية ومعناها يفقس او يفرخ . وهي ترمز الى عادة بدائية قديمة كان الرجل بموجبها ، اذا جاءه مولود ، يرقد في فراشه ويعنى بالطفل ، او يقوم بالتطهر والاغتسال والصوم . (المترجم)

التي كانت شائعة في قبيلة « مياوتزو » وهي احدى القبائل الاصليـة التي تسكن التلال الداخلية :

حيث يأوي الصينيون الى الفراش
ويرقدون بدل زوجاتهم .

« عندما رأى ماركوبولو ان الخان الكبير يسره غاية السرور سماع كل جديد عن عادات الناس وطباعهم وعن احوال الاقطار النائية، صار يبذل جهده، كلما سافر في وفد ، للحصول على اصح المعلومات عن هذه المواضيع ، كما كان يقيد الملاحظات عن كل ما يرى ويسمع اشباعاً لفضول سيده . ونقول باختصار : ان ماركو بولو قد قدم للخان خدمات جليلة مدة السبع عشرة سنة التي قضاهـا في خدمته ، بحيث ان الخان استخدمه في جميع بعثاته السرية والخصوصية الى جميع انحاء مملكته والبلاد الخاضعة له . كما انه كان يقوم، احياناً ، برحلات خاصة بعد ان يحصل على موافقة الخان . في هذه الظروف اتيحت الفرصة لماركو بولو ان يجمع معلومات عن أمور كثيرة تتعلق بالقسم الشرقي من الدنيا ، معلومات كانت مجهولة من قبل ، سواء كان ذلك بملاحظته الشخصية ام نقلا عن الرواة ، وقد دون هذه المعلومـات بمثابرة وانتظام ... وبهذه الواسطة اكتسب شرفاً عظيماً ، اثار حفيظة موظفي البلاط الآخرين ، وأذكى غيرتهم وحسدهم . » فلا عجب ان يندهش الخان وندماؤه ، عندما تقدم الفتى باول تقرير له ، وان يضجوا هاتفين : « لان عاش هذا الشاب ليكونن عظيم المقدرة ، سامي المكانة . »

لقد طوّف ماركو بولو ، اثناء قيامـه بهذه المهمات الرسمية

المتعددة ، بمقاطعات شانسي ، وشنسي ، وزيتشوين ، ومرّ باطراف هضبة التبت اثناء مسيره الى يونّان ، ودخل القسم الشمالي من بورما، تلك البقاع التي لم يتح للغرب ان يعرفها قبل عام ١٨٦٠ . ولقد حكم هو نفسه مدينة ينغتشاو مدة ثلاث سنوات ، تلك المدينة العظيمة التي كان سلطانها يمتد على اربع وعشرين مدينة ، والتي كانت تغص بالتجار وصناع مختلف انواع الاسلحة والعتاد الحربي . وزار قرقورم عاصمة التتر القديمة . وأمضى ، بصحبة عمه مافيو ، ثلاث سنوات في مدينة تنغوت . وسافر ، بمناسبة أخرى ، بمهمة الى كوشن صين . ومن هنالك أبحر الى أقطار القسم الجنوبي من الهند . وقد ترك لنا صورة نابضة بالحياة للمدن التجارية العظيمة في ساحل الملابار . ولعل الافكار التي كانت تجول في خاطر يوليسيس قد ترددت في نفس ماركو بولو ، يقول يوليسيس :

لقد اصبحت ذائع الصيت
فأنا ابدأ أهيم في الدنيا بقلب جائع
لقد رأيت كثيراً ، وعرفت كثيراً
مدائن تغص بالناس ، وعادات ،
واجواء ، واقطاراً ، وحكومات .
وقد عرفت نفسي ، أشرف هذه الاشياء طراً .

ووصف العاصمة العظيمة كامبالوك (بكين) الواقعة في الشمال ، ومدينة كينساي الجميلة (هنغتشو) الواقعة في الجنوب . ووصف قصر الخان الصيفي في شاندو ، فذكر غاباته ، وحدائقه وحجراته المشيدة بالرخام ، وفسطاطه الخيزران المشدود كالخيمة بمائتي حبل من

الحرير ، واسطبله المليء بالأفراس البيضاء ، وسحرته الذين يصنعون المعجزات ويأتون بالعجائب . ولقد اشتهر وصف ماركو بولولقصر الخان الصيفي ، بين الانكليز ، اكثر من جميع كتاباته الاخرى . فان قصرشاندو هو نفس قصر كزانادو الذي رآه كوليريدج في الحلم (بعد ان كان قد قرأ كتاب بولو) فوصفه بهذه الابيات الرائعة :

أمر قبلاي خان ان يشاد في كزانادو
غرفة فخمة للأفراح والمسرات
يجري من تحتها نهر آلف المقدس
الذي يمر بكهوف لا يحيط باتساعها انسان
في طريقة الى بحر لا تشرق الشمس عليه .
وفي المكان بساتين تتلألأ فيها السواقي المتعرجة
وتزهر فيها الاشجار التي تثمر العطور ،
وفيه غابات قديمة قدم التلال
تنفتح ها هنا وها هنالك عن بقع مشرقة خضراء

ولم يقتصرماركو بولو على وصف القصور فحسب ، بل هو يتحدث أيضاً عن القناة العظيمة ، وتجارة الصين النهرية الداخلية ، وما يدخل موانئها من واردات ، وما يغادرها من صادرات ، وعن العملة الورقية ؛ ونظام البريد الذي يربط اجزاء المملكة ربطاً محكماً ، وعن النزل والفنادق المعدة لايواء المسافرين . ان ماركو بولو يعطينا صورة ، لا تفوقها أية صورة ، عن تلك الامبراطورية الغنية ، الهادئة المسالمة المليئة بالثروة والتجارة والعلماء والاشياء الجميلة ، وعن حاكمها قبلاي خان الذي يعتبر من انبل من جلسوا على عرش منذ ان كانت

الدنيا . واذا كانت الصين « بحراً يملح كل نهر ينصب فيه » ، فقد كان قبلاي خان بعيداً كل البعد عن ان يكون خانا منغوليا ، بربرياً. بل لقد كان ، في الحقيقة، أمبراطورا صينيا ، تحتل سلالته التي يدعوها الصينيون بسلالة يوان ، محلا ممتازاً بين السلالات العظيمة التي حكمت الصين .

مما لا ريب فيه ان ماركو بولو قد سمع ورأى أكثر مما دون في كتابه . وان دوران معظم الكتاب حول أمور لا تمت الى شخص ماركو بولو بصلة هو عيب الكتاب الوحيد ، ففي انفسنا شوق لمعرفة حياتــه الخاصة ، وكيف قضى حياته هذه في الصين . وتشير بعض الادلة الى انه كان اكثر اختلاطاً بالفاتحين المغول منه بالشعب الصيني، وان اللغة الصينية لم تكن من بين اللغات التي تعلمها . فهو لم يلمح الى عدد من العادات الصينية الصميمة كتصغير اقدام النساء ، وصيد السمك بواسطة غربان البحر (وقد ذكر كلتــا العادتين أودوريك أوف بوردينون بعد ماركو بولو) وهو قد رحل خلال مقــاطعة فوكيان المشهورة بزراعة الشاي ، ولكنه لا يشير الى عادة شرب الشاي كما انه لم يتحدث عن سور الصين . على ان ماركو بولو رغم ذلك، هو مثال الاوروبي الصميم في اهتمامه الشديد بكل شيء جديد وغريب. يتحدث عن تجار مدينة سوتشاو وعلمائهــا المسالمين فيقول : « انهم ناس هيابون ، لا يهتمون بغير صناعتهم وتجارتهم ، وهم يبدون في هذه الامور مهارة فائقة ومقدرة عظيمة . ولو انهم كانوا شجعاناً ، مقاديم ، محبين للقتال ، مثلما هم ماهرون ، اذكياء ، لاستطاعوا ان يستولوا على المقاطعة باسرها ، بل وان يمدوا حكمهم الى ابعد من ذلك ، بالنظر لضخامة عددهم . » واننا لنجد ، بعد خمسمائة عام ،

هذا الحكم على الصينيين نفسه مصوغاً بقالب آخر : « أفضل خمسين سنة أوروبية على عصر صيني كامل . » والجواب هو هذا السؤال : هل تحب ان تكون ذلك الصيني الهياب الذي صور المنظر الطبيعي الذي تظهر اللوحة الثالثة في هـذا الكتاب جزءاً منه ؟ أم ذلك الاوروبي الشجاع ، المقدام ، المحب للحروب ، الذي عاش في نفس الفترة ، والذي تعتبر اللوحة المصورة لابحار ماركو بولو ، اللوحة الثانية في كتابنا هذا ، اسمى انتاجه الفني ، ما هي الحضارة ؟ ما هو التقدم ؟ على ان ماركو بولو قد اظهر ، في كل صفحة من صفحات كتابه ، حسن تقديره واحترامه للمثل الاخلاقية والفنية والدينية التي يتمسك بها الاقوام الآخرون ، كما كان بعيداً كل البعد عن التعصب للمقاييس الدينية والاخلاقية السائدة في بلاده . يتحدث عن بوذا ساكيا ـ موني فيقول : «لو كان بوذا مسيحياً اذن لاصبح من اعظم قديسي ربنا يسوع المسيح. » وكان ماركو قادراً على تمجيد قبلاي ، بما كان يستحق ذلك الخان العظيم من تمجيد .

ومهما يكن من شيء فان ماركو بولو ، وان كان قد ابدى من المعرفة بالشعب الصيني اقل مما كان يتوقع منه قياساً على الملاحظات المفصلة الامينة التي سجلها عن مواضيع أخرى ، فقد كان يعرف ، ولا شك ، الكثير عن هذا الشعب المهذب ، المثقف الفنان ، في مدينة كنساي ، اوكامبالوك، أو في المدينة التي حكمها ثلاث سنين . واغلب الظن ان ماركو بولو قد عرف ، فيمن عرف من الصينيين ، ذلك الفنان العظيم ، الذي رسم اللوحة التي اشرنا اليها آنفاً ، شاو مينغ ـ فو الذي يسميه الصينيون : « سونغ هسوي توجين » أو « رسول الصنوبر والثلوج » . كان هذا الفنان من احفاد مؤسس سلالة سونغ

الملكية ، وموظفاً ورائياً . واعتزل الحيـاة العامة هو وصديقه شين هسوان « رجل البحيرة الجموح والتيار المزمجر » عندما سقطت تلك الاسرة على يد التتر . على ان قبلاي خان استدعى شاو مينغ فو الى بلاطه سنة ١٢٨٦ ، وعينه سكرتيراً لمجلسه الحربي . فتقبـل منغ هذه الوظيفة التي اثارت سخط اصدقائه عليه . وكان اثناء قيامه بمهام وظيفته تلك ينفق اوقاته في رسم لوحاته الرائعـة . وقد اصبح من اصفياء الخان المقربين ، وكان كثير التردد على البـلاط . ولا بد ان يكون ماركو بولو قد عرفه معرفة جيدة ، وربمـا شاهده وهو يرسم تلك المناظر الطبيعية الرائعة ، وصُوَرَ الخيول والناس ، التي كان بهـا مشهوراً . وكان ماركو بولو يحب الخيول حباً عظيماً ، كما كان يحب كل انواع اللهو والتسلية والصيد . وقد ترك لنا صورة قلمية لافراس شانسي البيضاء لا تقل روعـة عن لوحة شاو مينغ ـ فو « ثمانية احصنة في متنزه قبلاي خان » ولعله قد عرف ايضاً زوجـة شاو مينغ ـ فو السيدة كوان ، التي صوّرت القصب الرشيق والفاونيا(١) تصويراً رائعاً ، والتي كان الفنانون الصينيون يحبونها حباً عظيماً . وقد روى عنها انهـا : « كانت تراقب ظلال الغصون المتحركة التي كان القمر يلقيها على النوافذ الورقية ، وكانت تنقل هذه الرسوم الزائلة على الورق ببضع لمسات من ريشتها الدقيقة ، الرشيقة . ولقد أصبحت كل لوحة من تصويرها ، مهما كانت صغيرة ، توضع في الالبومات، وتتخذ نماذج يحتذيها الفنانون . » وكان لشاو مينغ ـ فو والسيدة كوان ولد اسمه شاو يونغ ، ترك لنا صورة بريشته لصياد من مدينـة تنغوت . وقد وصف ماركو بولو ايضـاً الفرسان التتر ،

(١) نبات عود الصليب (المعرب)

ومقاطعة تنغوت حيث شاهد غزال المسك والقطاس (١) ووصفهـــا وصفاً جيداً .

يجب علينا الآن ان نعود الى تاريخ آل بولو في الصين . نقرأ في كتاب ماركو ، بين حين وآخر ، انبـــاء عن ابيه وعمه ، اللذين كانا يتنقلان في انحـــاء الامبراطورية وينميان ثروتهما بالتجارة ، ويجمعان الجواهر التي كانا ماهرين بتقدير أثمانها . وقد كانا ، وهما البندقيـــان الماهران اللذان لم يكن ليصعب عليهما امر ، يعينان الخان احياناً على دك المـــدن الثائرة بان ينشئا له ادوات حصار تشبه ادوات الحصار الاوروبية . وما من شك في انهما كانا فخورين بماركو الذي نمـــا من صبي طلعة ، كثير التساؤل ، الى رجل حكيم ، دقيـــق الملاحظة ، عالي المقام . وكذلك عاش آل بولو الثلاثة مدة سبع عشرة سنة في خدمة الخان .

لقد مرت الشهور الطوال مراً سريعاً كأنها الظلال الهاربـــة ، فاخذوا يحنون الى رؤية البندقية وبحيراتها ، والى تلاوة القداس تحت قبة كنيسة القديس مرقص الجليلة مرة قبل ان يموتوا . وقـــد بدأ قبلاي خان نفسه يهرم ، فصار آل بولو يخشون ان يصيبهم مكروه بعد وفاته لان النعم الكثيرة التي اسبغهـــا عليهم كانت توغر عليهم صدور قومـــه ، وتستثير حسدهم وغيرتهم . على ان الخان الشيخ ، الذي كان يهبهم كل مـــا يسألونه من ذهب وجواهر وثروة ، أصمّ أذنيه عن توسلاتهم ولم يسمح لهم بالعودة الى وطنهم . لقد كان من المحتمل ان يموتوا في الصين ، فلا نسمع نحن الغربيين بماركو بولو او

(١) بقر يعيش في وسط آسيا طويل الشعر (الياك) — المعرب

قبلاي خان ، لولا تلك الصدفة المحض ، لولا ضربـــة القدر تلك ، التي اتـــاحت لهم فرصة العودة الى الوطن . في سنة ١٢٨٦ توفيت برلغانا ، زوجة ارغن ، خان فارس . وقد أوصت زوجها قبل ان تموت ان يتزوج فتاة من بنات قومها المغول . وقد أرسل خانفارس، تنفيذاً لوصية زوجته ، سفراء الى بلاط بكين يخطبون لـــه زوجة . وعندمـــا انهوا مهمتهم ، وأرادوا العودة الى فارس ، نشبت حرب جعلت رجوعهم براً محفوفاً بالمخاطر والصعاب . وعلى ذلك قرّرأيهم على العودة بحراً . وصادف في تلك الاثناء ان عاد ماركو بولو من رحلة بحرية كان الخان قد ارسله فيها ، فأخذ يتحدث عن السهولـــة التي تمت فيها الرحلة ، وعن يمن الطالع الذي صادفه فيها . ولما سمع سفراء خان الفرس الثلاثة تأكيد ماركو بولو على سهولة السفر بحراً ، رغبوا رغبة قوية في ان يصحبهم أولئك البنادقة الثلاثة الذين كانوا على اطلاع واسع على شؤون السفن ، وخبرة عميقة بأحوال البحار . وهكذا حمل الخان على الاقتناع حملا ، فاذن لهم بالسفر على مضض .

وفي أوائل سنة ١٢٩٢ أبحروا من ميناء زيتون المزدحم بالسفن ، تقلهم اربع عشرة سفينة صينية كبيرة ، (خلّف لنـــا ماركو بولو ، اثناء بحثه عن سفن المحيط الهندي وبحر الصين ، معلومات قيمة عن هذه السفن) ومعهم السفراء الثلاثة والاميرة ، (وهي فتاة جميلة في السابعة عشرة من عمرها ، يقول عنها ماركو بولو « انها سيدة رائعة الجمال ») ، وعدد كبير من الخدم والحشم . وجاء في احدى نسخ كتاب ماركو بولو انهم صحبوا معهم ابنة ملك مانسي أيضاً . وهي اميرة من سلالة سونغ ، كانت تتجوّل في الأيام الخوالي السعيدة في ضفاف البحيرة في هنغتشاو ، وقد ربيت ، ولا شك ، في كامبالوك

تحت رعاية زوجة قبلاي خان المحبوبة الملكة جاموي . كانت الرحلة طويلة ، شاقة . وقد أعيقوا زمناً طويلا في سومطرة وسيلان وجنوب الهند . على ان ماركو بولو كان يمضي أوقاتـــه في دراسة الخرائط البحرية لسواحل الهند التي اطلعه عليها البحارة العرب، وفي الاستزادة من المعلومات عن هذه البقاع التي كان قد زارها منذ زمن قريب . وصلت السفن الصينية الى بلاد فارس بعد ان امضت في البحر اكثر من عامين . وقد توفي اثناء هذه الرحلة اثنان من السفراء وعدد من الخدم . ولما وصلوا بلاد فارس وجدوا العريس المنتظر ، الملك أرغون قد توفي ، وترك عرشه بعهدة الوصي على ابنه الصغير . على ان المشكلة حلت حسب نصيحة الوصي على العرش الذي امر بتزويج الاميرة من اميره ابن الملك الراحل . وقام ماركو وابوه وعمه بحمل العروس الى العريس حالا في مقاطعة تيموتشين ، حيث لاحظ ماركو ان نساءها « برأيي أجمل نساء العـــالمين » وحيث تنتصب أشجار السيكو (١) المشهورة في وحشة ، وحيث ما زال الرجال يحكون الحكايات عن الاسكندر المقدوني وداريوس . هناك ودعوا الاميرة ، التي ألفتهم خلال الرحلة ألفة عميقة وصارت ، كما يقول ماركو ، تحبهم كما تحب أباها ، وقد بكت بكاء مراً لما فارقوها . واثناء اقامتهم في فارس ، تلك الاقامة التي امتدت تسعةاشهر بعد انأوصلوا الاميرة الى زوجها، وصلهم نبأ وفاة الخان العظيم الذيخدموه مدة طويلة من الزمنبصدق واخلاص . توفي الخان وقد نيّف على الثمانين . وبوفاته هبط ظل كثيف على آسيا الوسطى ، فأعتم سقوف كامبالوك الصفراء المشرقة .

---

١) arbor secco

ومهول سيريكانا الفقراء
حيث يسوق الصينيون ، بالرياح والقلوع ،
عرباتهم القصبية الخفيفة .

ومناثر فارس ، وخيام تتار القبجاق المتوحشين الذين تعـدو بهم الخيول مرحة في سهوب روسيا . فلقـد كان نفوذ قبلاي خان واسعاً جداً . وعلى قلب ماركو بولو هبط ظل صفيق ايضـاً . لكأن بابا وصد من ورائه ، ولن يفتح ابـداً . يقول ماركو بولو : « تلقى المسافرين ، خلال رحلتهم ، نبأ وفاة الخان ، فقضى هذا النبأ على كل امل لهم بالرجوع الى تلك المناطق في المستقبل . » وعلى هـذا فقد رحل هو وابوه وعمه ، عن طريق تبريز وطربزون ، الى القسطنطينية، ومن هناك ابحروا الى البندقية ، مدينة البحيرات ، فوصلوها في نهاية سنة ١٢٩٥ .

وقد تحدرت الينا اسطورة عجيبة عن عودة آل بولو الى البندقية تكاد تكون قصة من قصص الجن لغرابتها . يقول راموسيو ، الذي نشر كتاب ماركو بولو في القرن الخامس عشر : « لقـد حل بهم نفس المصير الذي حل بيوليسيس الذي رجع الى وطنه اتيكا ، بعد ان هام على وجهه عشرين سنة ، فلم يعرفه احد » إذ عندما وصلوا دارهم ، وهم مرتدون الثياب التترية الغليظة ، لم يعرفهم احد ، وظل الباب موصداً في وجوههم حتى استطاعوا بعد جهد جهيد ان يقنعوا ذوي قرباهم ومواطنيهم البنادقة بانهم نفس الاشخاص الثلاثة من آل بولو الذين ظنهم الناس قد ماتوا منذ سنين . وقـد اثبت آل بولو هوياتهم اثباتاً لا يداخله شك ، وذلك بان اقاموا مأدبة فخمة ، دعوا اليها اقرباءهم واصحابهم . وصاروا يرتدون بعد كل لون من الوان

الطعام حلة فاخرة تفوق سابقتها روعة وبهـاء . فلما انتهى المدعوون من طعامهم ، أتى آل بولو بثيابهم التترية الغليظة وشقوا عن بطانتها « فتدفقت منها كميـة عظيمة من الحجارة الكريمة والياقوت الرماني والياقوت الازرق والعقيق الاحمر والماس والزمرد ، كانت قد خيطت تحت البطانة بدقة تامة لا تلفت اليها الانظار ... وقد أثار منظر هذه الكنوز العظيمة الممتازة من الجواهر تعجب القوم واندهاشهم فظلوا صامتين واجمين ، يكادون يغيبون عن وعيهم تعجباً واندهاشاً . وفي الحال آمن القوم باصالة هويـات آل بولو ، الذي شكوا فيهم في بادىء الامر ، واستقبلوهم بما يستحقون من مظاهر الاكرام والاحترام وقدروهم حق قدرهم . » الا ان الطبيعة البشرية لم تتبدل ، منذ القرن الثالث عشر ، الا قليلا . فقضية الكنوز الضخمة من الاحجار الكريمة والجواهر التي جلبها معهم آل بولو انما هي اسطورة صاغها خيـال البنادقة الخصيب . ولكن الذي لا شك فيه رغم ذلك انهم قد جلبوا معهم كمية كبيرة من الجواهر ، إذ كانوا يحترفون الاتجار بالجواهر ، وقد اتيحت لهم فرص واسعة للاتجار بهذه المواد في الصين ، كما ان الخان قد اغدق عليهم كميات من اليواقيت وغيرها من الجواهر الثمينة ذوات القيم العالية أغداقاً . وقد كانت الجواهر ابسط الاشكال التي يستطيعون ان يحولوا اليها ثروتهم وينقلوها الى البندقية بارتياح وأمان. على ان ماركو الطُلَعة قد جلب اشياء اخرى غير الجواهر ، يدغدغ بها فضول البنادقة ، كما يحدثنا هو نفسه بين حين وآخر في كتابه . فقـد جلب معه مثلا نماذج من شعر قطاس (١) ينغوت الحريري ،

(١) yak

الذي اعجب بـــه مواطنوه اعجاباً عظيماً ، وجلب معه رأس غزال المسك واقدامه ، وبذور نبات صبغي ، يحتمل ان يكون النيل ، من سومطرة . وقـــد جرّب ماركو زراعة هذه الحبوب ولكنها لم تنم لبرودة المناخ . وجلب معه هدايا للدوج ، ففي سنة ١٣٥١ جردت الاشياء الموجودة في قصر مارينو فاليرو فوجد بينها خاتم مهدى من قبلاي خـــان ، وياقة (طوق) تترية ، وسيف ذو ثلاث شفرات ، وقطعة من القماش الهندي الموشى ، وكتاب « خطته يد ماركو بولو السالف ذكره » عنوانه De Locis mirabilibus Tartarorum.

أما بقية حياة ماركو بولو فحديثها قصير . تقول الاسطورة ان جميع شبان البندقية اعتادوا الذهاب الى دار آل بولو ليسمعوا قصصه، فمثل قصصه لا يمكن ان يوجد حتى عند البحارة الغرباء على رصيف الميناء ، أولئك البحارة الذين كان ماركو بولو في صباه يسألهم عن التتر . ولما كان دائم الحديث عن عظمة مملكة قبلاي خـــان ، وعن الملايين التي تدخل خزائنه ، وعن ملايين السفن الصينية ، وملايين الفرسان ، وملايين المدن ، فقد لقبه أولئك الشبان على سبيل المزاح بماركو المليوني (أو ماركو الملايين) . وقد تسلل هذا اللقب حتّى الى سجلات الجمهوريـــة الرسمية ، كما اطلق على حوش داره اسم حوش الملايين . ولننتقل الآن من الأسطورة الى التاريخ . كانت المنافسة القديمة بين البندقية وجنوة قـــد ازدادت حدة اثناء غيبة ماركو بولو . على ان النصر لم يكن حليف البندقية دائماً . فغالباً ما كانت سفنها تبحر :

في عرض البحار العميقة ،
نحو فاماغوستا والشمس الخفية

التي تطوق قبرص السوداء ببحيرة من نار ،
باحثة عن العبيد السمر او البرتقال السوري .
وما زالت الجحيم تحطم القراصين البنادقة ،
حتى القت بهم في عنبر السفينة :
دماء ، وماء ، واثماراً ، وجثثاً هوامد .

وبعـــد ثلاث سنوات من عودة آل بولو ، اي في سنة ١٢٩٨ ، ابحر اسطول بقيادة لمبسا دوريا الى البحر الادرياتي ، ليذل كبرياء البندقية في بحرها ، ويهين كرامتها في عقر دارهـــا . وجمع البنادقة اسطولا عظيما لمقاومـــة الاسطول الجنوي . وقاد ماركو ــ وهو المـــاهر بادارة السفن العارف بشؤون البحار وان كانت مهارته بادارة السفن الصينية اعظم من مهارته بادارة السفن الغربية ــ سفينة حربية ، وتوجه بها للقتال . وكانت نتيجة المعركة ان انتصر اهل جنوة انتصاراً ساحقاً قرب كرزولا ، واحرقوا ثماني وستين سفينة للبندقية ، وحملوا معهم الى جنوة سبعة الاف أسير من ابنائهـــا ، كان من بينهم ماركو الذي ذاق الآن شيئاً من ثمرة المهـــارة والرجولة وروح الاقدام والقتال ، تلك الصفات التي كان ينتقص رجـــال سوتشاو لحرمانهم منها .

وسرعان ما اخذت الشائعات تملأ شوارع جنوة وافناء بيوتها عن وجود كابتن بندقي يمضي اوقاته في السجن برواية اقاصيص غريبـــة مدهشة لا يستطيع المرء ان يملّ سماعها . فاقبل ظرفاء جنوة وحكماؤها وسيداتها الجسورات عليه زرافات ، كما فعل رجال الريالتو من قبل ، ليسمعوا حكاياته عن قبلاي خان ،

سيد أثمار بلاد التتر ،
سيد انهارها الفضية الشحوب ،
سيد تلال بلاد التتر
وغاباتها ، ووهادها ، وأيكها ، ووديانها ،
سيد نجومها الساطعة ونسيمها العاطر
وبحيراتها الراجفة كأنها البحار الخالية من الزبد ،
سيد اشجار الأترج ، بهجة الاطيار ،
في الوديان الارجوانية .

ويجمل رامبوسو الاحاديث التي ظلت في زمانه متداولة عن ماركو بولو فيقول : « عندما وجد السيد ماركو نفسه في هذه الحالـة ، وشهد الرغبة العامة في سماع احاديثه عن الصين والخان العظيم ، تلك الرغبة التي كانت تضطره الى اعادة رواية قصته مرات عديدة في اليوم الواحد حتى يمل ويسأم ، امتثل لنصيحة اصدقائه له بان يدون قصته، وعلى هذا فقد كتب رسالة الى والده في البندقية يطلب منه فيها ان يرسل له المذكرات والملاحظات التي جاء بها من الصين .. »

وفي نفس السجن الذي حبس فيه ماركو بولو اتفق وجود كاتب قصص من بيزا يدعى روستيشيانو ومن المحتمل ان يكون هذا القصاص قد اسر في موقعة ميلاريا التي حدثت سنة ١٢٨٤ ، والتي سيق فيها عدد من ابناء بيزا اسرى الى جنوة ، حتى صار الناس يضربون بهم المثل فيقولون : « من أراد ان يشاهد بيزا فليذهب الى جنوة » . وكان روستيشيانو يجيد الكتابة باللغة الفرنسية ، لغة القصص الممتازة، وقد كتب فيها عدة حكايات على غرار « حكايات المائدة المستديرة»

وقد وجد فيه ماركو بولو كاتباً حاضر البديهة ، ذكي الفؤاد ، يدون القصص كما يلقيها عليه ، في وسط جمهور الاسرى البنادقة والاسياد الجنويين الذين كانوا يتقبلون غرائب قبلاي خان مشغوفين، ذاهلين . وقد دفعت روستيشيانو غريزته الصادقة الى ان يدون في نهاية حكاية ماركو بولو نداء موجهاً الى سادة العالم واشرافه يطلب اليهم فيه ان يهتموا بقراءتها ويصغوا اليها ، وهو نفس النداء الذي كان يجب ان يفتتح به قصصه عن تريستان ، ولانسيلوت ، والملك آرثر قال : «ايها السادة الاباطرة والملوك والمراكيز والكونتات والادواق والفرسان والاحرار ، وانتم يـــا من ترغبون في معرفة اجناس الناس المختلفة ، وبقاع العالم المتنوعة ، خذوا هذا الكتاب واقرأوه ، وستجدون فيه اعظم العجائب والغرائب » ولكنه اضاف : « لقد ميّز ماركو بولو المواطن البندقي الحكيم العالم ، بين الاشياء التي شاهدها بنفسهوالاشياء التي سمع عنها عن طريق الرواية والنقل تمييزاً واضحاً ، لانه اراد ان يكون كتابه هذا سجلا للحقائق ، صادق اللهجة ، ثابت الوقائع . » ان عجائب ماركو بولو الصادقة كانت أكثر غرابة من وقائع فرسان الملك ارثر . وكانت أكثر ملاءمة لقلم روستيشيانو المحترم . فانما تقوم شهرته ، بنظر الخلف ، على انـــه ، اثناء تلخيصه قصة لانسيلوت ، حذف حادثة حب لانسيلوت وجنيفر حذفاً تاماً - هذا اذا صح ان تسميها حادثة . وقـــد سجل ناشر كتبه الفرنسي هذه الملاحظة : « واسفاه ! ان النسخة التي وقعت بيد فرنسيسكا الريميني المسكين من قصة لانسيلوت لم تكن واحدة من النسخ التي نقحها روستيشيانو . »

واطلق سراح ماركو بولو بعد ان قضى في السجن سنة كاملة فعاد الى البندقيـــة (ولا بد ان تكون مغادرته جنوة قد احزنت سكان

قصورها) . وصار اسمه، منذ ذلك الوقت ، يتردد في سجلات البندقية الرسمية بين الحين والحين ، حينما كانت اعماله تضطره الى الالتجاء الى القضاء . فنجد في سنة ١٣٠٥ «الشريف ماركو بولو المليوني» يكفل احد مهربي الخمور . وفي سنة ١٣١١ اقام الدعوى على عميـل عديم الامانة ، باع له مسكاً ولم يوفه ثمنه (لقـد رأى ماركو بولو غزال المسك في كناسه) . وفي سنة ١٣٢٣ كان احد ذوي العلاقة في نزاع حول حائط مشترك . ونعلم ايضاً ، من قراءة وصيتـه ، انه كانت له زوجة تدعى دوناتا وثلاث بنات هن : فانتينا ، وبيليلا ، وموريتا . هل احب من قبل، تحت السماء الغريبة النائية حيث انفق زهرة شبابه، سيدة صينية نحيفة القوام ، رائعة الجمال ؟ ام لعله احب فتاة تترية ؟ وهل افاد من عادة الزواج الغريبة عند سكان التبت ؟ تلك العادة التي اصدر عليها هـذه الملاحظة التي يجيد فيها التهكم الذي ما كان ليبديـه الا نادراً . « الى هـذه البلاد يفد الشبان الذين تتراوح اعمـارهم بين السادسة عشرة والرابعة والعشرين » (١)

اكان لفانتينا وبيليلا وموريتـا اخوة من ابيهم يطلقون صقورهم وراء السماني على ضفاف «البحيرة البيضاء» حيث كان الخان يصطاد ، ويقصون القصص عن ذلـك الوالد نصف الاسطوري الذي ابحر الى غير رجعة عندما كانوا اطفالا صغاراً في عهد قبلاي خان ؟ لا نعرف عن هذه الامور شيئاً . كلا ، ولا نستطيع حتى ان نظن الظنون عمـا اذا كان قد احس بشيء من الاسف لانـه لم ينجب في البندقيـة غير البنات ، ولم يرزق ولداً يغامر في الرحلة الى تلك البلاد النائية التي لا

---

(١) اوردت المؤلفة هذه الجملة بالفرنسية (المترجم)

نشك في انه قد ترك فيها نصف قلبه . من المحتمل انه كان يتحدث عن تلك البلاد الى بطرس خادمه التتري الذي حرره قبيل وفاته : « تحريراً مطلقاً من كل قيد ، كما اضرع الى الله ان يحرر روحي من كل الذنوب والخطايا . » يرى البعض ان ماركو بولو قد جلب بطرس التتري معه من الشرق . وهو رأي حسن ، ممتع . ولكن الارجح انه ابتاعه من ايطاليا ، فقد كانت عادة المتاجرة بالعبيد ، وامتلاكهم ، متأصلة في نفوس البنادقة ، وكان الاسرى التتر يعتبرون احسن اصناف العبيد ، واشدهم قوة . وهكذا انتهت حياة ماركو بولو ، فتوفي سنة ١٣٢٤ مكرماً بين ابناء قومه ، بعد ان كتب وصيته التي ما تزال محفوظة في كنيسة القديس بطرس .

روى راهب دومينيكي يدعى يعقوب الاكوي ، كتب بعد سنوات من وفاة ماركو ، حادثة وقعت لماركو وهو على فراش الموت ، قال : « ان ما كتبه ماركو بولو في كتابه هو أقل مما شاهده عياناً ، وسمعه بالفعل ، وذلك توقيا من ألسنة العيّابين والمتنقصين الذين ، وان كانوا على اتم استعداد لفرض اكاذيبهم على الناس فرضاً ، نراهم لخبث طويتهم يسرعون فينعتون كل ما لم يستطيعوا فهمه او تصديقه بالكذب والبهتان . ولما كان الكتاب يحوي اشياء عظيمة وغريبة لا يستطيع العقل ان يصدقها فقد طلب اليه اصدقاؤه ، وهو على فراش الموت ، ان يصحح الكتاب ، وذلك بان يحذف منه كل ما لا يمت الى الحقيقة بصلة . ولكنه اجابهم ان كل ما سجله بنفسه في كتابه لا يعدل نصف الحقائق الواقعة التي شاهدها بنفسه . » كان بإمكان المرء ان يشاهد بوضوح بريق السخط يتألق في عيني ذلك المشاهد المحتضر الذي كان طوال سنوات شبابه يسجل الملاحظات عن القبائل وعن

العادات الغريبة ليقدمها لقبلاي خان الحكيم الخيّر ، والذي يشكك فيه الآن الاقزام صغار النفوس. والحق ان الاكتشافات الحديثة قد ايدت صحة ملاحظات ماركو بولو . صحيح انه يردد احياناً بعض القصص الطوال التي رويت له عن رجال لهم وجوه كلاب في جزائر اندامان(١) وعن « جزائر الذكور والاناث » التي كان جغرافيو العصور الوسطى يحبونها كثيراً . ولكن هذه الاحاديث لم تكن غير حكايات لفقهـا البحارة . أما حيث يتحدث ماركو بولو عما شاهده بعينه فهو يتحدث بدقة واتقان . وهو لم يزعم قط انه رأى محلاً لم يزره . لقد أيد رحالو عصرنا الحاضر أوريـل شتاين ، وأيلزورث هنتنغتن ، وسفين هيدين ، الذين جابوا آسيا الوسطى ، ماركو بولو تأييداً مظفراً . يقول مؤرخ فرنسي مشهور « لكأن أصول صور شمسية قديمة العهد قد اكتشفت فجأة من جديد . فبالامكان ان تطبق الأوصاف القديمـة للأشياء الثابتة التي لم يغيرها الزمن على الحقائق الحاضرة» واستصحب الرحالتان هنتنغتن واوريل شتاين معهما دليلا الى مناطق آسيا الوسطى المنيعة كتاب السائح الصيني هيوين تسانغ الذي عاش في القرن السابع وكتاب ماركو بولو . وقد وجدا ان اوصاف هذين الكتابين كانت دقيقة كل الدقة .

والحق انه ليكاد يصعب علينا ان نغالي في مدى ما أنجز ماركو بولو من عمل ، وخير ما يقال في ذلك كلمات السير هنري يول التي كثيراً ما يستشهد بها ، والذي تعتبر طبعته لكتابه أثراً عظيماً من آثار الدراسة العلمية الانكليزية :

« كان أول رحالة يتتبع طريقاً يمتد على طول قارة آسيا ، ويصف

(١) Andaman

الممالك العديدة التي شاهدها بنفسه ، ويسميها بأسمائها . لقد وصف صحراء فارس ، وهضبات بادخشان المزهرة ومضايقها القفراء ، وانهار خوتان التي تحمل اليشم ، وسهوب منغوليا مهد تلك القوة التي كادت تبتلع العالم المسيحي منذ زمن قريب ، والبلاط الجديد الباهر الذي شيد في كامبالوك . وكان اول رحالة اظهر الصين بكل ثروتها واتساعها ، بانهارها العظيمة ، ومدنها الفخمة ، ومصانعها الغنية ، وسفنها التي تفوق الحصر والتي كانت تملأ أنهارها وبحارها . كما حدثنا عن الشعوب الساكنة على حدودها ، وعن غرابة عاداتها واعتقاداتها ، عن التبت ونساكها البخلاء ، عن بورما ومعابدها الذهبية ذوات التيجان التي ترن كالاجراس ، وعن لاوس وسيام وكوشن صين واليابان وتيول الشرقية بلآلئها الحمراء وقصورها المذهبة السقوف . وهو أول من تحدث عن الارخبيل الهندي ، ذلك المتحف المليء بالعجائب والاشياء الجميلة ، الـذي لم تنبش كنوزه نبشاً كاملا ، والذي كان مصدر تلك العطور الزكية الرائحة ، الغالية الأثمان التي كان اصلها محفوفاً بالظلام . وعن جاوة لؤلؤة الجزائر ، وسومطرة وملوكها العديدين ، ومنتوجاتها الغريبة النفيسة ، وشعوبها أكلة لحوم البشر . وعن سكان نيكوبار وأندمان العراة ، المتوحشين . وسيلان جزيرة الجواهر التي فيها الجبل المقدس وضريح آدم . ولقد تحدث عن الهند العظيمة ، لا عن ارض الاحلام التي استفاضت بذكرها خرافات عصر الأسكندر المقدوني ، بل عن قطر شاهده بنفسه ، وجاب بعض انحائه . لقد تحدث عن براهمتها الاتقياء ، وزهادهـا القذرين ، وجواهرها والحكايات الغريبة التي تروى عن كيفية الحصول عليها ، وقيعان بحارها المغطاة باللآلىء ، وشمسها المحرقة . وهو اول من اعطى

في العصور الحديثة ، معلومات واضحة عن امبراطورية الحبشة المسيحية المنعزلة . وأول من تحدث – وان كان حديثه يشوبه الابهام – عن زنجبار وزنوجها وعاجها . وعن جزيرة مدغشقر الواسعة ، النائية ، التي تتاخم بحر الظلمات الجنوبي ، وعما فيها من رخ مرعب وهولات مخيفة . كما تحدث عن الزلاجات التي تجرها الكلاب ، وعن الدببة البيضاء ، وعن التنغوز الذين يمتطون ظهور غزال الرنة ، في اطراف سيبيريا النائية واصقاع المحيط المتجمد الشمالي الباردة . »

ان المعرفة التي جلبها ماركو بولو الى أوروبا ، والاتصال بين الشرق والغرب الذي اظهرت تجربته انه أمر مرغوب فيه كل الرغبة، قد استمر بعده على النمو . فقد رحل التجار والمبشرون ، براً وبحراً متجهين شرقاً الى الصين . سافر الى الصين أحد أولئك الرهبـــان الدومينيكيين الاشداء ، يوحنا أوف مونت كورفينو ، وهو في الخمسين من عمره ، واصبح رئيس اساقفة بكين . وشيدت كنائس، ومساكن للرهبان ، في بعض المدن الصينية . وأبحر الى الصين ، في سنة ١٣١٦ ، راهب آخر هو ادوريك البوردينوني ، وكان قوي الملاحظة ، حديد النظر . وطاف حول الهند ومر من خلال « جزائر البهار » سالكاً الطريق التي سلكهـــا آل بولو عندما اوصلوا الاميرة التترية الى بلاد فارس ، حتى بلغ كانتون . «وهي مدينة تبلغ مساحتها ثلاثة اضعاف مساحة البندقية ، ولا يوجد في جميع بلاد ايطاليا من الصنائع والحرف الموجودة في هذه المدينة وحدها.» وقد ترك معلومات مدهشة عن رحلاته في الصين ضمنها وصف بكين وهنغتشاو ، وختم حكاياته بهذه الكلمات : « اما عن نفسي ، فأنا ما زلت اعد العدة، واتهيأ للرجوع الى تلك البلاد التي يسعدني ان اموت فيها ، إذا رضي

الله الذي عنه يصدر كل خير . » لا ريب في انه كان يود الرجوع الى البلاد التي ترك فيها قلبه . ولكنه توفي في اودين في ايطاليا . ورحل، بعد ذلك ، راهب آخر هو يوحنا الماريتولي ، الذي اصبح قاصداً رسولياً في بكين من سنة ١٣٤٢ الى سنة ١٣٤٦ .

ولم يكن المبشرون هم الوحيدين الذين رحلوا الى الصين فقد استشهد أودوريك ، وهو يتحدث عن عجائب هنغتشاو ، بتجار بنادقة زاروها حين قال : « انها اعظم مدن الدنيا جميعاً . وقد بلغت من الفخامة درجة تركتني لا اجرؤ على التحدث عنها لو لم أكن قدرأيت في البندقية خلقاً كثيرين كانوا قد زاروها . » ورافق يوحنا أوف مونت كورفينو ، في رحلته الى الصين ، السيد بطرس أوف لوكولونغو الذي كان « تاجراً كبيراً » . ويذكر يوحنا الماريتولي فندقاً ملحقاً بأحد أديار الرهبان الدومينيكان في زيتون اعد للتجار المسيحيين . وكان هناك فرنسيس بالدوشي البغولوتي الرجل الجرىء الذي خدم بيت باردي الفلورنسي التجاري العظيم ، والذي كتب تذكرة للتجار لا تثمن فائدتها بثمن حوالي سنة ١٣٤٠ . يقدم في هذه التذكرة تعليمات مفصلة لتاجركان يود ان يسافر من تانا الواقعة على البحر الاسود الى الصين سالكاً الطريق البرية التي تقطع قارة آسيا طولا ثم يعود ومعه قوافل محملة حريراً قيمته اثنا عشرألف جنيه . ويذكر كاتب التذكرة الملاحظة التالية عرضاً في سياق كلامه: « ان الطريق التي ستسلكها من تانا الى الصين امينة ، سواء مشيت نهاراً أم سريت ليلا . كما أكد لي كل من سلكها من التجار . » حسبك ان تتأمل كل ما تعنيه هذه الجملة ... رحل ماركو بولو في مناطق لم تطأها قدم أوروبي بعده حتى القرن العشرين . نواقيس

الكنيسة المسيحية ترن رنيناً حلواً في أذن الخـان العظيم في بكين . الطريق الطويلة الممتدة على طول قارة آسيا يسلكها التجار آمنين مطمئنين . « والعدد الكبير من البنادقة » يمشون في شوارع هنغنشاو. كان هذا كله في اواخر القرن الثالث عشر ومطلع الرابع عشر، في العصور الوسطى المحتقرة ، ذات العقل الضيق . لقد كشطت هذه الاعمال التي قام بها ماركو بولو وصحبه بعض الطلاء الذهبي الذي أضفاه الزمن على كولومبس وفاسكو داغاما ، وعصر الاستكشاف .

ولكن تغيرا طرأ على كل شيء في منتصف القرن الرابع عشر. وخيم الظلام الدامس من جديد فابتلع بكين وهنغنشاو والموانىء العظيمة والسفن الضخمة العديدة ، والحضارة السامية النبيلة ، ولم تعد طريق التجارة الطويلة آمنة المسالك ، ولم يعد الرهبان المسيحيون يرتلون القداس في زيتون . فلقد سقطت الاسرة التترية الحاكمة في الصين ، ورجع حكام الصين الجدد الى سياسة التعصب القديمة ضد الأجانب، ومد المسلمون فتوحاتهم على آسيا الوسطى بأجمعها ، وأقاموا حاجزاً من التعصب والبغضاء بين الشرق والغرب أقوى وأمنع من السور الصخري العظيم الذي شاده الصينيون لصد غارات التتر . واصبح الناس ينظرون الى عجائب ماركو بولو وكأنها من اساطير الاولين ، وحكاية من حكايات الرحالين .

على ان امر ذلك المغامر العظيم لما ينته بعد . فبعد حوالي قرن ونصف القرن من وفاة ماركو بولو جلس بحار جنوي يقرأ بامعان شديد احد هذه الكتب المطبوعة حديثاً التي بدأ الناس يشترونها ، ويتداولونها فيما بينهم . كان الكتاب الذي يقرأه ذلك البحار هو النسخة اللاتينية لأسفار ماركو بولو . كان يقرأه بدقة وامعان ، بل

كان يقرأه ، في الحقيقة ، بانفعال نفسي شديد . وكان اثنـاء قراءته يدون ملاحظاته على هامش الكتاب .وقد بلغ عدد الصفحات التيعلق على هوامشها ملاحظاته اكثر من سبعين صفحـة . وكان ، بين آونة واخرى ، يزوي ما بين جفنيه ، ويعيد قراءة قصـة موانىء الصين العظيمة ، وحكاية قصور سيبانغو ذوات السقوف المذهبة ، المرة بعد المرة. وكان دائم التفكير في كيفيه الوصول الى تلك المناطقالنائية ؛ في حين كان الظـلام يطبق على آسيا الوسطى ، وتسد الفوضى الطريق الى الخليج الفارسي . وذات يوم رفع رأسه ، وضرب المنضدة بجمع يده وقال : « سابحرنّ غرباً . فلعلي اجد جزيرة انتيلها الضائعـة في المحيط الغربي . بل لعلي ابلغ في جانب ذلك المحيط البعيد سيبانغو ؛ فان الارض كروية ، وفي موضع مـا، في تلك البحار الواسعة بعيداً عن الساحل الاوروبي ، تقوم حتما صين ماركو بولو الغنية . ولسوف اتوسل الى ملكي انكلترا واسبانيا ان يمنحاني سفناً وبحارة . وعنـد ذاك ستتدفق عليهما الطيوب والحرير والثروة تدفقاً. سابحرنّ غرباً .» قالها البحار الجنوي وهو يضرب فخذه بجمع يده . « سابحرنّ غرباً ، غرباً ، غرباً . » وكانت هذه آخر عجائب السيد ماركو بولو . لقد اكتشف الصين في القرن الثالث عشر ، واكتشف اميركـا في القرن الخامس عشر وهو ميت ، رميم العظام.

الفصل الثالث

السيدة ايغلينتاين

راهبة تشوسر على حقيقتها

« وكان بين تلك الرفقة المختلطة راهبة ، رئيسة دير .
تبتسم ، حين تبتسم ، ببساطة وخفر . واذا اقسمت كان قسمها الاعظم : وحق القديس لويس ! وكانت تعرف بالسيدة ايغلينتاين .

وكانت ترتل القداس ترتيلا رائعاً ،
وتنغم الكلمات تنغيماً جميلا ، لائقاً .
وكانت تتكلم الفرنسية بحلاوة واناقة عظيمة ،
باسلوب مدرسة ستراتفورد ــ ات ــ باو ،
فما كانت لتعرف فرنسية الباريسيين .
وزد على ما تقدم ان اسلوبها في تناول اللحم
كان حسن التهذيب ،
فما كانت لتدع كسرة واحدة تسقط من بين شفتيها
وما كانت تغمس اصابعها في المرق عميقاً .

لقد كانت تستطيع ان ترفع اللقمة الى فمها
دون ان تدع قطرة واحدة من المرق تسقط على صدرها .
وكانت لها حماسة خاصة لمجاملة الناس .
وكانت تحرص على مسح شفتها العليا مسحاً نظيفاً
بحيث لا تترك للشحم أثراً يرى على الكأس
بعد ان تفرغ من الشرب .
وإذا أكلت مدت الى اللحم يدها برصانة وهدوء .
وكانت ، يقيناً ، لطيفة المعشر .
مسلية ، مبهجة ، ودودة ،
وكانت تجهد نفسها لتصطنع لطف الندماء الظرفاء ،
ولتتخذ سمتاً يليق بمكانتها ،
ولتبدو وقورة في كل تصرفاتها .
اما عن عطفها الشامل وشعورها الرقيق :
فقد كانت تسفح دموعها الحارة عطفاً وحزناً
لمجرد ان ترى فأرة في المصيدة : مدماة او ميتة .
وكان لها كلاب صغار تطعمها اللحم المشوي ،
والحليب ، والخبز الابيض اللطيف .
وكانت تبكي بكاء مراً اذا مات أحدها ،
أو اذا ضربه أحد الناس بالعصا ضرباً موجعاً .
لقد كانت كلها عواطف ، كلها قلب رقيق رؤوم .
وكانت تضع خمارها على رأسها بشكل جميل لائق .
وكان انفها دقيقاً ، رشيقاً ، وعيناها في زرقة الزجاج
وكان فمها صغيراً ، ناعماً ، أحمر الشفتين .

أما رأسها فكان ، بكل تأكيد ، جميل التكوين .
يفصله عن الحاجبين جبين عرضه شبر .
يقيناً انها لم تكن ناقصة التكوين ابداً .
ومما لاحظته ان ثوبها كان رائع السحر ، فتاناً .
وكانت تضع على ساعدها سبحة من حبّات المرجان الصغيرة ،
طُوّقت طوقين ،
وكان يتدلى من هذه السبحة المفصلة بحبات خضر ،
قرص ذهبي رائع التألق ، شديد اللمعان ،
خط في أعلاه حرف «ا» وخطت دونه هذه الكلمات :
« الحب يقهر كل شيء . » (١)

جيفري تشوسر
مقدمة حكايات كنتربري

يعرف القراء جميعاً وصف تشوسر لرئيسة الدير، مدام ايغلينتاين ، التي حجت الى كنتربري بصحبة جماعة مختلطة من الثرثارين . وقد أثار تصويره لهذه السيدة من التعليقات المختلفة بين النقاد ما لم تثره أية صورة من صورة الاخرى . ذهب احد النقاد الى القول بانها هجوم ماحق على حب الكنيسة لمتع الدنيا ولذاتها . وقال آخر ان تشوسر اراد ان يرسم صورة جذابة ، عطوفة ، لظرف المرأة ورقتها .

---

(١) استعنت على ترجمة هذه الابيات، وعلى ترجمة كل النصوص المقتبسة من تشوسر التي سترد خلال الكتاب ، بترجمة نيفيل كوغهيل لحكايات كنتربري المنشورة في سلسلة « بنغوين » . «المترجم»

وزعم ثالث بانها صورة هزلية ، مسيخة . بينما يرى فيها ناقد آخر صورة مثالية . وقـــد وجد فيها استاذ اميركي دراسة نفسية لعاطفة الامومة المعطلة ، مستنداً على ما يظهر ، الى شغف السيدة بالكلاب وقصها حكاية تلميذ صغير . على ان المؤرخ الحق قـــد يعفى من التطواف في اودية هذه الخيالات . فالمؤرخ لا يرى في تصوير تشوسر لهذه السيدة ، شأن تصويره للناسك والراهب ، الا دليلا ، يضاف الى الادلة العديدة الاخرى ، على دقة ملاحظة الشاعر التي تكاد ان تكون فوتغرافية. وانك لتلمح تياراً من الهجاء يترقرق في منعطفات الصورة، ولكنه هجاء تشوسر الخاص ، هجاؤه الناعم ، اللاهي ، الـــذي لا يستهدف ادانة ولا ذما ، هجاء لا يعتمد على المبـــالغة والاطناب ، اعظم ضروب الهجاء دقة ومهارة . ليس للناقد الادبي من قائد يوجه احكامه في هذه القضية الا قلبه وكلمات تشوسر ، وان كان ينساق احياناً وراء رغبته في ان يبدو اصيلا مهما كان صوت تلك الرغبة خفيضاً. ولكن المؤرخ يعلم بأنه يملك مصادر متنوعة لدراسة الرهبنة. وهنالك يلتقي براهبة تشوسر ، في كل حنية ومنعطف . ولديه ، على رأس تلك المصادر ، سجلات الاساقفة .

لقد ظل المؤرخون دهراً طويلا يتخيلون ، ويا سخف ما كانوا يتخيلون ، ان الملوك والحروب والبرلمانات ونظام المحلفين هي وحدها التاريخ . ولم يكن ليخطر في بالهم ان يبحثوا بين المحفوظات المكسوة بالتراب عن السجلات الفخمة الـــتي كان اساقفة العصور الوسطى يدونون فيهـــا رسائلهم وتفصيلات اداراتهم المعقدة لابرشياتهم . ولكن المؤرخين ، عندما عزموا على البحث هنالك ، وجدوا معلومات لا تثمن عن جميع جوانب الحياة الاجتماعية والكنسية تقريباً.

وكان عليهم ، بطبيعة الحال ، ان ينقبوا عن هذه المعلومات . اذ تكاد جميع المعلومات التي تستحق ان تعرف تتطلب ان تستخرج من تحت التراب ، كما تستخرج المعادن الثمينة من بين الصخور . وقد يضطر المعدّن ، في اغلب الاحيان ، ان يحفر اياماً طوالا ، في اعماق الارض ، في ركام من الهمود ، بحثاً عن حفنة من ركاز . فاذا وجده ، وجب عليه ان يفكر فيه ويطيل التفكير ليصل الى معناه ، والا لم يستطع له فهماً . لقد وجد المؤرخون ذهباً خالصاً في سجلات الاساقفة عندما اقنعوا انفسهم بان الحفر والتنقيب فيها لا ينقصان من جلالة اقدارهم شيئاً . لقد وجدوا اوصافاً لبيوت القسس ومساكنهم ، بما فيها من حدائق وفرش ومتاع . ووجدوا اخباراً عن الخلافات العائلية ، ووصايا تتضمن تركات لاناس مضت على موتهم مئات السنين . ووجدوا وثائق حرم ، وصكوك غفران منحت لاشخاص جزاء اغاثتهم للفقراء ، واصلاحهم للطرق ، وتشييدهم للجسور ، قبل ان يسنّ اول قانون لمساعدة الفقراء ، وقبل ان تنشأ اول «بلدية» بازمان طويلة . ووجدوا وقائع محاكمات عن الهرطقة والعرافة والسحر . ووجدوا اخباراً عن معجزات حدثت عند قبور القديسين ، وحتى عند قبور بعض النـاس البعيدين عن القداسة ، كتوماس اللانكستري ، وادوارد الثـاني ، وسيمون المونتفوردي . ووجدوا قوائم تتضمن نفقات الاساقفة عندمـا كانوا يطوفون في ابرشياتهم يستطلعون احوالها . وقد وجدوا في احدى هذه القوائم وصفاً دقيقاً لهيئة الملكة فيليبا ، وكانت اذ ذاك طفـلة في التاسعة من عمرها تعيش في بلاط ابيها في هينولت . لقد ارسل اسقف كنتربري ليفحصها ، فيبدي رأيه فيما اذا كانت على درجة من الملاحة والجمال

تؤهلها لان تكون زوجة لادوارد الثالث. وقد قال الاسقف ان ثناياها أشد بياضاً مـــن سائر اسنانها ، وان انفها عريض الا انه ليس افطس ، مما دعا ادوارد الى الاطمئنان . واخيراً ، وليس آخراً ، فان المؤرخين قد وجدوا عدداً وافراً من الوثائق التي تدور حول الاديرة . وقد وجدوا بين هذه الوثائق محاضر زيارات الاساقفة . وقد وجدوا في محاضر الزيارات هذه ، راهبة تشوسر بابتسامتها الخفرة الساذجة ، وجبينها الجميل ، ومُخنقها المشدود باحكام ، وقلادتها ، وكلابها الصغار ، وبكل ما وصفها به تشوسر ، كأنها قد دخلت هذا السجل المزدحم خطأ ، وهي تحسبه « قصص كنتربري » فهي ابداً تحن الى الخروج منه .

واليك سبب دخول السيدة ايغلينتاين هذا السجل. جرت العادة في العصور الوسطى ان يزور الاسقف ، او من ينتدبه الاسقف ، بين الحين والحين ، جميع أديرة الراهبات والرهبان الواقعة ضمن أبرشيته ، ليتأكد من انهم يسلكون السلوك اللائق. وكانت هذه الزيارات تشبه ، الى حد ما ، زيارة مفتشي المعارف للمدارس ، وان كان مـــا يحدث خلال تلك الزيارات يختلف عما يحدث خلال زيارة المفتشين اختلافاً كبيراً ، فمفتش «جلالته» عندما يزور مدرسة من المدارس لا يجلس في قاعة الاستقبال بابهة ووقار ، ولا يستدعي افراد المدرسة امامـــه الواحـــدة بعد الاخرى ، من رئيسة المدرسات الى اصغر تلميذة في الصف الاول ، ولا يطلب منهن ان يقلن له لماذا يرين ان المدرسة لا تسير كما يجب ان تسير ، وما هي شكواهن من المعلمات ، وأياً من البنات اعتادت خرق الانظمة والقوانين ، ولا يهمس في اذن المفتش ، احد

من البنات ، على انفراد همساً خافتـاً ، دون ان يوجد من يتسمع لهمساتهن الخافتة هذه. اماعندما يزور الاسقف احد أديرة الراهبات فإليك ما يحدث على وجه التدقيق : يرسل أولا رسالة الى الدير يقول فيها انه قادم ، ويرجو من الراهبات ان يعددن انفسهن لاستقباله . ثم يأتي ومعه كاتبه وموظف او موظفان من الراسخين في العلم ، فتستقبله رئيسة الدير وجميع الراهبـات بخشوع ووقـار ، ثم يلقي عليهن موعظة في كنيسة الدير . وربما دعونه الى وليمة عشاء . وبعد ذلك يستعد لامتحانهن . ويأتينه الواحدة بعد الاخرى ، بحسب مراتبهن ، ابتداء من رئيسة الدير . وكل ما يفعلنه هو ان تقص عليه كل واحدة منهن قصصاً عن رفيقاتها الراهبات . والاسقف يحب ان يعرف اذا كانت الرئيسة تدير الدير ادارة حسنة ، واذا كان القداس يقام حسب الاصول . وما اذا كانت مالية الدير سليمة لا غبار عليها واذا كان النظام والانضباط مرعيين . واذا ما كان لاحدى الراهبات ظلامه او شكوى فهذا هو وقت عرضها .

وكانت الراهبات كثيرات الشكوى . وان وجه تلميذة عصرية ليعلوه الشحوب ، فزعاً ورعباً ، من مقدرة هؤلاء الراهبات على حكاية امثال هذه القصص والاستماع اليها . فاذا كانت راهبة قد قرصت اذن اختها ، واذا كانت اخرى قد تغيبت عن الكنيسة ، واذا اسرفت أخرى في دعوة اصدقائها ، واذا خرجت راهبة من الدير دون رخصة واذا هربت راهبة مع عازف ناي متجوّل ، فمن المؤكد ان يعلم الاسقف نبأ ذلك بالتفصيل ، الا اذا كان الدير في حالة فوضى ، او اذا كانت الراهبات قد تواطأن على ان يتغاضين عن هفوات بعضهن ، وعلى ان لا يشين ببعضهن الى الاسقف ، وهو ما كان

يحدث بين الحين والحين . واذا كانت رئيسة الدير مكروهة من الراهبات ، فان الاسقف سيعرف كل شيء عنها يقيناً . تقول احدى الراهبات : « ان الرئيسة تعيش في غرفتها عيشة ممتازة ولا تدعونا اليها . » وتقول اخرى : « انها تختص بعض الراهبات بمعاملتهـا الحسنة ، فهي عندما تحاسبنا تعفو عمن تحب ، وتعاقب من تكره بمنتهى السرعة . » وتقول ثالثة : « انها مخيفة ، قاسية التوبيخ . » وتقول رابعة : « ان ملابسها اقرب الى ملابس النساء الدنيويات منها الى ملابس الراهبات . وهي تتحلى بالخواتم والقلائد . » وتقول خامسة : « انها تكثر من الخروج على ظهور الخيل لزيارة اصدقائها » « انها سيئة التدبير في الشؤون المالية ، ولقد جعلت الدار ترزح تحت وطأة الديون ، وان الكنيسة لتنهار أمام سمعنا وبصرنا ، واننا لا نتناول من الطعام ما نقيم به أودنا ، وانها لم تعطنا ملابس منذ عامين ،وانها باعت غابات وحقولا دون موافقتنا ، وانها قد رهنت أحسن ملاعقنا ولا عجب ان تفعل ذلك طالما هي لا تستشيرنا في أية قضية كما يحتم عليها الواجب ان تفعل . » وتمضي الراهبات في مثل هذا الكلام الذي يستغرق صفحات وصفحات . وكثيراً ما ودّ الاسقف ان يضع اصابعه في أذنيه ويصرخ فيهن : « اسكتن » . خصوصاً وان الرئيسة قد انفقت ، في أغلب الظن ، نصف ساعة اثناء دورها في الكلام ، في اخباره عن عصيان الراهبات للقوانين ، وسوء امزجتهن ، ورداءة سلوكهن .

ويقوم كاتب الاسقف بتسجيل هذه القصص جميعاً ، بكل وقار ، في كتاب ضخم . وعندما ينتهي الامتحان يستدعي الاسقف الى حضرته جميع الراهبات من جديد . فاذا كان جواب الراهبات اثناء الامتحان

ان « كل شيء على ما يرام » كما يفعلن في بعض الاحيان ، او اذا كنّ قد اشرن فقط الى الاخطاء التافهة ، فانه يثني عليهن ، ويمضي في رحلته . اما اذا كن قد اظهرن ان الامور سيئة حقاً ، فانه يقوم بتحقيق الاتهامات المعينة ، ويوبخ المذنبات ، ويأمرهن بان يتبن ويعدلن سلوكهن . وعندما يعود الى قصره ، او المنزل الذي يسكنه ، فانه يكتب عدداً من الاوامر مبنية على شكاوى الراهبات ، يقول فيها على وجه التحديد كيف يجب ان تصلح الامور . وهو يحفظ واحداً من هذه الامور في سجله ويرسل الآخر ، بوساطة رسول خاص ، الى الراهبات اللاتي يفترض فيهن ان يقرأنه علانية ، بين حين وآخر ، ويعملن بحسب ما جاء فيه . تجد هذه الاوامر مدونة في عدد كبير من سجلات الاساقفة بخط كتابهم . وتجد في بعض هذه السجلات — واخصها بالذكر سجل لنكولن الرائع الذي يرجع عهده الى القرن الخامس عشر ويعود الى الاسقف آلنويك الطيب الذكر — شهادات الراهبات كما دونها الكتاب فور انطلاقها من افواههن الثرثارة . وهنا يطلع المرء على امتع مدونات العصور الوسطى واعظمهـا انسانية . ومن السهولة بمكان ان تعرف الاهمية التاريخية لهذه التقارير التي يدونها الاساقفة عن رحلاتهم ، وخاصة في ابرشية مثل لنكولن التي تملك سلسلة من التقارير والسجلات تكاد تكون متصلة ، وتمتد على طول القرون الثلاثة التي سبقت « حل الاديرة » ، بحيث يستطيع المرء ان يتتبع التقارير الكاملة عن هذه الرحلات .

ودعنا الان ننظر في الاضواء التي ستلقيها هذه السجلات على السيدة ايغلينتاين قبل ان يلحظها تشوسر ممتطية حصانها خارج نزل « تابارد » . مما لا شك فيه انها قدمت الدير ، اول ما قدمت ،

وهي ما تزال فتاة غريرة . ففي القرون الوسطى كانت البنت ، عند بلوغها الخامسة عشرة من عمرها ، تعتبر فتاة كاملة النضج ، مستوية الانوثة . وكان بالامكان تزويج البنات في الثانية عشرة ، كما كان بالامكان ان يصبحن راهبات وهن في الرابعة عشرة . واغلب الظن انه كان لوالد ايغلينتاين ثلاث بنات أخر ، كان عليه ان يزوجهن ، ويجهزهن بجهازهن ، ويدفع لكل واحدة منهن صداقا . كما كان له ولد ممراح ، ينفق كثيراً من المال على الملابس المزخرفة الثمينة التي الف شبان ذلك العصر المترفون ارتداءها .

مطرّز الثياب ..... كأنه فتاة ،

تزهو ثيابه بالازاهير الغضة الحمراء والبيضاء

وعلى هذا فقد رأى الوالد ان يقرر مصير البنت الصغرى في الحال. وبعد ان جمع المهر اللازم (يندر ان تستطيع فتاة الدخول الى الدير دون ان تحمل مهرها معها ، مع ان قانون الكنيسة ، في الحقيقة ، يمنع تقديم أي شيء للدير ما عدا الهبات التي يقدمها صاحبها عن حرية واختيار) اخذ الفتاة معه ذات يوم من ايام الصيف ، ودفع بها الى دير للراهبات ، شيده اجداده ، بعيد عن مسكنه بضعة اميال. وبامكاننا ان نعرف حتى المبلغ الذي تكلفه لادخال الفتاة الى هـذا الدير . فقد كان هذا الدير ارستقراطياً تنتقى الداخلات اليه انتقاء . وكان على الوالد ان يدفع ما مقداره مئتا ليرة استرلينية ، على اساس الاسعار الحالية ، رسوم دخول ، وكان عليه بعد ذلك ان يجهز ايغلينتاين بثياب جديدة ، وسرير وغير ذلك من الفرش . وكان عليه ان يولم وليمة في اليوم الذي تصير فيه راهبة، يدعو اليها جميع الراهبات وعدداً من أصدقائه واخوانه . كما كان عليه ان يهب القس الذي

يقرأ الموعظة في ذلك لليوم شيئاً من المال . والخلاصة ان القضية ، بمجموعها، كانت امراً عظيماً . على ان هذه الوليمة لن تقام في الحال فقد كان على ايغلينتاين ان تظل راهبة مبتدئة بضع سنين حتى تبلغ السن التي تصبح فيها اهلا للترهب . وعلى هذا فهي ستقيم في الدير سنين عدة تتعلم فيها الغناء ، والقراءة ، وتتكلم الفرنسية كما تعلم اصولها مدرسة ستراتفورد - آت - باو . وربما كانت ايغلينتاين اصغر فتاة في الدير ، فان الفتيات ، في الاعم الاغلب ، لا يدخلن الدير حتى يبلغن السن التي يستطعن فيها الترهب عن ارادة حرة ، ورغبة اكيدة . على اننا نستطيع ان نؤكد وجود فتيات غريرات يتعلمن الى جانب الرويهبات الراشدات . ويحدث احياناً ان تدخل الدير بنات صغيرات السن كتلك الطفلة المدونة قصتها المحزنـــة في احد كتب القانون المملة . فقد ادخلها زوج امها الشرير الدير ليستولي على ميراثها (لا تستطيع الراهبة ان ترث ارضاً ، فهي تعتبر ميتة بالنسبة لعالم الاحياء .) وقد اخبرتها الراهبات بان الشيطان سيكون صاحبها ورفيقها اذا ما حاولت ان تضع رجلها خارج باب الدير . على ان ايغلينتاين كانت عذبة الروح مشرقة المزاج مرحة الطبع . وقد الفت حياة الدير واحبتها ، وكان لها ميل طبيعي لعادات المائدة وتقاليدها اللطيفة التي تعلمتها في الدير كما كان لهـا ميل عظيم لتعلم اللغة الفرنسية . ومع انها لم تكن متأنقة اطلاقاً ، ولم تكن تحب الملابس ذوات الالوان الفاتحـــة البهيجة ، والكلاب المستأنسة التي اعتادت ان تراها في خدر امهـا في الدار ، فلم تتردد في ان تضع النقاب وهي في الخامسة عشرة . والحق انهـــا كانت تحب هـــذا اللغط الذي ثار من حولها ؛ وتسميتها « مدام » أو « دام » وهو اللقب غير الرسمي الذي يمنح للراهبات عادة تأدباً واحتراماً .

وتمضي الاعوام ، وتمضي معها حياة ايغلينتاين هادئة ، وادعة ، وراء جدران الدير . ان الغاية العظيمة التي من اجلها انشئت الاديرة والتي قام كثير من الاديرة بادائها أحسن أداء ، انما هي عبادة الرب، والتسبيح بحمده . وقد كانت ايغلينتاين تصرف وقتاً طويلا في الغناء، والصلاة في كنيسة الدير ، وهي التي نعرفها .

« ترنم القداس المقدس ترنيماً جميلا »

كان الراهبات يصلين سبع مرات في اليوم الواحد . فحوالي الساعة الثانية صباحاً يصلين صلاة الليل . فما يكاد الناقوس يدق حتى يغادرن مراقدهن مسرعات ويهرعن ، في الظلمة والبرد القارس ، الى حيث يقف المرنمون في الكنيسة ، فيرتلن قداس السحر ، ويتبعنه ، في الحال بالتسابيح والتحاميد . ثم يرجعن الى مراقدهن وقد أخذ الفجر يصبغ بالورد حواشي السماء . وينمن ثلاث ساعات ليغادرن مضاجعهن ، للمرة الاخيرة، في الساعة السادسة . ثم يقرأن قداس الفجر ، ويعقب ذلك خمس قداسات موزعة على اليوم بطوله هي تيرس (١) وسيكست (٢) ، وصلاة الظهر ، وصلاة العصر وصلاة النوم . أما الصلاة الاخيرة ، صلاة ما قبل النوم ، فتؤدى في الساعة السابعة شتاء، والثامنة صيفاً . ويفترض في الراهبات ان يأوين ، بعد الانتهاء من هذه الصلاة ، الى مضاجعهن دون ابطاء . واما فيما يختص بطريقة ذهابهن الى غرفة النوم فتنص احدى قواعد الرهبنة على انه « يجب ان لا تزحم راهبة راهبة أخرى أثناء السير عن تعمد ، وان لا تبصق على

Sext (٢) Tierce (١)

الدرج صاعدة او هابطة ، الا اذا وطئت عليها ومسحتها بقدمها في الحال » . تتمتع الراهبات ، اذن ، بثماني ساعات متواصلة من النوم لا تقطعها الا صلاة السحر . وتأكل الراهبات ثلاث وجبات من الطعام في اليوم الواحد . فهن يتناولن فطوراً خفيفاً من الخبز والبيرة بعد صلاة الفجر في الصباح. وغداء مشبعاً ، تصاحبه قراءة جهورية، عند منتصف النهار . وعشاء خفيفاً ، عجلا ، يتلو صلاة العصر مباشرة في الساعة الخامسة او السادسة .

ويفترض في ايغلينتاين واخواتها ان ينصرفن ، من الساعة الثانية عشرة الى الخامسة في الشتاء ، ومن الواحدة الى السادسة في الصيف، الى القيام باعمال فكرية او يدوية ، تتخللها فترات من اللهو الهادىء، الورع . فهي قد تنصرف الى الحياكة او تطرز ملابس الكهنةالرسمية بالحرف الاول من اسم العذراء المباركة بخيوط زرقاء وذهبية ، او تصنع اكياساً صغيرة لاصدقائها ، او تخيط لهم شرائط يعصبون بها اذرعهم اذا ما جرحت . وقد تقرأ أيضــاً في سفر المزامير او في كتب سير القديسين التي تحتوي عليها مكتبة الدير والمكتوبة باللغة الانكليزية او الفرنسية ، ذلك لان لغتها اللاتينية ضعيفة ، وان كان باستطاعتها ان تفهم هذه الجملة « الحب يقهر كل شيء » بتلك اللغة. وربماقبل ديرها عدداً قليلا من التلميذات الصغيرات ، يتعلمن مبادىء القراءة والكتابة واصول الاخلاق القويمة من الراهبات . بل ربما اشتركت ايغلينتاين ، عندما كبرت قليلا ، في تعليم هؤلاء الفتيات الصغار القراءة والغناء ؛ فهن ، وان كن سعيدات في الدير، لا يتلقين ثقافة شاملة على أيدي الاخوات الصالحات . وفي الصيف كان يسمح لايغلينتاين ان تعمل ، احياناً ، في حديقة الدير ، بل

وان تخرج للحصاد مع الراهبات الاخريات . ثم تعود ، وقد اتسعت حدقتاها ، لتسر في اذن القس الذي تعترف له ، بانها رأت الشماس ممتطياً حصانه وقد اردف وراءه امينة مؤن الدير ، وانها فكرت بان امتطاء الحصان وراء دون جوان السمين لذة لا تعدلها اية لذة .

كان يفترض ان يسود السكون المطلق في الدير ، فيما عدا فترات قصيرة من الراحة والاستجمام ، أثناء الليل وأطراف النهار . فاذا ما رغبت إيغلينتاين ان تكلم احدى اخواتها الراهبات كان عليها ان تفعل ذلك بالاشارات المستعملة في اديرة القرون الوسطى ، تلك الاشارات التي وضعت في قوائم جمع فيها مصطنعوها بين البراعة الخارقة للطبيعة وبين ثقل الدم وضآلة النكتة المرحة . وقد كانت المجالس الصامتة التي تعقد حول موائد الطعام التي تجلس اليها ايغلينتاين ابعث على المرح والسرور من الاحاديث . فلقد كان على الاخت التي تريد سمكة ان « تهز ذراعيها هزاً تقلد به السمكة» والتي تريد حليباً أن «تقبض اصبعها الصغرى كما تفعل اثناء الحلب » والتي تريد خردلاً ان « تقبض على انفها باعلى راحة اليد اليمنى وتحكه » والتي تريد ملحاً « أن تنقر بابهام وسبابة اليد اليمنى ابهام اليد اليسرى » والتي تريد نبيذاً أن « تحرك السبابة صعوداً وهبوطاً على نهاية الابهام قدام العين . » اما قندلفت الكنيسة المذنبة التي راعها انها لم تعدّ البخور للقداس فانها « تضع اصبعيها في منخريها . » وتحتوي احدى هذه القوائم الموضوعة للراهبات على ما لا يقل عن مئة وست اشارات . وليس من المستغرب ، على وجه العموم ، ان نجد نظام الراهبات انفسهن يقضي بانه « غير مسموح اطلاقاً استعمال هذه الاشارات دون سبب

مبرر ، ودون حاجة نافعة ، فكثيراً ما آذت الكلمة الخبيثة الانسان ، وكثيراً ما اعتدت على حرمات الرب » .

لو لم تشعر الراهبات ، بين الحين والحين ، بقليل من الملل من هذه الصلوات المتكررة وهذا السكون المطبق ، لما كن انسانات . فما كانت الحياة الدينية ، ولن تكون حقاً ، حياة سهلة . فليست الحياة الدينية محض وسيلة للهروب من العمل ومن المسؤولية . وفي مطلع العصر الذهبي للرهبنة كان المحترفون والمحترفات من النساء والرجال ، اي الذين لهم استعداد حقيقي لحياة الرهبنة ، هم الذين يدخلون الدير فقط . وزيادة على ما تقدم فانهم ، متى دخلوا الدير ، يعملون عملا جاهداً بايديهم وعقولهم ، وبارواحهم ايضاً ، وعلى هذا فانهم يجدون أشغالا متنوعة . وهذا التنوع في العمل يريح النفس ، ويكسبها العافية والنشاط ، كما تريحها العطلة والفراغ . ان اسس النظام الحكيم الذي وضعه القديس بندكت تقوم على الجمع بين تنوع الاعمال واطرادها ، والتوفيق بينها توفيقاً لطيفاً . فقد كان هذا القديس يعرف الطبيعة البشرية معرفة عميقة ، دقيقة . وعلى هذا لم يكن الرهبان والراهبات يجدون الصلوات رتيبة مملة . بل لقد كانوا ، في الحقيقة ، يعتبرون الوقت الذي ينفقونه فيها أحسن أوقات النهار . ولكن في أواخر العصور الوسطى ، حيث عاش تشوسر ، بدأ الشبان والشابات يدخلون أديرة الرهبنة ، وأخذوا ينظرون الى الرهبنة كحرفة من الحرف أكثر مما ينظرون اليها كخدمة ربانية . كان كثير من الرجال والنساء الروحانيين حقاً يترهبون : ولكن كان يأتي معهم أناس لم تكن الرهبنة لتوافقهم الا قليلا . وقد حط هؤلاء من مستوى الرهبنة لانها كانت صعبة عليهم ، مخالفة لطبائعهم . لقد اصبحت

ايغلينتاين راهبة لان والدها لم يرد ان يتحمل متاعب ونفقات تزويجها ، ولان الترهب كان العمل الوحيد الذي يليق بالفتاة المهذبة احترافه اذا لم تستطع ان تتزوج . وزيادة على ما تقدم فقد اصبح الرهبان والراهبات ، في هذا العصر ، أكثر كسلا وتراخياً . وكانوا يقومون بقليل من العمل بأيديهم ، وأقل من ذلك بعقولهم ، وخاصة في اديرة الراهبات حيث ماتت التقاليد التي تحث الراهبات على التعلم، وتشجعهن على الاستزادة من المعرفة ، وحيث اصبح كثيرات من الراهبات لا يفهمن اللاتينية المكتوبة بها الصلوات الـــتي يرتلنها . ونتيجة لهذا فقد بدأت حياة الرهبنة تفقد ذلك التنوع الأساسي الذي رسمه لها القديس بندكت ، واصبح الاطراد في العمل، احياناً، مضجراً مملا . وانحطت هذه السلسلة المتصلة من الصلوات حتى اصبحت عملا رتيباً مملا ، لا يستطيع كثير من المرنمين والمرنمات ان يبقوه حياً بما يضفون عليه من الحماسة الروحية . وهكذا أصبحت هذه الصلوات في بعض الاحيان (ويجب ان لا يذهب الخيال الى ان هذا قد حدث في جميع الاديرة ، او حتى في معظمها) اشكالا فارغة ، يسرع بها المصلون والمصليات بقليل من الورع والتقوى وأحياناً بشيء من قلة الاحترام . ولقد كان هذا الامر رد الفعـــل الحتمي على ذلك الرتوب الصارم .

كان اهمال القيام بواجبات الدير وفروضه هو النقيصة العامة التي شاعت في أواخر العصور الوسطى ، وان كانت هذه النقيصة ، على الدوام ، الصق بالرهبان منهـــا بالراهبات . فقد كانوا يتغيبون عن حضور الصلوات ، وكانوا يتصرفون، احياناً ، بمنتهى الرعونة والطيش كما حدث عام ١٣٣٠ في اكستر حيث اخذ الكهان يمزحون ويضحكون

ويتخاصمون اثنــاء القداس ، ثم انهم اراقوا شمعاً ساخناً على رؤوس المرنمين الحليقة القائمين في الصف أسفل منهم ، وكانوا أحيانـاً يأتون متأخرين الى صلاة السحر التي تقام في الساعات القليلة بعد منتصف الليل . وكانت هذه النقيصة الاخيرة، اي التأخر عن حضور الصلوات، شائعة في اديرة الراهبات خاصة . فقد اعتادت الراهبات على تناول شيء من الشراب ، والانغماس في الثرثرة ولغو الكلام بعد الانتهاء من الصلاة اليومية الاخيرة ، بدلاً من ان يذهبن الى مراقدهن مباشرة ، كما تقضي بذلــك أنظمة الدير . ولم تكن هذه العادة لتساعدهن على الاستيقاظ في الساعة الواحدة صباحاً . وبنـــاء على هذا فقد كن يحضرن صلاة السحر نعسانات ، والنوم ما يزال عالقاً بجفونهن ، وكن يعانين الصعوبة التي كان يعانيها الدكتور جونسون في النهوض المبكر من النوم . ولقد توقع القديس بندكت الحكيم هذه الصعوبة حينما كتب في قواعده : « عندمـــا يستيقظ الرهبان والراهبات من نومهم لأداء الصلاة المقدسة فليشجع بعضهم بعضاً ، ويحثوهم بلطف على النهوض بسبب الاعذار التي يقدمها الذين ما زالو نعسانين . » وقد اكتشف الاسقف في ستينفيلد عام ١٥١٩ ان نصف ساعة تنقضي أحياناً بين قرع الناقوس الأخير وبين ابتداء القداس ، وان بعض الراهبات لا ينشدن بل يهومن اما لنقص في الشموع ، وهذا هو السبب الجزئي ، أو لانهن قد أوين الى مضاجعهن متأخرات ، وهذا هو السبب الأهم. من كان بيننا بلا خطيئة فليكن اول الراجمين .وكان الرهبان والراهبات يميلون الى الانسلال من القداس قبل انتهائه لسبب وجيه ، ولغير ما سبب وجيه : للمساعـــدة في اعداد الغداء ، او للاشراف على دار الضيافة ، أو لأن حديقة الـــدير بحاجة الى قلع الاشواك والاعشاب

الضارة ، او انهم منحرفو المزاج ، مرضى . ولكن النقيصة الاكثر شيوعاً هي اسراع الرهبان والراهبات في تلاوة القداس حتى يخلصوا منه في أقصر ما يستطيعون من الوقت ، فتراهم يهملون قراءة المقاطع الاولى والاخيرة من الكلمات كما يحذفون ويهملون مواطن الوقف بحيث ان جانباً من المرنمين يبدأون انشاد السطر الثاني قبل ان ينتهي الجانب الآخر من السطر الاول: وقد يتركون تلاوة جمل بكاملها ، ويغمغمون ويجمجمون الكلام الذي يجب ان يلحنوه تلحيناً جميلا تشترك فيه ألسنتهم وانوفهم . والخلاصة انهم يحيلون الانشودة الفخمة ، الرائعة، الواضحة ، الى مجموعة متنافرة من الاصوات والحركات ، والكلام المجمجم . لقد كانت نقيصة « الاسراع » في تلاوة القداس من الشيوع والانتشار بحيث ان « أبا الشرور » ابليس اضطر ان يعين شيطاناً خاصاً يدعى تيتيفيللوس ، كانت وظيفته الوحيدة ان يجمع في كيس كبير المقاطع التي يهملها المرنمون والمرتلون ويحملها الى سيده . وقد تجمعت لدينا ، بطرق شتى ، معلومات وافية عن هذا الشيطان . فقد كان على الدوام يعرض نفسه لانظار المؤمنين الصالحين الذين قلما تخطىء عيونهم رؤية الابالسة والشياطين . وتميز المقطوعة اللاتينية التالية تميزاً واضحاً بين محتويات كيسه الكبير : « هؤلاء هم الذين يحرفون، عن خبث، المزامير المقدسة : زير النساء، واللاهث ، والقافز، والمهرول، والمتباطىء، والمجمجم ، والمهمل ، واول القافزين ، واول المهرولين ، يا تيتيفللوس أجمع حطام كلمات هؤلاء الناس المتناثرة . » والواقع ان أحد رؤساء الاديرة، من رهبنة سيتو (١) التقى ذات مرة بهذا الشيطان الصغير البائس واستجوبه عن طبيعة عمله ، وسمع منه المعلومات الضافية

---

(١) Cistercian abbot

عن صناعته المرعبة . وهذه هي القصة كما وردت في كتاب « مرآة سيدتنا » الذي كتب في القرن الخامس عشر لامتاع راهبـــات دير صهيون : « يروى ان احد رؤساء الاديرة الصالحين من رهبنة سيتو بينما كان قائماً في صف المرنمين في صلاة السحر رأى شيطانا قد علق برقبته كيسا طويلا واسعاً ، وكان يطوف بين المرنمين ، متتبعاً باعتناء عظيم كل الكلمات والمقاطع والحروف التي يهملها كل مرنم، والسقطات التي يرتكبها كل منشد ، ثم يجمع ذلك كله ، بهمة ونشاط ، ويضعه في كيسه . وعندما اصبح قدام رئيس الدير منتظراً ما عسى ان يهمل من الكلام ويرتكب من السقطات ، ليضع ذلك في كيسه ، ذهـــل الرئيس،وخاف من قبح منظره وقذارة شكله وشناعة هيئته ، وخاطبه قائلا : من أنت ؟ فأجاب قائلا : أنا شيطان بائس مسكين واسمي تيتيفيللوس. وانا أقوم بوظيفتي ،فقال رئيس الدير :وما هي وظيفتك؟ فأجاب الشيطان : يجب علي ان أحمل الى رئيسي كل يوم الف كيس مملوء بالسقطات ، والكلمات والمقاطع والحروف ، التي يهملها المرنمون من رهبنتكم هذه اثناء قراءتهم وانشادهم ، والا كان نصيبي الضرب المبرح . غير ان المرء يستطيع الوثوق مع ذلك من ان مدام ايغلينتاين التي كانت ترنم الكلام ترنيماً رخيماً ، لم تمد له يد المساعدة في عمله هذا ابداً . وعندما لا يكون تيتيفللوس مشغولا فيجميع سقطات الرهبان التافهة وما يهملون من كلمات المزامير ، فانه يملأ زوايا كيسه بثرثرة الناس ولغوهم في الكنيسة ، كما انه يجلس وحيـــداً في محل مرتفع ناء ، يجمع اصوات المغنين « من ذوي الاصوات العالية » الذين ينشدون في سبيل مجدهم هم ، بـــدلا من ان ينشدوا في سبيل مجد الرب ؛ فتراهم يرفعون اصواتهم ثلاث طبقات اعلى ممـــا تستطيع

اصوات المرنمين المسنين الخفيضة ان ترتفع اليه .

على ان رتابة الحياة في الدير قد تؤدي احياناً الى اكثر من ان يجعل الراهبات مشتركات عن غير وعي ، في كيس تيتيفيللوس . فهو احياناً، يعبث بامزجتهن ويتلف اعصابهن ويدمرها تدميراً . فلم تختر الراهبات لحياة الدير لانهن قديسات . وليست مناعتهن ضد شدة الغضب باعظم من مناعة « زوجة باث » عندما تعاظم غضبها ، فامتنعت عن التصدق باية صدقة ، لان نساء القرية سبقنها الى دخول الكنيسة . واحياناً تكايد الراهبات بعضهن بعضاً ، ويثرن اعصاب بعض . ولعل قراء « بيرز بلومان » (١) يذكرون انه عندما دخلت الخطايا السبع المهلكات قص « الغضب » كيف كان طباخاً عند رئيسة الدير وقال :

انا الغضب جعلت من قاسي الكلام خضارهم
بحيث تبادلوا التهم « كذاب » ، « كذاب » ، ثم عض كل
واحد الآخر في وجهه . وقسماً بالمسيح لو كان
لديهم سكاكين لقتل بعضهم بعضاً .

من المؤكد اننا لا نسمع كثيراً عمن هو اسوأ من رئيسة الدير تلك التي عاشت في القرن الخامس عشر ، والتي كانت تجر الراهبات من خمرهن حول المرنمين في منتصف القداس وهي تصرخ فيهن : « كذابات » ، « ساقطات » . او اسوأ من تلك السيدة ، التي عاشت في القرن السادس عشر ، وكانت تضرب رؤوس الراهبات بجمع يدها ، وتضع ارجلهن في الدهق (٢) . فما كان جميع رئيسات

(١) Piers Plowman

(٢) خشبتان فيها خروق يقمط بهما على ساقي المذنب . (المترجم)

الاديرة « حسنات العشرة ، كريمات التصرف » ولا كن جميعاً حميدات السيرة ، قويمات الاخلاق . اذ ترينا سجلات الزيارات للاديرة ان المزاج السيء ، والخصومات التافهة الاسباب ، كانت تحطم في بعض الاحيان سلام الحياة في الدير .

ولنرجع الآن الى ايغلينتاين . لقد عاشت في الدير عشر سنوات ، او اثنتي عشرة سنة ، راهبة بسيطة . وكانت ترتل القداديس ترتيلا رائعاً . وكانت رائقة المزاج ، لطيفة العشرة ، حميدة السيرة ، محبوبة من الجميع . وزد على ذلك انها كانت كريمة المحتد . ويحدثنا تشوسر كثيراً عن سلوكها الجميل على مائدة الطعام ، وعن حسن لياقتها التي تثبت انها كانت سيدة تربية وطبعاً . والحق ان وصفه هذا قد يكون مأخوذاً مباشرة عن احد كتب آداب السلوك المؤلفة لكريمات البنات في العصور الوسطى . وحتى جمالها الجسماني ــ انفها المستقيم ، وعيناها الرماديتان ، وفمها الصغير القاني ــ يؤكد مستواها الرفيع ، وحسبها العريق . وكانت الاديرة ، في الغالب ، مثابة لبنات الاغنياء ، والمتعاظمين ، والمتغطرسين . فقد كانت ابوابها مفتحة للسيدات النبيلات وبنات الاغنياء والتجار ، موصدة بأوجه الفتيات الفقيرات وذوات الاحساب الوضيعة . واغلب الظن ان الراهبات كن اذا خلون الى انفسهن يتحدثن عن ايغلينتاين ، ويستعرضن خلالها الحميدة ، ونفسها الرضية ، وسلوكها الجميل ، وعلاقاتها الحسنة بأوساط المجتمع الرفيعة . وكن يرين انتخابها رئيسة للدير ، اذا ما خلا المركز بوفاة الرئيسة القائمة ، امراً حسناً ، يفرضه التفكير السليم. وكذلك فعلن . وعندما التقى بها تشوسر كانت قد قطعت في رئاسة الدير بضع سنين . وقد سرت ايغلينتاين ، بادىء ذي بدء ، بمنصبها

الجديد سروراً عظيماً ، وافرحها ان تخاطبها الراهبات اللاتي كن اكبر منها سناً « يا امنا » . وكان من دواعي سرورها ان اصبح لها غرفة خاصة تخلو فيها الى نفسها ، وتستقبل فيها زوارها وضيوفها . ولكنها ما عتمت ان وجدت ان مقتضيات هذا المنصب ليست كلها طريقاً مفروشاً بالورود . فقد كان على رئيسة الدير ان تقوم بأعمال عديدة . كان عليها ان تراقب الانضباط الداخلي في الدير ، وتشرف على الشؤون المالية ، وتصدر أوامرها وتعليماتها الى وكلاء اراضي الدير ، وتبذل جهدها لتغلّ حقول الدير احسن غلة ، وتعنى بأن تحصل الكنائس العائدة للـدير على حقها من الصدقات والاعشار ، وان يدفع التجار الايطاليون الذين يأتون لشراء اصواف الدير احسن الاسعار . وكان المفروض فيها ان تعرض هـذه القضايا جميعاً علي الراهبات اللاتي يجتمعن عادة في القاعة العمومية حيث يجري بحث جميع القضايا ، وتعمل بمشورتهن فيها . واغلب ظني ان ايغلينتاين كانت ترى ، احياناً ، انه من الافضل والاقوم ان تصرف الامور حسب مشيئتها . فكانت تمضي الامور بنفسها ، وتختم الوثائق بختم الدير ، دون ان تطلع عليها الراهبات ، ودون ان تستأنس بمشورتهن. من حق المرء ، بل من واجبه ، ان يشك دائماً برئيسة اية دائرة ، او مدرسة ، او جمعية ، تقول لنفسها بلهجة الواثق المطمئن انـه من الافضل ان تنجز هي الاعمال بنفسها بدلا من ان تعهد بانجازها الى مرؤوسيها المختصين بانجاز مثل هذه الاعمال . فمثل هذه الرئيسة اما ان تكون مستبدة عاتية ، او انها لا تعرف تنظيم الامور وتدبيرها . اما السيدة ايغلينتاين فقد كانت مستبدة الرأي ، نوعاً مـا ، ولكنه استبداد النفوس الكريمة الطيبة. ثم انها كانت تكره المضايقة والاملال.

ولهذا لم تكن لتستشير الراهبات دائماً . واغلب الظن عندي (بعد ان قمت بإبحاث ودراسات عديدة في ما نسي تشوسران يأتي على ذكره من ماضيها) انها كثيراً ما كانت تتجنب تقديم حساب بالمدخول والمصروف كل عام للراهبات كما يفترض فيها ان تفعل .

وكانت الراهبات ، بطبيعة الحال ، يعارضن هذا السلوك ، ولا يرضين عنه . فما حل عندهن الاسقف ، اثنـــاء طوافه على اديرة ابرشيته ، حتى شكون له امرهن ، وعرضن له حال رئيسة الدير معهن . وقلن له أيضاً ان الرئيسة سيئة التدبير في شؤون المال ، وانها قد ارهقت كاهل الدير بالديون ، وانها تبيع خشب الدير عندمـــا تعوزها النقود ، وانها تعد بعض الناس بمعاشات تقاعدية سنوية مقابل مبالغ من المال يؤدونها لها حاضراً ، وانها تؤجر حقول الدير لآجال طويلة بايجارات بخسة ، وانها تأتي باعمال أخرى تعود على الدير ، في الامد الطويل ، بالخسران المبين . وزيادة على هذا فانها قد اهملت اصلاح سقف الكنيسة حتى اصبحت مياه الامطار تهطل على رؤوسهن من فرجات الشقوق وهنّ يرتلن القدّاس . وماذا لو اطلع سيدنا الاسقف المبارك على هذه الخروق التي تملأ ثيابنا وامر الرئيسة ان تزودنا بثياب جديدة ؟ وقد اعتادت بعض رئيسات الاديرة الشريرات ان يرهنّ ، احياناً ، صحون الدير الغالية ، ومجوهراته الثمينة ، لقاء مال ينفقنه في اغراضهن الخاصة .

على ان ايغلينتاين لم تكن ، على كل حال ، شريرة او مدخولة الذمة ، وان كانت سيئة التدبير . وجوهر الامر انها لم تكن ملمة بعلم الحساب ، ولم تكن لتحسن عشرة الارقام ومعاملتها . وما عليك الا ان تقرأ وصف تشوسر لها لتتأكد من انهـــا لم تكن متضلعة من

الرياضيات . وفضلا عن هذا فقد كانت الراهبات مبالغات ، إذ كانت السيدة ايغليتناين تحب التأنق في الملبس ، بحيث لا يعقل ان تطيق رؤية الراهبات وهن يرحن ويجئن بثيابهن الرثة المهلهلة : اما سقف الكنيسة فقد حاولت ان تقتصد مـا يكفي من المال لشراء القرميد اللازم لاصلاحه . على ان توفير المال كان من الامور الصعبة حقاً في اديرة العصور الوسطى ، لا سيا (ودعني اكرر القول) اذا كانت الرئيسة لا تجيد الحساب . واغلب الظن ان الاسقف قد لاحظ بنفسه حالة مزارع الدير فاوصى الرئيسة بان لا تقوم باي عمل دون ان تستشير الراهبات . ثم انه وضع ختم الدير في صندوق ذي ثلاثة اقفال مختلفة الاشكال ، كان لدى السيدة ايغليتناين واثنتين من كبيرات الراهبات مفاتيحها ، بحيث انها لم تكن تستطيع ان تفتح الصندوق بمفردها . وعلى هذا فانها اصبحت غير قادرة على ان تختم اية معاملةدون موافقتهما . ثم انه امرها ان تمسك سجلا بالحسابات، تعرضه على الراهبات كل عام (ما زالت « دائرة السجلات » تحتفظ بمجموعة ضخمة من سجلات الحساب هذه) ثم انه انتدب احـد الاساقفة ليكون قيما على شؤون الدير المالية ، وليعين الرئيسة كلما احتاجت الى معونة . ومنذ ذلك الحين سارت الامور سيراً حسناً .

والظاهر ان ايغليتناين لم تكن ابداً مشغوفة بالشؤون المالية شغفاً حقيقياً . فما كان احب اليها من ان تقضي اوقاتها في تدبير الشؤون الداخلية ، واستقبال الزائرين والضيوف ، والطواف على المزارع والحقول لتتفقد شؤونها ، وقد بدأت تجد ان بامكانها ، وقداصبحت رئيسة دير ، ان تعيش حياة اكثر حرية واعظم بهجة . فلرئيسة الدير غرفة خاصة ، بدلا من ان تشاطر الراهبات غرفة النوم العامةوالمطعم

المشترك . وقد تتمتع رئيسة الدير احياناً بدار صغيرة مستقلة ومطبخ خاص . وقد كان لرئيسة احد الاديرة في وينتشستر ، في القرن السادس عشر ، مجموعة كاملة من الخدم والحشم : طباخ ، ومساعد طباخ ، وخادمة ، ووصيفة ، كأي سيدة عظيمة من سيدات ذلك الزمان . ولم تكن تلك الرئيسة لتتناول طعامها مع الراهبات الا في المناسبات الرسمية . على ان العادة جرت بان تصاحب الرئيسة راهبة واحدة تكون لها بمثابة رفيقة ، تساعدها في الترتيل ، وتكون شاهدة على حسن سلوكها واستقامة اخلاقها . وكانت هذه الراهبة تسمى « راعيتها الخاصة » . وكان المفروض ان تتبدل كل عام حتى لا تنال بعض الراهبات الحظوة والمكانة الممتازة عند رئيسة الدير دون سائر الراهبات. ويجب ان نذكر ، بهذه المناسبة ، بان السيدةايغلينتاين عندما ذهبت الى الحج استصحبت معها الراهبة « راعيتها » وثلاثة قسس . فقد جرت تقاليد الاديرة على ان لا تغادر الراهبة الدير وحيدة . وكانت احدى واجبات السيدة ايغلينتاين ، بصفتها رئيسة دير ، ان تستقبل الزوار العديدين بما عرف عنها من حسن الاستقبال، ودماثة الخلق ، وكرم الضيافة . لقد جاءت اخواتها ، وقد اصبحن الآن سيدات متزوجات رفيعات المقام يملكن مقاطعات زراعية خاصة بهن ، لتهنئتها . كما جاءها مهنئاً والدها وعظماء المنطقة . وصاروا من ذلك الحين كثيراً ما يأتون الى الدير ، اذا ما مروا به اثناء رحلاتهم، فيتناولون طعاماً قوامه الفراخ والخبز والنبيذ . وقد يبيتون فيه احياناً . وغالباً ما تأتي الدير سيدة ، او سيدتان ، قد ذهب زوجها الى الحرب او الى روما للحج ، لتعيش فيه عاماً كاملا على نفقتها . فليس من شيء

احب الى نبلاء الارياف ، او اغنياء المدن ، من ان يستخدموا الاديرة « نزلا » تأوي اليها نساؤهم .

وقد كانت هذه الامور جميعاً مما يعكر صفو الراهبات وهدوءهن ، ويقلق اطمئنان نفوسهن . وكانت « نزيلات » الدير أشد ما يزعج الراهبات . فقد كنّ يلبسن الثياب البهيجة المفوفة الالوان ، ويعتنين بتربية الكلاب ، ويستقبلن الزوار ، ومن هنا فقد كنّ قدوة سيئة ، بسلوكهن الطائش ، للراهبات . واليك هذا الامر الذي اصدره اسقف الى رئيسة دير « يجب ان ترحّل زوجة فيلمرشام ، وجميع خدمها وكذلك جميع من في ديركم من النساء ، ترحيلا نهائياً ، في مدة اقصاها عام واحد . فقد اصبحن عاملا من عوامل ازعاج الراهبات، وافساد سلوكهن بسبب الملابس الـتي يرتدينها هن وزائراتهن من النساء . وبامكان القارىء ان يتخيل بسهولة لماذا يعارض الاساقفة في قبول النساء المتزوجات الدنيويات نزيلات في الدير. وما عليه الا ان يستبدل « بزوجة فيلمرشام » « زوجة باث » ليقف على تفسير كل شيء . فقد كانت هذه السيدة شخصية بارزة لا تستطيع رئيسة اي دير ان ترفض قبولها في الدير بسهولة . وكان عدد حجاتها وحده كافياً لان يمنحها « حرية الدخول » الى اي دير . فهي تجتاز ابواب الدير ممتطية صهوة حصانها ، وعلى ثغرها تلك الابتسامة العريضة المرحة . ويا له من شهر عاصف يمر على حياة الدير الراكدة اثناء اقامة السيدة فيه ، وانني لموقنة كل اليقين بانها هي التي علمت السيدة ايغلينتاين احدث الطرز في لبس القبعة. وانها هي التي ادخلت القبعات العريضة « عرض الدرقة او الترس » ، والجوارب القرمزية ، الى بعض اديرة الراهبات . ومع ان الاساقفة كانوا يكرهون اعمال هؤلاء النزيلات

كل الكره ، فلم ينجحوا في اخراجهن من الاديرة رغم كل ما بذلوه من جهد . لان الراهبات كن محتاجات الى المال الذي تدفعه النزيلات لقاء طعامهن وسكناهن .

ومن السهل على القارىء ان يفهم ان هـــذا الاختلاط المستمر بالزوار الدنيويين قـــد عمل على نشر العادات الدنيوية في دير السيدة ايغلينتاين . ومهما قيل في الراهبـــات فهن لسن غير نساء يزهين بهذه الاباطيل المحببة التي تزهو بها بنات جنسهن ويشغفن بها شغفاً عظيماً . على ان « السلطات » لم تكن لتعتبر هذه الأباطيل محببة أبداً . ففي رأي « السلطات » ان ابليس اللعين قد ارسل ثلاثة أبالسة صغـــار لهلاك الراهبات هم : الرقص ، والملابس ، والكلاب . وقد كانت انكلترا في العصور الوسطى مشهورة بالرقص والعزف والغناء والتمثيل الصامت ، والحفلات التنكرية العابثة في عيد الميلاد ، وبحق دعيت « انكلترا المرحة » فقد كانت تحب هذه الامور حباً عميقـــاً مهما سودت الاوبئة والطواعين والمجاعات وظلم الانسان للانسان وجـــه الحياة فيها . على ان رأي الكنيسة في الرقص واضح لا يحتمل تفسيرين وقد لخص موقف الكنيسة هذا، تلخيصاً دقيقاً ، احد الاخلاقيين بهذه العبارة الجامعة : « ان الشيطان هو مخترع الرقص ، ومدير شؤونه » . على اننا نجد ــ اذا القينا نظرة على الحسابات التي تقدمهـــا مدام ايغلينتـــاين ، او لا تقدمها ، الى الراهبات في ختام كل عام ــ ان جانباً من ميزانية الدير قد انفق على خمور شربت في عيد رأس السنة والليلة الثانية عشرة (ليلة الغطاس) ، وعلى ألعاب شهر أيار وملاهيه وعلى بيرة وخبز للمسامرات الليليـــة ، وعلى المغنين والعازفين في عيد الميلاد ، وعلى هدايا قدمت لصبي الاسقف أثناء طوافه المعتاد على

الاديرة ، وربما أضيفت علاوة زهيدة إذا مـــا سمح لاصغر طالبة ان ترتدي ملابس التمثيل ، وتمثل دور رئيسة الدير ، طول عيد « يوم الابرياء » . ولو اننا نظرنا في سجلات الاسقف لوجدنا انه قدحرم على السيدة ايغلينتاين « كل ضروب الغناء، والعزف والتمثيل والرقص في بيتها المقدس » . وقد تكون ايغلينتاين سعيدة حقا لو ان الاسقف استثنى من حرمه هذا عيد الميلاد « وغيره من أوقات اللهو الشريف والتسلية البريئة ، فيما بين الراهبات أنفسهن حسب ، وفي غيبة المدنيين على كل حال .» واني لعلى يقين بان تسلية ايغليتاين في الدير كانت تشمل الرقص ايضاً .

وثمة ايضاً الثياب المفصلة على « الطراز الحديث » التي ادخلتها الزائرات الى الاديرة . من المؤكد ان السيدة ايغلينتاين لم تكن بعيدة عن التأثر بهذه الثياب . ومن المحزن انهـــا بدأت تشعر بأن ملابس الراهبات سوداء قاتمة ، قبيحة ، وان حياة الرهبنة صارمة شديدة التزمت . واخذت ترى ان ادخال بعض التسليات البريئة ، والملاهي ، البسيطة ، الى هذه الحياة القاتمة لا يكلف احداً شيئاً من المال ، وهي ربما جازت على الاسقف فلا يلحظها . وهذا ما دعا تشوسر الى ان يقول عنها عندما رآها :

ومما لاحظته ان ثوبها كان رائع السحر ، فتانا .
وكانت تضع على ساعدها سبحة من حبات المرجان الصغيرة ،
طُوّقت طوقين ،
وكان يتدلى من هذه السبحة المفصلة بحبات خضر ،
« قرص » ذهبي رائع التألق ، شديد اللمعان .

على ان الاسقف لسوء الحظ قد لاحظ هـــذا كله . والحق ان السجلات ملأى بذكر ثياب ايغلينتاين ، واكثر من هذا ، بذكر تلك الملابس الطائشة التي كانت ترتديها في دارها الخاصة . وقـــد شن الاساقفة ، خلال اكثر من ستة قرون متعبة، حرباً مقدسة على الملابس الحديثة الازياء في الاديرة . ولكن حربهم تلك كانت فاشلة ، عديمة الجدوى . فطالما كانت الراهبات يختلطن بحرية ويسر بالنساء المدنيات استحال منعهن من اقتباس الازياء الدنيوية الشائعة . وقد يجد احد الاساقفة اليائسين نفسه ، احياناً ، غارقاً الى اذنيه فيما يكاد ان يكون قائمة كاملة للازياء العصرية ، ليعين ، وقد اعترته الحيرة التي تعتري الرجال في هـــذه الحالة ، الازياء التي يجب على الراهبات ان يمتنعن عن لبسها . وكثيراً ما كان يجتمع رؤساء الطوائف الدينية ليبحثوا في وقار امر هذه الازياء التي أخذت تغزو الصالحـــات من الراهبات . وكثيراً ما كان الاساقفة ورؤساء الاساقفة يهزون رؤوسهم الشائبة الوقورةوهم في حيرة من امر دبابيس الشعر الذهبية، والاحزمة الفضية ، والخواتم المرصعة بالجواهر ، والاحذية المزينة بالشرائط ، والفساتين المفتوحة الصدور ، وأطواق الفساتين الواطئة وأهدابهـــا الطويلة الفضفاضة ، والالوان المفوفة الفاتحة ، والملابس الغاليةالاسعار والفراء الثمينة . كان يفترض في الراهبـــات ان يسدلن خمرهن حتى تلامس حواجبهن بحيث تختفي جباههن تمام الاختفاء . على انالجباه العريضة كانت الزي الشائع بين سيدات ذلك الزمـــان اللاتي كن ، أحياناً ، يحلقن شعر مقدم الرأس لتبدو جباههن عريضة . ونتيجة لذلك لم تستطع الراهبات مقاومة هذه الرغبة المستبدة . فكن يرفعن خمرهن ، ويرخينها ، وإلا كيف علم تشوسر ان السيدة ايغلينتاين ذات

جبهة جميلة عريضة ، حتى أقسم ان عرض جبينها شبر ؟ فلو انها كانت تعصب رأسها كما تقتضي التقاليد لما ظهر جبينها ، ولما استطاع تشوسر ان «يغمزها» بهذه الغمزة الفطنة الواضحة التي كان معاصروه يدركون معناها حالا. وذلك «القرص (البروش) » وفستانها الانيق الجذاب.!. واليك ما قالته بعض الراهبات المحبات للقصص ، لاسقف لينكولن عن رئيسة ديرهن ، بعد ان كتب تشوسر حكايات كنتربري بخمسين عاماً ، لقد قلن له ، بلهجة من يتظاهر بالتقوى ويتصنع الاخلاص : «ان رئيستهن تتزين بخواتم ذهبية فادحة الاثمان ، واحجار كريمة مختلفة الاشكال والالوان ، واحزمة مموهة بالفضة والذهب ، وخمر حريرية. وانها ترفع خمارها فوق جبينها عاليا ، بحيث يصبح جبينها العاري نهبا لانظار الجميع . وانها ترتدي الفرو الثمين . ثم انها ترتدي ملابس مصنوعة من قماش « رينيس » الذي يبلغ ثمن الال (١) الواحد منه ستة عشر بنسا. وهي ترتدي كذلك ثياباً مطرزة بالشرائط الحريرية مرصعة بالدبابيس الفضية والفضية المموهة بالذهب . وقد جعلت الراهبات يصنعن صنيعها، ويحتذين مثالها . وهي ترتدي ، فوق خمارها قبعة فاخرة مبطنة بالفرو . وتتدلى من عنقها قلادة طويلة من الحرير تنتهي أسفل صدرها بحلقة ذهبية وماسة . » أليست هذه الراهبة الرئيسة هي مدام ايغلينتاين بعينها؟ لم تكن عين تشوسر الطيب لتغادر شيئاً دون ان تراه ، وان بدا مطرق النظرات ، يسير وعيناه في الارض دائماً .

وزيادة على ما تقدم ، فان الرئيسة واخواتها الراهبات لم يكنّ

---

(١) أل (ell) مقياساً يساوي خمساً واربعين بوصة .

ليقلدن الازياء الحديثة الشائعة في اللباس فحسب . فقــد كانت السيدات العظيمات في تلك الايام يحببن ان يسرين عن انفسهن باقتناء الحيوانات الاليفة . وكانت الراهبات سريعات الى تقــليدهن في هذا المضمار.

وكانت لها كلاب تطعمها اللحم المشوي
والحليب ، والخبز الابيض اللطيف .
وكانت تبكي بكاء مراً اذا مات أحدها ،
أو اذا ضربه أحد الناس بالعصا ضرباً موجعاً .

وتقارير الاساقفة عن زيــاراتهم الاديرة ملأى بذكر الكلاب الصغيرة وغيرهــا من الحيوانات . وكم من القراء يعرفون ان تلك الكلاب الصغيرة هي « كالجبين العريض الجميل والبروش الذهبي الشديد اللمعان» تخالف الانظمة المرعية كل المخالفة ؟ فقد كان الاساقفة يعتبرون وجود الحيوانات الاليفة في الاديرة مخلا بالنظام والانضباط. ولقد حاولوا ، قرناً بعد قرن ان يطردوا تلك الحيوانات من الاديرة دون ان يصيبوا أقل نجاح ، إذ ما يكاد الاسقف يغادر الــدير حتى تصفر الراهبــات لكلابهن فتأتيهن راكضات . كانت الكلاب هي المفضلة من بين الحيوانات الاليفة عند الراهبات وان كانت القردة ، والسناجيب ، والارانب ، والطيور ، والقطط (في احيان نادرة) ، مما كان يرى في الاديرة ايضاً . وقد اضطر احد رؤساء الاساقفة ان يمنع رئيسة دير عن الاحتفاظ بعدد من الكلاب والقردة في غرفتهــا الخاصة ، وان يتهمهــا ، في الوقت نفسه ، بالتقصير على الراهبات بالطعــام . وبإمكان المرء ان يحزر اين كان يذهب اللحم المشوي ،

والحليب المغلي ، والخبز الحوّاري ؟ كان استصحاب الناس للحيوانات الاليفة الى الكنيسة عادة شائعة في العصور الوسطى . فقـــد كانت السيدات ، غالباً ، يحضرن الصلاة وفي حجورهن الكلاب . وكان السادة يحضرون الصلاة وعلى سواعدهم الصقور ، مثلما يستصحب الفلاح الجبلي كلبه معه اليوم . وكان هـــذا الامر يحدث في أديرة الراهبات ايضاً . واحياناً كانت السيدات المدنيات من نزيلات الدير هن اللاتي يصحبن الكلاب الى الكنيسة . وقد اشتكت راهبات أحد الاديرة من هذه الحالة شكاة مرة محزنة فقلن : « ان للسيدة أودلي التي تسكن هنا عدداً كبيراً من الكلاب ، بحيث انها كلما تذهب الى كنيسة الدير يتبعها اثنا عشر كلباً تحدث ضوضاء مرتفعة وجلبة عالية، تعيق الراهبات عن ترتيل المزامير ، وتفزعهن فزعاً شديداً . » على ان الراهبات انفسهن كن يخالفن الانظمة في اغلب الاحيان . وقد وردت في عدة تقارير توصيات عديدة بعدم جواز احضار الحيوانات الاليفة الى جوقة المرنمين . واعظم هذه الانذارات امتاعاً تلك التي وردت في التقارير التي أرسلها وليم أوف ويكهـــام الى رئيسة دير رومسي عام ١٣٨٧ ، أي في نفس وقت الذي كان تشوسر يكتب فيه حكايات كنتربري تقريباً . وجاء في هذا التقرير : « فقرة : بناء على اقتناعنا، بالادلة الواضحة ، بان بعض راهبات ديرك يصحبن معهن الى الكنيسة طيوراً ، وأرانب ، وكلابـــاً ، وغير ذلك من الاشياء السخيفة ، وحيث ان الراهبات يعنين بهذه الحيوانات اكثر من عنايتهن بطقوس الكنيسة وواجباتهـــا ، وحيث ان ذلك يؤدي الى اعاقتهن عن تلاوة المزامير واعاقة اخواتهن الراهبات ، ويعرض ارواحهن للخطر الجسيم فقد قررنا ان نمنعكن جميعاً منعاً قاطعاً، بناء على الطاعة الواجبة عليكم

لنـــا ، من ان تجلبن معكن الى الكنيسة ، في مقبل الايام ، طيوراً وارانب وكلاباً وغير ذلك من الاشياء السخيفة التي تخل بالنظـــام وتضعف الانضباط ... فقرة : وحيث ان الصدقات المتوجبة للفقراء تبتلعها كلاب الصيد وغيرها من انواع الكلاب التي تعيش في فناء ديركن وارباضه ، وحيث ان هذه الكلاب ... تنجس الكنيسةوالدير وحيث ان القداس المقدّس كثيراً مـــا يضطرب باصواتها المنكرة ، فنحن نوصيك ، ايتها السيدة الرئيسة ، ونأمرك امراً قاطعاً ، ان تبعدي الكلاب جميعاً عن الدير ، وان تمنعي وجودها في خرم الدير ، في مقبل الايام منعاً باتاً . » على انه كان من المستحيل على اي اسقف ان يقنع السيدة ايغلينتاين بالتخلي عن كلابها . فقد كانت لا تستطيع الافتراق عنها حتى اثناء حجهـــا ، وان كانت هذه الكلاب شديدة الازعاج للمسافرين في الفنادق التي كانت تنزلها في الطريق ، لا سيما وانها كانت تهتم بطعام هذه الكلاب اهتماماً يفوق المعتاد ، وتثير حول ذلك كثيراً من اللغط والضوضاء .

على اننا يجب ان نعترف بأن رئيسة الدير التي صورها تشوسر كانت الى حد مـــا ، سيدة دنيوية ، وان كانت ملابسها الجميلة وكلابها الصغيرة لا تعتبر من الكبائر بمقاييس عصرنا الحاضر . وان القارىء ليعطف عليها ، ويقف الى جـــانبها ضد اوامر الاساقفة المتعسفة . واغلب الظن انها أصبحت أكثر تعلقاً بالحياة الدنيا على مرور الزمن . فقد اتيحت لها فرص عديدة لملابسة المجتمع . فلم يكن عليها ان تستقبل الزوار وتضيفهم فحسب ، وانما كانت اعمال الدير المتعددة تضطرها الى مغادرة الدير والقيام برحلات عديدة ، وهذا مما كان يتيح لها فرصاً عديدة للالتقاء بجيرانها ، ومحادثتهم ، ومنادمتهم .

وكانت تضطر احياناً للذهاب الى لندن لتلاحق دعوة في المحكمة . وكانت كل رحلة من هذه الرحلات نزهة عظيمة ، حيث تصحبها فيها راهبة ، او راهبتان ، وقسيس ، وعدد من الفلاحين يعنون بخدمتها ويتوفرون ، على راحتها . وكانت تذهب احياناً لمقابلة الاسقف لتستأذنه في قبول بعض الطالبات الصغيرات . وقد ذهبت مرة لحضور مأتم رجل عظيم كان والدها يعرفه ، وقد ترك لها في وصيته عشرين شلناً وكأساً فضية . وكانت تذهب احياناً لحضور حفلة زواج احدى شقيقاتها ، او لتكون عرابة لاطفالهن ، وان كان الاسقف يكره هذه الروابط الدنيوية ، ولا يحب حفلات الرقص والمرح التي تصحب حفلات الزفاف والتنصير عادة . وفي الحق ان الراهبات كن يشتكين ، أحياناً ، من رحلاتها هذه العديدة ، ويقلن للاسقف ان الرئيسة وان كانت تدعي بأنها تقوم بهذه الرحلات انجازاً لقضايا الدير واشغاله فانهن يشككن في دعواها هذه ، ويطلبن من الاسقف ان يتلطف فينظر في هذه القضية بنفسه . ونجد في احد الاديرة ان الراهبات يشتكين من ان الدير مدين بمبلغ عشرين جنيهاً انفق معظمه على حاجات الرئيسة الخاصة ، لانها كثيراً ما تسافر الى الخارج زاعمة انها انما تفعل ذلك لقضاء حاجات الدير وانجاز اعماله، وان كان الامر على خلاف ما تزعم. ومما يزيد في النفقات انها تصحب معها عدداً كبيراً من الخدم والحشم ، يزيدون عما تحتاج اليه ، وانها تتلبث في سفرها طويلا ، وانها تنفق على مائدتها الفاخرة بسخاء ، سواء كانت مقيمة ام مسافرة ، وانها تتأنق في لباسها ، بحيث ان الفرو الذي يزين حواشي ثوبها يكلف مائة شلن ...

وفي الواقع ان الكنيسة لم تكره شيئاً كرهها لهذه العادة ، التي

يشترك فيها الرهبان والراهبات على السواء ، الا وهي عادة التطواف خارج الاديرة والصوامع . وقد اعتبر الاخلاقيون ان الاختلاط بالعالم هو اساس كل هذا الشر الذي زحف الى حياة الرهبنة وانظمتها . يقول المثل الارثوذكسي : « الراهب خارج صومعته كالسمكة خارج الماء » . ان راهب تشوسر ، كما يجب ان يذكر القارىء ، كان يرى ان نص هذا المثل لا يساوي صدفة محار . وفي الحق ان كثيراً من الرهبان استطاعوا ان يسبحوا في الهواء سباحة جيدة. كما ان الراهبات كن يصررن على اغتنام اية فرصة ، واختلاق اي عذر للطواف خارج الدير في هذا العالم الوسيع . وقد حاولت المجامع الدينية والاساقفة والمصلحون خلال العصور الوسطى بطولها ، ان يبقوا الرهبان والراهبات معتكفين في اديرتهم لا يبرحونها . ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، وذهبت ادراج الرياح . وقد ابتدأت عظمى هذه المحاولات في عام ١٣٠٠ عندما اعلن البابا ، في نشرة بابوية ، امره بأن تلزم الراهبات اديرتهن ولا يغادرنها ابداً الا عند الضرورة القصوى ، وان يمنعن اي انسان مدني من الدخول الى اديرتهن وزيارتهن بدون ترخيص وبدون سبب معقول يدعو للزيارة . ان هذه النشرة تجعل القراء يشفقون على اولئك الراهبات البائسات . ولكن لا داعي لمثل هذه الشفقة . فلم ينجح احد بوضع هذه الاوامر موضع التنفيذ اكثر من خمس دقائق ، وان انفق الاساقفة اكثر من قرنين كاملين يحاولون تنفيذها . وكانوا ما يزالون يحاولون محاولاتهم الفاشلة تلك حين حل الملك هنري الثامن اديرة الراهبات واخرج جميع الراهبات الى الدنيا بصورة نهائية سواء احببن ذلك ام لم يحببنه . وقد حدث ان الاسقف

جاء بنفسه الى احد اديرة ابرشية لنكولن واودع فيه نسخة من النشرة البابوية ، وطلب من الراهبات اطاعة مـــا ورد فيها من الاوامر والنواهي ، ولكن الراهبات لحقن به الى الباب ، ورمين النشرة على رأسه وهو يهم بالركوب ، صارخات : انهن لن يطعن هذه الاوامر، ولن ينفذن منها حرفاً ، وفي الحق ان الاساقفة المجربين سرعان ما تركوا محاولة تنفيذ هذه النشرة بحرفيتها ، واكتفوا بأن يأمروا الراهبات بان لا يكثرن من الزيارات ولا يخرجن دون اذن او دون مرافق ، او دون سبب معقول . ولكن الأساقفة لم ينجحوا حتى في هذه الحالة ، نجاحاً كبيراً . فقد كانت الراهبات بليغات في اختـــلاق الاسباب المعقولة التي تدعو الى مغادرة الدير . فتارة تزعم الراهبة ان والديها مريضان ولا بد من زيارتهما لتخفيف وطأة المرض عنهما ، وتارة تزعم انها ذاهبة الى السوق لتشتري شيئاً من السمك، وتارة انها ذاهبة لتعترف في دير آخر . واحياناً يصعب على المرء حقاً ان يتخيل مـــا يخترع هؤلاء الراهبات من اسباب ويختلقن من اعذار . فما عسانا مثلا ان نظن بتلك الراهبة الطائشة « التي قضت ليلة الاثنين بصحبة رهبان اوستن في نورثمبتن ، ورقصت معهم ، وضربت على الطنبور الى منتصف الليل . وقضت الليلة التالية بصحبة الرهبان الوعاظ في نورثمبتن ضاربة على الطنبور ، مغنية راقصة ، كما فعلت في الليـــلة السابقة . » حدثنا تشوسر ان الراهب كان يحب العزف على القيثارة حباً عظيماً ، وان عينيه كانتا تتألقان كالنجوم عندما يندفع في الغناء. ولكن ربما فات تشوسر ان يلاحظ ان ذلك الراهب قد اغرى السيدة ايغلينتاين بمراقصته .

والحق انه ليصعب علينا ان نحيط علما بالاعذار « المشروعة » التي تقدمها الراهبـات لتجولهن في الشوارع والحقول ، ولغشيانهن بيوت الناس. قد تكون السيدة ايغلينتاين أضعف من ان تخضع هذه العصبة من الراهبات لأوامر الدير والزامهن النظام ، وقد تكون قادرة على ذلك ولكنها تتجاوز عما يفعلن بمحض ارادتها . فهنالك ما يدعو الى الظن بانها لم تكن تحترم الاساقفة احتراماً عظيماً ، ولم يكن رأيها فيهم حسناً . والا كيف استطاع تشوسر ان يراها لو لم تأخذ للامر اهبته ، وتختلق من الاعذار ما هو جدير بان يقنع الاسقف بالسماح لها بالسفر طالما كان الحج اضعف الاسباب الموجبة لترك الدير بنظر الاسقف . وما كانت السيدة ايغلينتاين بسيطة ، حيية ، كما تبدو . وكم من النقاد الذين كثيراً ما ضحكوا من قصتها فاغرقوا في الضحك ، يعلمون انه كان يجب ان لا تدخل في مقدمة حكايات تشوسر أبـداً ؟ لقد كان رأي الكنيسة واضحاً كل الوضوح بخصوص تثبيط الراهبات عن الحج فقد منع احـد المجامع الدينية ، في عام ٧٩١ ، حج الراهبات منعاً قاطعاً . وقرر مجمع آخر، انعقد في يورك عام ١١٩٥ ، «لكيما نسلب من الراهبـات فرصة التجول والتطواف خارج أديرتهن قررنا ان نمنعهن من سلوك سبيل الحج . » وقد منع احد رؤساء اساقفة يورك منعاً باتاً في عام ١٣١٨ ، راهبات أحد الاديرة ان يغادرن ديرهن « بسبب الوفاء بحج نذرنه . فاذا كانت احدى الراهبات قد نذرت مثل هذا النذر فبامكانها ان تتحلل منه بان تقرأ من المزامير مـا يملأ عدد الأيام الضرورية للقيام بهذا الحج الذي تسرعت فنذرتـه بخفة وطيش . » وانه ليحزن المرء ان يتخيل السيدة ايغلينتاين عاكفة على

مزاميرها تتلوها دون انقطاع ، وتنغمها بأنفها الجميل ، بدلا من ان تخب على حصانها فرحة ، مبتهجة ، وتقص على رفاق سفرها قصة القديس هيو الصغير ، بأسلوبها الجميل المحبب . وبامكاننا ان نستخرج من سجلات العصور الوسطى أمثلة عديدة على أوامر المنع هذه . ولكن ليس من الضروري في الحقيقة ان نذهب الى ابعد من تشوسر لنفهم لماذا كان الأساقفة يعارضون في حج الراهبات هذه المعارضة الشديدة وما على المرء الا ان يتذكر بعض المسافرين من العامة الذين تسافر الراهبات برفقتهم ، وبعض القصص التي يروونها .. ولو كانت رئيسة الدير ، مثلا ، قد ذهبت الى الحج برفقة «راعيتها» الراهبة وقسيسها ، أو لو انها كانت تسافر ، على الاقل بصحبة الفرسان وقسيس المدينة لهان الامر ، ولكن كان في رفقتها ايضاً الطحان ، والمُحضر (وأسوأ من هذا كله) تلك الخاطئة المرحة ، الودود الفاتنة ، « زوجة باث» وانه لمن المقلق حقاً ان يتصوّر المرء التفصيلات الاضافية التي لا يستبعد ان تكون زوجة باث قد نقلتها الى رئيسة الدير عن ازواجها الخمسة .

هذه ، إذن ، هي رئيسة دير تشوسر في حياتها الحقيقية : فان الشاعر الذي صورها كان احد الملاحظين الممتازين في الأدب الانكليزي كله . فقد نمرّ خلال مئات من تقارير زيارات الأساقفة ، ومنشورات الكنيسة وأوامرها ، ولكن أينما اتجهنا تطالعنـــا عيناها الزرقاوان ، تتألقان أمام أبصارنا من خلال تلك السجلات . ولكن لا بد لنا ، آخر الامر ، من العودة الى تشوسر للاطلاع على صورتها الحقيقية ، ولنلخص كل ما علمتنا أياه السجلات التاريخية . لقد وجدها تشوسر

وكما جدها الاسقف ، ارستقراطية ، رقيقة القلب ، متعلقة بالدنيا تجهد في ان « تبدو مرحة الوجه ، ضاحكة السن » .. محبة للملابس الجميلة والكلاب الصغيرة ، سيدة عظيمة المقام يقوم على خدمتها راهبة وثلاثة قسس ، سيدة يحترمها الجميع ، ويخاطبونها بعبارات الاجلال والتوقير . حتى ان « المضيف » الذي لم يحسن اللاتينية ، ولم يجد استعمال الكلمات المهذبة ، كان يكبح جماح نفسه ، ويخاطبها بلطف وتأدب خطاباً يليق بان يوجه الى عذراء : (١)

« اذا لم يضايقك ، ما سأقول ، ولم يحزنك ،
فاسمحي لي ، ايتها السيدة الرئيسة ،
ان اطلب اليك ان ترينا براعتك ،
فتحكي لنا القصة التالية ، اذا شئت ،
فهل تتنازلين ، يا سيدتي العزيزة ، فتوافقين ؟ »

لم يخاطب تشوسر أحداً بمثل هذا الكلام ، اللهم الا الفارس . أكانت الرئيسة متدينة ؟ ربما . ولكن تشوسر لم يجد من الادلة على تدينها الا ترتيلها للقداس ، والا مناجاتها الجميلة للعذراء في مفتتح قصتها ، يقول :

اما اذا أردنا ان نتحدث عن ضميرها
فقد كانت خيّرة ، كثيرة التصدق ، عطوفة القلب .

ولكن بينما نقف منتظرين ان نسمع عن تصدقها على الفقراء ، اذا

---

(١) هاتان الجملتان الاخيرتان هما ترجمة لمعنى البيتين اللذين يسبقان القطعة الشعرية المأخوذة من تشوسر ولم توردها المؤلفة . (المترجم)

بتشوسر يحدثنا عن بكائها على فأرة في المصيدة ، او على جرو ناله الضرب الموجع . أكانت حسنة الادارة لديرها ؟ الجواب عن هذه القضية يكتنفه الغموض والشك كذلك . ولكن عندما قابلها تشوسر كان الدير يدير نفسه في مكان ما في « اقصى المقاطعة » وكان العالم، في القرن الرابع عشر ، مليئاً بالسمك الذي يحيا خارج الماء . وتقسم السيدة ايغلينتاين بحياة القديس لويس وهو عندها القسم الاعظم ، انها تعتبر نص هذا المثل المشهور (١) ، كما كان يعتبره راهب تشوسر، لا يساوي صدفة محار . وقد آن لنا ان نستأذن السيدة الرئيسة بالانصراف ، ونتركها تمضي في طريقها الى كنتربري .

(١) الاشارة الى المثل الذي يقول : « الراهب خارج صومعته كالسمكة خارج الماء » . (المترجم)

الفصل الرابع

زوجة مدبّر البيت

ربة بيت باريسية في القرن الرابع عشر

ان مجال المرأة هو البيت

« هومو سابيان Homo Sapiens »

كان رجال العصور الوسطى ، كما هي حال الرجال في جميع العصور ومن جملتها عصرنا الحاضر ، جد مولعين بتأليف كتب في آداب السلوك يخبرون فيها النساء كيف يجب ان يتصرفن في جميع ظروف حياتهن ، وبخاصة كيف يجب ان يسلكن مع ازواجهن . وقد سلم كثير من هذه الكتب من يد الضياع ، ومن ضمنها كتاب في غاية الاهمية ، لما يتحلى به كاتبه من لطافة احساس ، ودقة شعور ، ولانه يعطينا صورة حية ، ودودة ، لبيت بورجوازي . وقد ألفت معظم كتب آداب السلوك للنساء عامة ، اي لنساء خياليات يعشن في الهواء اذا جاز التعبير . اما هذا الكتاب فقد الفه زوج معين لزوجته المعينة . لهذا فهو مستمد من واقع الحياة ، غني بالتفاصيل الدقيقة ، تطالعك

شخصيته المستقلة في كل سطر من سطوره ، مما لا تجده في الكتب الاخرى . واذا أردنا ان نبحث لهذا الكتاب عن شبيه فلن نجده في مؤلفات العصور الوسطى ، وإنما نجده في تلك الفصول التي اودعها كزينفون كتابه « الاقتصادي » والتي يشرح فيها أيزوماخوس لسقراط تربية زوجة يونانية تامة الكمال .

ألّف مدبر البيت الباريسي (١) (او رب البيت الباريسي ، أو رجل باريس الطيب) هذا الكتاب، لتعليم زوجته وتهذيبها وارشادها، بين عامي ١٣٩٢ و ١٣٩٤ . وكان هذا المدبر رجلا واسع الثراء ، عظيم الخبرة بشؤون الاقتصاد ، ذا حظ من المعرفة غير ضئيل. وكان ينتمي الى تلك الطبقة الراسخة ، المثقفة ، من البورجوازية الرفيعة ، التي أخذت الملكية الفرنسية تستند اليها ، وتعتمد عليها ، بثقة كانت تنمو مع الايام . ولا شك في انـــه كان يدنو من الشيخوخة عندما الف كتابه هذا فكان قد تجاوز الستين عندما تزوج فتاة صغيرة السن، يتيمة الابوين ، تقيم في مقاطعة غير التي يسكنها ، وتنتمي الى اسرة أعرق نسباً من اسرته . وهو يحدثنا ، مرات عديدة ، عن « شبابها الغض الريان » . وقد وضع في خدمتها قهرمـــانة توجهها في ادارة بيته ، وترشدها الى طرق العناية به . والحق انها ، مثـــل زوجة ايزوماخوس ، لم تكن قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها عندما تزوجها . ان هذا الفارق العظيم بين سن الرجل وسن الزوجة يصدم التفكير العصري ويهزه هزاً ، على انه كان امراً مألوفاً في العصور الوسطى ، العصور التي كان فيها « زواج المصلحة » (٢) شائعاً مألوفاً

---

(١) Menagier de Paris

(٢) Mariages de Convenance

يقول مدبر البيت « قلما تجد شيخاً كبيراً لا يرغب في تزوج امرأة شابة » . على ان سلوكه تجاه زوجته الشابة يرينا ان زواج شيخ هرم بفتاة غضة الصبا قد لا يخلو من الحسنات . وكثيراً مـا نلمس في الكتاب حنان المدبر الابوي ، وتفهمه العطوف لعواطف زوجتـه الطفلة ، وهذا مما قد لا يستطيعه زوج شاب . واننا لنلمح ، حول جميع المشورات العملية التي يسديها المؤلف لزوجته ، ما يشبه هذه الكآبة الناعمة التي تشيع في امسيات الخريف ، حيث يسير الجمال والموت ابداً جنباً الى جنب . لقد كانت وظيفة زوجته ان تجعل سنوات شيخوخته المتهدمة مريحة . وكانت وظيفته ان يسهل عليها القيام بواجبها هذا . وهو كثيراً ما يؤكد بأنه لا يطلب من زوجته ان تقدم له هذا الاحترام الذي يتطلبه المتعجرفون والمغترون بذواتهم، ولا يطلب منها اية خدمة تحط من كرامتها ، او يشق عليها القيام بها، فليس ذلك من حقه . وكل ما يتمناه هو ان تحيطه بمثل العطف الذي تقدمه جاراته وقريباته لازواجهن فحسب ، وهو يقول : «ليس من حقي ان أتمتع بأكثر من هـذه الخدمة المعتادة التي تقدمها الزوجات لازواجهن بل اقل واقل من ذلك » . ويعطينا ، في المقدمة التي توجه بهـا اليها ، صورة فتانة للمشهد الذي قاده الى تأليف الكتاب فيقول : « في الاسبوع الذي تزوجنا فيه ، وكنتِ يومذاك في الخامسة عشرة ، توسلتِ الي ان انظر الى شبابك والى خدماتك الصغيرة الجاهلة بعين العطف . وان اغفر لك الاخطاء التي تقعين فيها وانت تقومين على خدمتي ، الى ان تزدادي معرفة ، وتنضجك التجارب والايام . وقد وعدتني ان تبذلي كامل عنايتك ، وقصارى همتك ، في ان تبلغي ذلك في اسرع وقت .. وقد توسلت

الي بضراعة ، وكنا في فراشنا على ما اذكر ، وسألتني بحب الرب ان لا اصلح اخطاءك بقسوة أمام الغرباء ، ولا امام ذوي قربانا ، وان انصحك ، واصلح اخطاءك ، وأريك الافعال غير اللائقة والاعمال الطائشة التي ارتكبتها في اليوم الفائت او في الايام السابقة ، كل ليلة او بين يوم وآخر ، على انفراد في غرفتنا ، وان اعاقبك بالضرب اذا رأيت ذلك ضرورياً . ووعدتني بان لا تقصري في اصلاح اخطائك، حسب تعليمي وارشادي ، وان تبذلي جهد طاقتك في السير حسب رغبتي ومشيئتي . وقد رأيت ما قلته حسناً واثنيت عليه ، وشكرته لك ، وما زلت اذكره جيداً . واعلمي ، يا اختي العزيزة (١) ، بان ما عملته منذ ان تزوجنا الى هذا اليوم ، وما ستعملينه من المستقبل ، بينة حسنة ، طيب كله ، وقد سرني ، وما يزال ، وسيرضيني دائماً . فشبابك الغض يشفع لك في ان لا تكوني جد عاقلة وحكيمة ، وسيشفع لك ابداً في كل الاعمال التي تأتينها بنية طيبة لترضيني . واعلمي انه يسرني ، ولا يسوءني ، ان تعني بزراعة الورد والبنفسج ، وصنع أكاليل الزهور ، وان تهتمي بالرقص والغناء مع ابناءمقاطعتنا واصدقائنا . فمن حق شبابك الانثوي ، ومما يليق بك فعله ، ان تنفقي الوقت في هذه التسليات البريئة ، على شرط ان لا ترغبي ، ولا تسمحي نفسك ، في الذهاب الى الولائم وحفلات الرقص التي يقيمها كبار النبلاء ، فذلك لا يليق بك ، ولا يناسب منزلتك ولا منزلتي . »

ولم ينس ، اثناء ذلك ، طلبها اليه ان يعلمها وينصحها ويصحح

---

(١) يخاطب الكاتب زوجته ، خلال الكتاب كله ، بيا اختي ، تعبيراً عن احترامه العميق الودود .

اخطاءها ، اذا ما اختلى بها ، فكتب لها كتاباً صغيراً (ولكن الكتاب اصبح كبيراً قبل ان ينتهي منه) يريها فيه كيف تعزي نفسها ، فقد كان يشفق على هذه الطفلة التي لم تجد لها أباً ولا أماً منذ وقت بعيد ، والتي تعيش بعيدة عن قريباتها من النساء اللاتي قد ينصحنها ويشرن عليها . وهو يقول : « ليس لك من احد سواي ، انــا الذي من أجلي انتزعوك من بين اقربائك واصحابك ومن ارض ميلادك . » لقد فكر في القضية ، واطال التفكير ، حتى أقدم على كتابة « مقدمة عامة سهلة » تناول فيها كل ما يلزم المرأة لتكون زوجة صالحة ، ومدبرة بيت ، وسيدة كاملة . ويورد المؤلف سبباً آخر لتأليف هذا الكتاب — بالاضافــة الى رغبته في مساعدة زوجته وحرصه على تأمين راحته (فلقد بلغ من الكبر عتيــا) — هو من اعجب ما نصح به زوج زوجه . يقول انه اصبح شيخاً هرماً ، وانه سيموت قبلها ، وأن من حقه على زوجته ، ومن الامور الجوهرية ، ان تبيض صحيفته امام زوجها الثاني فماذا سيقول عنه اذا صحبته الى القــداس و « ياقة » فستانها مجعدة ، واذا لم تعرف كيف تبعد البراغيث عن البطانية ، وكيف تعد العشاء لاثني عشر شخصاً ايام الصوم الكبير . وانه لما يبين تعقل المدّبر وعدالته واحساسه الرصين ان ينظر الى زواج زوجته الثاني برصانة وربــاطة جأش . وقد عنون أحد أقسام كتابه « كيما تكونين محبة لزوجك (سواء كنت انا ذلك الزوج أم غيري) متمثلة بسارة ورفقة وراحيل » . ما ابعد الفارق بين المدبر وبين غيره من الازواج الذين كثيراً ما تظهرهم وصاياهم انهم يحاولون ان يوثقوا زوجاتهن بوثاق العزوبة الدائمة بعد وفاتهم (خوفاً على ثرواتهم من الضياع ، او صوناً لمستقبل ابنائهم من قسوة زوج الام) كوليم ايرل

عبروك المتوفى سنة ١٤٦٩ ، الذي قال في وصيته لزوجته ، ناصحاً ومحذراً : « واذكري ، ايتها الزوجة ، وعدك لي بان تظلي ارملة ما حييت ، كيما تكونين سيدة نفسك ، فتستطيعين القيام بوصيتي » .

ان خطة الكتاب « في ثلاثة اقسام ، تحتوي على تسعة عشر فصلا رئيسياً » تفي الموضوع حقه ، وتعالجه معالجة تامة . يبحث القسم الاول في الواجبات الدينية والاخلاقية . ويحسب تعبير المدبر نفسه « ان القسم الاول ضروري لك كيما تربحين حب الرب ، وتنالين خلاص روحك ، وتكسبين ، كذلك ، حب زوجك ، ولكيما تنالين الطمأنينة التي يجب ان تنال في الزواج . وبما ان هذين الشيئين ، اي خلاص روحك وراحة زوجك، ضروريان الى حد بعيد ، فقد وضعا هنا اولا » . ثم تتلو ذلك سلسلة من الفصول تقول للسيدة كيف يجب ان تصلي في الصباح ، عندما تستيقظ ، وكيف يجب ان تتصرف عند تلاوة القداس ، وبأي اطار تضع اعترافها للقسيس ، والى جانب ذلك بحث طويل ، مرعب الى حد ما ، في الخطايا السبع المهلكات ، التي لم يفكر رأسها الصغير الناعم بالاقدام على ارتكابها ، وبحث آخر في الفضائل التي تقابلها . على ان اكبر اجزاء الكتاب هو الذي يبحث في اهم المواضيع اطلاقاً ، واجبات الزوجة نحو زوجها . يجب عليها ان تحب زوجها ، وان تكون متواضعة امامه ، مطيعة له ، معنية بشخصه ، دائمة التفكير فيه ، حافظة لسره ، صابرة عليه اذا ما سمح لقلبه ، في ساعة طيش ، ان يضل طريقه الى امرأة اخرى . وهذا القسم بأجمعه موشى بسلسلة من القصص (تعرف بالامثولات في العصور الوسطى) منتخبة من الكتاب المقدس ، ومن هذه الثروة العامة من القصص والحكايات التي يمتلكها القسس والوعاظ والمغنون

المتجولون ، والشعراء الآفاقيون ، ومن تجارب المدبر الخاصة (التي هي اعظم هذه المصادر أهمية ومتعة) . ومن بين القصص الطويلة التي يستشهد بها المدبر قصة «ميليبيوس وبرودنس» لالبرتينواوف بريسشيا، وهي قصة اخلاقية محببة ، جامدة جموداً لا يغتفر، ترجمها الى الفرنسية رينو ده لوانس . وقد كتب المدبر نسخة من هذه الترجمة ، اخذها جان ده مونغ ، وعدّل فيها ، واوردها في كتابه « حكاية الوردة »، ومنه اخذها تشوسر ليرويها لحجاج كنتربري . وهنا نجد ايضاً حكاية بترارك الشهيرة عن غريزيلدا الصبور ، التي اخذها تشوسر ومنحها شهرة واسعة ، كما نجد قصيدة طويلة كتبها جان برويان عام ١٣٤٢، وهو موثق عقود الشاتيـــليه في باريس ، ودعاها « طريق الثروة والفقر » . وهذه القصيدة تهدف الى غرس فضيلتي التبصر والمثابرة في النفس .

ويتناول القسم الثاني من الكتاب ادارة البيت ، وهو اعظم اقسام الكتاب امتاعاً . ان اتساع مدى معرفة المدبر يبعث القارىء على اللهاث . فما كان هذا الرجل الا السيدة « بيتون » بعينها . ويحتوي هذا القسم على مقالة مفصلة في فن البستنة . ومقالة اخرى في المبادىء التي يجب ان تتبع عند التعاقد مع الخدم ، والطريقة الـــتي يجب ان يساسوا بها بعد استخدامهم . والظاهر ان مشكلة الخدم الذين يتركون الخدمة ، ويهجرون اسيادهم ـــ هذه المشكلة الحديثة ـــ لم تكن لتخطر على باله . وفي هـــذا القسم تعليمات بشأن رفـء الثياب والفراء ، وتهويتها ، وتنظيفها من الاوساخ والبقع الدهنية ، وبشأن التقاط البراغيث من غرفة النوم ، وابعاد الذباب عنها ، وبشأن العناية بالنبيذ ، والاشراف على ادارة الحقل .

ويقطع المدير حديثه ، عنـــد احدى النقاط ، ليخاطب زوجته قائلا : « هنا سأقطع حديثي معك ، وادعك تستريحين وتلعبين. وبينا تتسلين انت وتلهين ؛ سأتحدث انا الى الوكيل السيد جون الذي يدير ممتلكاتنا ويعنى بها ، حتى اذا ما حدث مكروه لأي حصان ، سواء كان حصان جراثة ام حصان ركوب ، او اذا ما وجدت من الضروري ان اشتري او استبدل حصاناً كان عليه ان يعلم ولو شيئاً مما يجب عليه علمه بخصوص هذه القضية. » ويتلو ذلك عدة صفحات تتضمن نصائح قيمـــة عن النواحي الحسنة في الخيول . وعن كيفية فحصهم ، ومعرفة اعمارهم ، وعيوبهم ، تحت سمع التاجر وبصره ، و « البقشيش » العملي الذي يظفر به من يعرف خيوله ويحبها ، الى جانب نصائح اخرى تتعلق بعلاج امراض الخيول المتنوعة . ونجد بين وصفات المدّبر الطبية تعويذتين. فمثلا «اذا أصيب حصان بمرض السقاوة يجب ان تقول له الكلمات الثلاث التالـــية ، وتردد بعدها الصلاة الربانية ثلاث مرات: + أبغلا + أبغلي + الفارد + اسي + ابانا الذي ... الخ »

واخيراً ، وليس آخراً ، يحتوي هذا القسم على رسالة رائعة في فن الطبخ ، مرتبة في الشكل الذي أصبح مقدساً عند كتب الطبخ منذ ذلك الزمان حتى يومنا هذا . وتبدأ بلائحة تحتوي على نماذج متعددة من قوائم الطعام للغداء والعشاء. فهنالك قوائم نموذجية للطعام الحار والبارد ، ولطعام أيام العيد وأيام الصوم ، وفصل الصيف وفصل الشتاء . وفيها اشارات عن كيفية اختيار اللحوم والطيور والتوابل والافاويه . وتنتهي بسلسلة طويلة من أصناف الشوربة ، والوان اليخنة والمرق ، وغيرها من الاطعمة ، مع بحث ضاف عن

الاطعمة التي تقدم للمرضى .

وكان المدبر ينوي ان يجعل القسم الثالث اجزاء ثلاثة : يعقد الجزء الاول لألعاب التسلية المنزلية ، والثـاني للصيد بالصقر وهو التسلية الخارجية المفضلة عند السيدات ، والثالث للالعاب والالغاز المسلية القائمـة على الحساب « تتعلق بالحساب والتعداد اللذين يصعب فهم المراد منهما، أو يحتاج الى حدس وتخمين » . ولا تخرج هذه الاحاجي والالغاز ، في اغلب الظن ، عن مثل « اذا كانت سمكة ونصف سمكة يسويان ثلاثة انصاف الغرش ... » والظاهر ان المدبر ، لسوء الحظ، لم يكمل الكتاب . فلم يبق من هـذا القسم الاخير الا الجزء المتعلق بالصيد بالصقور . ومن المؤسف ان لا تصلنـا هذه الاجزاء أسفاً يضاعفه اطلاعنا على عدة رسائل في موضوعها . ونستطيع ان نقدر أية متعة كنا سنحصل عليها من بحثه في الالعاب البيتية والالغـاز استناداً الى فقرة وردت في روايته لقصة لوكريس عند وصفه للسيدات الرومانيـات : « كان بعضهن يثرثرن ويخضن في القيل والقال . وبعضهن يلعبن أل «بريك» (١) . وبعضهن يلعبن ال «كي فيري»(٢) وبعضهن يلعبن ال « بانس ميريل » (٣) . وكان بعضهن يلعبن الورق أو غير ذلك من العاب التسلية واللهو مع جيرانهن . واما الاخريات اللاتي كن يتناولن عشاءهن سوية ، فكن يغنين ، ويقصصن الحكايات والاساطير ، ويراهنّ . بينما كان فريق منهن يلعبن في الشارع لعبـة « الاستغامية » أو لعبـة « البريك » وغير ذلك من ألوان اللعب

---

(١) Bric

(٢) qui féry

(٣) pince merille

العديدة . في تلك الايام ، وقبل ان يجعل اختراع الطباعـة الكتب وافرة العدد، كانت سيدات العصور الوسطى يعتمدن في التسلية واللهو، غالباً ، على رواية الحكايات والاستماع لها، وتبادل الالغاز، والمشاركة في الالعاب المختلفة ، التي ابعدناها منذ وقت طويل الى غرفة الاطفال وكان يستحسن في المضيفة ان تلم بعدد كبير من هذه الالعاب والالغاز . وكان المدبر يعنى عناية واضحة في ان يرى زوجته تحسن تـذوق أطايب الحياة الاجتماعية ، والاستمتاع بمسراتها ، كما كان يريدها ان تحسن القيام بواجباتها وفروضها .

هذا هو المؤلف الضخم الذي استطاع مدبر البيت البـاريسي ان يقدمه لزوجته المعجبة به والهيّابة منه . وهو ، وإن أهمله المؤرخون اهمالا محزناً ، يستحق شيوع الذكر ، وانتشار الاثر . لانه يعطينا صورة لربة بيت من العصور الوسطى ، تصعب محاكاتها او التفوق عليها . ويصعب ان نجد ناحية من نواحي حياتها لم يتناولها الكتاب. وبإمكاننا ان ننظر بامعان اليها لنرى فيها على التوالي السيدة الكاملة ، التي تدعو عاداتها وسلوكها الى امتداح حسن تربيتها ، والزوجة الكاملة التي لا يضاهي خضوعها لزوجها الا حذقها في العمل على إراحته ، وربة البيت التي يحبها خدامها ، ويديرون لها البيت ادارة منتظمة انتظام الساعة ، والمديرة الكاملة ، «مسز بيتون» القرن الخامس عشر.

أما أراء المدبر في آداب السلوك فقد حشرها حشراً في الفصل الذي عقده للواجبات الزوجية ، تحت عنواني « في النهوض صباحاً »، « والذهاب الى الكنيسة . » وأراؤه عن الثياب محددة تحديداً واضحاً فالاضطراب الجميل في الثوب لم يكن ليلائم ذوقه البتة . يقول :

« اذا أردت ، ايتها الاخت العزيزة ، اتباع نصحي ، فعليك ان تقدري امكانياتنا اعظم تقدير ، وان تتصرفي بحسب امكانياتنا هذه ، وبحسب مـا توجبه منزلتنا هذه . واحرصي على ان يكون كساؤك شريفاً ، بريئاً من المبتكرات الجديدة ، غير مسرف في الزينة ، ولا مقصر فيها . وعليك ان تنتبهي ، قبل ان تغادري حجرتك او بيتك ، الى ان تكون « ياقـات » قميصك ، وفستانك ، ومعطفك ، ودثارك ، غير راكبة الواحدة فوق الاخرى، شأن السكيرات والحمقاوات وفاقدات الفطنة من النساء الـلائي لا لا يرعين لشرفهن وشرف مقامهن او مقام أزواجهن أية حرمة ، اللائي يسرن وعيونهن هائمة في محاجرها ، ورؤوسهن منتصبة كأنها رؤوس الاسود ، وشعورهن شاردة من تحت عصائبهن ، وياقات أرديتهن ومعاطفهن راكبة الواحدة فوق الاخرى ، اللائي يمشين مشية الرجـال ، ويسلكن سلوكاً غير مهذب ، خالياً من الحياء ، أمام الرجال . واذا ما تحدث اليهن متحدث عن هـذه الأمور يعتذرن بكونهن متواضعات ، حييات ، مثابرات ، قائلات : انهن مجدات ، مواظبات على العمل ، متواضعات ، لا يحفلن بانفسهن ، ولا يعتنين بها . على انهن لا يصدقن القول إذ يعتنين بأنفسهن عنايـة عظيمة بحيث لو كنّ في اجتماع شريف لرغبن في ان يلتفت الرجال اليهن ، وان يعنوا بهن اعظم من عنايتهم بالسيدات الوقورات الرصينات من بنات طبقتهن ، ولرغبن في ان ينلن أكثر مما تناله السيدات الاخريات من التحيات والانحناءات والتبجيل والاحترام والحديث . على انهن لا يستأهلن من هذا شيئاً . فهن لا يعرفن كيف يصنّ سمعتهن الشريفة ويحافظن عليهـا ، ولا سمعة ازواجهن وذوي قرباهن الذين يجلبن عليهم الفضيحة والعار . وبناء على ما تقدم ، ايتها الاخت الجميلة ،

اجهدي في ان يكون شعرك وقبعتك وعصابة رأسك وربطة رقبتك وسائر ثيابك حسنة التنظيم ، محتشمة الترتيب ، بحيث لا يستطيع من ينظر اليك ان يسخر منك او يضحك عليك . وبحيث تكونين نموذجاً للزينة الجميلة ، البسيطة ، المحتشمة ... وعندما تذهبين الى المدينة او الكنيسة اذهبي بصحبة جماعة من النساء الشريفات من طبقتك وابتعدي عن صحبة النساء اللاتي يحوم الشك حولهن . ولا تسمحي لاية امرأة سيئة السمعة ان ترى في حضرتك . وارفعي رأسك ، عندما تسيرين، واخفضي جفونك ، واجعلي خطواتك رصينة الوطأة ، بطيئة السرعة، وتطلعي أمامك باستقامة مسافة اربعة أذرع . ولا تلتفتي ذات اليمين أو ذات الشمال ، لتنظري الى رجل او أمرأة ، ولا تلقي الى مـا يصادفك من المحلات بنظرة ، ولا تقفي لتتحدثي مع اي انسان في الطريق . كذلك كان مثال سلوك المرأة في العصور الوسطى .

ولننتقل الآن من السيدة الى الزوجة . كانت آراء المدبر فيما يتعلق بموقف الزوجة من الزوج ، تشبه آراء ابناء جيله الى حد بعيد ويمكن حصرها فيما يلي : الطاعة ، والخضوع ، والانتباه المستمر ، والرعاية الدائمة . فالزوجة يجب ان تكون ، على مائدة الطعام وفي الفراش ، بادية الحبور ، بشوشة الوجه ، حتى في الظروف التي تخفي فيهـا بشاشة الوجه قلباً حزيناً مثقلا بالآلام . ولم تعصمه لطافة احساسه من ان يشبه حب الزوجة لزوجهـا باخلاص الحيوانات الاليفة لاسيادها ، فيقول : « ترى بين الحيوانات الاليفة ان كلب الصيد ، او الكلب الكبير ، او الجرو ، دائم القرب من الشخص الذي يتناول منه طعامه ، مبتعد عن الآخرين ، هيّاب منهم ، فظ في معاملتهم ، سواء كان ذلك في الطريق ، او على المائدة ، او في الفرش . واذا

لم يستطع الكلب ان يقرب من سيده ، فان عينيه تظلان متعلقتين به، ويظل قلبه دائم الحنين اليه . وتجد الكلب يتبع سيده – حتى عندما يجلده سيده ، ويقذفه بالحجارة – وهو يهز ذنبه ، ويستلقي امام سيده محاولا استرضاءه واسترجاع عطفه . وترى الكلب يتبع سيده اينما سار : في الغابات ، وفي الادغال ، وفي الانهار ، واذا ما صال هاجماً على السارق ، او على الاعداء في حومة الوغى ... لهذا ولسبب اقوى واقوم ، يجب على المرأة التي وهبها الرب احساساً طبيعياً ، وجعلها مدركة عاقلة ، ان تحب زوجها حبا كاملا ، مهيباً ، مقدساً . ولذلك أتوسل اليك ان تكوني عظيمة الحب لمن قد يكون زوجك ، شديدة الكتمان لاسراره .» والصبر صفة جوهرية في الزوجات . فعليهن ان لا يتذمرن ولا يشتكين مهما امتحنتهن الآلام ومهما كانت حياتهن شقية . ويروي المدبر ثلاث قصص يوضح بها ما يجب على الزوجة ان تعمله ، والسلوك الذي يجب ان تسلكه لتستعيد حب زوج خانها . واحدى هذه القصص هي قصة «غريزيلدا» المشهورة . اما الأخريان فمنتزعتان من صميم تجاربه فيما يقول هو . ويحكي لنا في اولى هـذه القصص عن زوجة محام مشهور في برلمان باريس ، عنيت بتربية ابنة زوجها غير الشرعية ، وتعليمها ، وتزويجها ، «دون ان تدعه يشعر بذلك بكلمة عتاب ، ولا بكلمة غضبى او قبيحة» . واما القصة الثانية ، التي رواها المدبر بطريقة فتانة تخلب اللب ، فتخبرنا كيف استرجعت زوجة جون كوينتن قلب زوجها من غزالة الصوف المسكينة التي ضل طريقه في حبها . ويبدو ان هذه القصص جميعاً تبين ان مثل الكلب الذي ضربه المدبر للزوجة في العصور الوسطى ، كان مثلا موفقاً ، مختاراً بقصد وعناية. فقد كان المفروض في الزوجة

في العصور الوسطى ان تلعق اليد التي تلطمها كما يفعل الكلب. ولكن على الرغم من اتباع المدبر لجميع المقاييس الشائعة في عصره فقد منعته قوة احساسه ، وصحة تفهمه لحقائق الحياة ، من المغالاة في الخضوع لهذه المقاييس . وهذا يذكرنا بتعقيب تشوسر ، الكاتب الواقعي ، على قصة غريزيلدا الصبور ...

غريزيلدا وصبرها ، كلاهما ، ماتا
ودفنا معاً في ايطاليا .
وهذا ما يدفعني الى النداء على رؤوس الاشهاد :
« ايها الازواج لا تتجرأوا فتهاجموا
صبر زوجاتكم ، على امل ان تجدوا غريزيلدا بينهن ،
فلن تنجحوا ابداً . »

وانتن ايتها الزوجات الممتلئات فطنة وحذرا
لا تدعن التواضع يعقد السنتكن ويسمرها ،
ولا تدعن للكتاب مجالا لان يكتبوا
عنكن القصص ، كهذه القصة
التي تلقي أضواء ساطعة على صبر غريزيلدا
ولطفها وسماحتها . وإلا ابتلعتكن
« شيشيفاش » (١) كانها الحوت .

---

(١) تحكي اسطورة فرنسية قديمة انـــه كان يوجد بقرتان تدعيان Bicorne و Chichivache وكانت «بيكورن» بقرة سمينة ، فارهة ، لانها كانت تغذى بالازواج الصبورين ، المتواضعين، الذين كان عددهم عظيماً . اما « شيشيفاش » الهولة ، فكانت بقرة نحيفة ، ممصوصة العود ، لانها كانت تتغذى بالزوجات الصبورات ، المتواضعات .
(الحاشية للمؤلفة ، وقد توسعت فيها) «المترجم»

على ان ابداعه « لزوجة باث » قـد يكون اصوب من هذا التعقيب ، واعظم تسديداً . واليك ما يقوله المدبر لزوجته الشابة عن الموضوع نفسه . « لقد وضعت حكاية غريزيلدا هنا لاعلمك فقط . ولم اهدف الى ان اطبقها عليك لانني غير اهل لذلك فانا لست مركيزاً وانت لم تكوني، حين أخذتك ، شحاذة . ولم تبلغ بي الحماقة والغرور وغلظ الاحساس ان اجهل بأنه ليس من شأني ولا من حقي ، ان أتهجم عليك ، أو اجربك ، او أعرضك الى شيء من هذا القبيل . واسأل الرب ان يجنبني ان اجربك هكذا تحت ستار من الرياء الكاذب والنفاق المخـادع ... وارجو ان تغفري لي ان الحكاية (في رأيي) تتحدث عن قسوة بالغة العنف ، بعيدة عن منطق العقل . واعلمي ان وقائع القصة لم تحدث كما رويت ، ولكن القصة ارادتها كذلك ولم ارد انا أن اصححها او اغير فيها طالما كان الذي ابتكرهـا انساناً أحكم مني عقلا . ولما كان غيرك قد قرأ القصة رغبت ان تقرأيها أنت حتى تلمي بمعرفة كل شيء ، وحتى تستطيعي ان تتحدثي عن كل شيء كما يفعل غيرك من النساء . »

وزيادة على ما تقدم ، وبالرغم من المثل الأعلى للخضوع والطاعة الذي وضعه المدبر أمام زوجته الشابة لتحتذيه ، فقد استطـاع ان يتحدث عن الحب حديثاً ممتعاً وهو يتحسر على شبابـه المولي ، وشيخوخته المتقدمة ، وان كانت شيخوخة فرحة ، غير عابسة ولا منكدة . ولعله كان يتحدث عن الحب وهو يحدق ، بعين بصيرته ، فيرى ذلك الزوج الشاب الذي سينعم بعروسته الصغيرة في المستقبل :

« اعتقد ، واقسم باسم الرب على ما أقول ، بأنه عندمـا يتزوج

شخصان شريفان ، خيّران يطرح كل حب عدا حب بعضهما بعضاً، بعيداً ، ويفنى وينسى . واعتقد بانه عندما يكونان في حضرة بعضهما فانهما ينظران الى بعضهما اكثرمما ينظران الى الآخرين . وتراهما يمسك احدهما بيـد الآخر ، ويتعانقان . ولا يكلمان ، عن طواعية ، الا بعضهما ، ولا يشيران الا الى بعضهما . وعندما يفترقان يظل احدهما يفكر في الآخر ويقول في ذات نفسه : عندما التقي به ساقول له كذا وكذا ، وسأفعل به كذا وكذا ، وسأستعطفه بخصوص هذا وذاك . وان لذتهما الخاصة كلها ، ورغبتهما الرئيسية وفرحهما التام ، هي ان يطيع احدهما الآخر، ويستسلم، ويدخل الفرحة الى نفسه .هذا اذا كان أحدهما يحب الآخر حقاً . »

على ان القسم الاكبر من كتاب « مدبر البيت » لا يعنى باللطائف النظرية القائمة على خضوع الزوجة لزوجها ، وانما يبحث في راحة نفسه وحسب . وانّ النصائح والتوصيات التي يقدمها للزوجة لتجعل زوجها مرتاحاً ، مطمئن البال ، لتنبض بالحياة . وتشع في هـذه النصائح والتوصيات ، الى جانب هذا ، روح بسيطة ، ساذجة ، مؤثرة ، لا يمكن وصفها . وتخبرنا هذه النصائح عن الحياة الحقيقية لزوجة ثري مدني احسن مما تستطيع ان تخبرنا به مائة قصة من امثال غريزيلدا الصبور ، او جيهان لاكوينتين . تمعّن في هذه القصة التي هي خير نتاج نموذجي لخيال الرجل ، والتي تروي حياة ذلك الكادح البدين الذي لوحته الاجواء المختلفة والذي كان يسعى سعياً نبيلا وسط كل انواع المتاعب للحصول على رزقه ورزق عياله، يقوي من عزمه، ويشد أزره ، تذكره زوجته الصغيرة الاليفة ، وهي ترفأ جوربه في البيت قرب الموقدة ، وتعد نفسها لتغمر بعنايتها واهتمامها بطلهـا

المتعب المنهوك في المساء . والفقرة التالية مثال رائع على اسلوب المدبر البسيط ، النابض بالحياة ، وعلى طريقته في استخدام الحوادث المستمدة من الحياة اليومية ، ليشرح بوساطتها رأيه . وطريقته هذه هي من اهم عناصر الروعة والفتنة في هذا الكتاب .

« اذا وجدت ابنتها الاخت الجميلة ، زوجاً آخر من بعدي ، فاعلمي انه يجب عليك ان تهتمي براحته كثيراً ، فعندما تفقد المرأة زوجها يصعب عليها ، عادة ان تجد زوجاً يناسبها طبقة ومقاماً ، وتظل وحيدة مستوحشة ، كئيبة الفؤاد ، مدة طويلة من الزمن .(١) وانها لتعاني اشد من هذا اذا ما فقدت زوجها الثاني . وعلى هذا عليك أن تعزّي شخص زوجك وتهتمي به، وتراعي حاجاته باهتمام . وارجو منك ان تبقيه نظيف الثياب دائماً ، فان ذلك من جملة وظائفك ولما كان امر العناية بالشؤون الخارجية موكولا الى الرجال ، فعلى الزوج ان يعي ذلك ويهتم به ، فيذهب ويعود ويسافر هنا وهنالك ، تهطل عليه الأمطار ، وتصفعه الرياح ، ويقاسي من البرد والثلج ما يقاسي . بحيث نجده تارة مبلل الثياب ، وتارة جافها ، تارة يتفصد عرقاً ، وتارة يرتجف برداً ، ويعاني من رداءة الغذاء وسوء السكن ورثاثة الفراش والبرد ما يعانيه . غير ان شيئاً من هذا لا يضيره ولا يؤذيه . لان امله بعناية زوجته به عند عودته ، وبما ستقدمه له من الراحة والدعة والملذات والافراح ، أو تأمر بتقديمها له في حضورها، يقوي عزيمته ، ويسنده في الشدائد ، ويعينه على تحمل الصعاب . يعود الزوج الى بيته متعباً ، منهوك القوى ، فتخلع زوجته حذاءه امام مدفأة متأججة النيران ، وتغسل قدميه ، وتعطيه جوربا نظيفاً ،وتقدم

---

(١) الظاهر انّ هذا مما ينافي الواقع ، ولا تثبته التجارب .

له طعاماً وشراباً ، وتخدمه بعناية وتسهر على راحته باخلاص . ثم تقوده الى فراش نظيف الشراشف ، وتضع على رأسه طاقية نوم جيدة الصنع ، وتغطيه بالفراء الدفيء . وتغمره بغير ذلك من الافراح والمسرات والملذات والسرائر ، والحب والاسرار التي أقف حيالها ساكتاً فاذا اصبح الصباح قدمت له قميصاً وثوباً نظيفين . يقيناً ، ايتها الاخت الجميلة ، ان مثل هذه العناية والخدمة مما يجعل الزوج يحب بيته ، ومما يرغبه في العودة اليه ، ولقاء زوجته الصالحة فيه ، ويجعله يطلب الابتعاد عن كل امرأة سواها .

وانصحك بناء على ما تقدم ان تكوني دائمة البشاشة لزوجك في جميع غدواته وروحاته ، دائبة عليها . وانصحك كذلك ان تكوني مسالمة معه ، بعيدة عن كل ما يجلب الشجار ، ويقود اليه . وتذكري المثل الذي يقول : ثلاثة تبعد الرجل الصالح عن بيته: سقف واكف ومدفأة داخنة وزوجة طويلة اللسان معنفة . لاجل ذلك اطلب اليك، ايتها الاخت الجميلة ، ان تكوني مع زوجك محبة ، وديعة ، دمثة الاخلاق لكيما تنالي محبته وعطفه وعنايته . واصنعي له ما تزعم نسوتنا الصالحات الساذجات انه قد صنع لاولادهن عندما تتعلق قلوب بعض الاولاد بنساء غريبات تقول امهاتهم الصالحات الساذجات حين يفشلن في كسب عطفهم واسترجاع قلوبهم — ان اولئك النسوة قد سحرن الاولاد سحراً امتلكن به قلوبهم . عندما يتوفى الام والاب ، وتقوم زوجات الآباء وازواج الامهات ، بمناقشة ابناء ازواجهم ويعنفونهم ، ويردعونهم ولا يعنون بنومهم ولا بطعامهم وشرابهم ، وجواربهم وقصانهم وبغير ذلك من حاجاتهم وشؤونهم — اذا ما وجد هؤلاء الاولاد بيتاً حسناً ، ورعاية جميلة ، عند امرأة تستقبلهم استقبالا

حسناً ، وتعنى بتدفئة معدهم الخاوية بعصيدة ساخنة ، وتعطيهم فراشاً وتبقيهم نظيفين مرتبين ، وتصلح لهم جواربهم وسراويلهم وقمصانهم وما الى ذلك من ملابسهم ، مالوا اليها دون شك وتعلقوا بها ورغبوا في البقاء الى جانبها ، وفي النوم الدافىء في احضانها . ويصبحون غرباء عن آبائهم وامهاتهم الذين لم يفكروا بهم في السابق والذين يودون الآن استرجاعهم ويتمنون عودتهم . على ان هؤلاء الاولاد قد لا يعودون ابداً . فهم يتمسكون بعشرة الغرباء الذين يفكرون بهم ويسهرون على راحتهم اكثر مما يتمسكون بآبائهم وذوي قرباهم الذين لا يعنون بهم . ثم يتفجع الاباء وينوحون ويبكون ويقولون ان هؤلاء النسوة قد سحرن ابناءهم، وان ابناءهم قد اصبحوا «ممسوكين» لا يستطيعون فراق ساحراتهم ، ولا يجدون الطمأنينة والراحة الا اذا عاشوا في كنفهن . ولكن مهما قيل في هذه القضية ، فالحقيقة انه لا لا دخل للسحر فيها . وكل ما هنالك ان هؤلاء النسوة قـــد ملكن قلوب هؤلاء الصغار بما اسبغنه عليهم من الحب والعناية والمودة والمسرات والافراح . واقسم بحياتي انه لا يوجد في الامر سحر غير هذا ... بناء على هذا ايتها الاخت العزيزة ، ارجو منك ان تسحري زوجك كذلك وتعاودي سحره . واحذري من السقف الواكف والنار الداخنة ، ولا تعنفيه ابداً . وكوني معه لطيفة وديعة محبة دمثة الاخلاق . واجهدي في ان تهيئي له في الشتاء ناراً دافئة دون دخان ، ودعيه ينم جيداً ودفئيه بين احضانك جيداً ، وبهذا تسحرينه ... وكذلك سوف تحفظينه وتحمينه من جميع المنغصات والمزعجات وتعطيه ما في طاقتك ان تعطيه من الراحة والطمأنينة والرخاء ؛ واخدميه جيداً ، وأمري ان يخدم جيداً في بيتك ، وأملي بعد ذلك ان يعنى

بالشؤون الخارجية عناية جيدة . فاذا كان هو رجلا صالحاً بذل في هذه الشؤون عناية اعظم ، وتحمل ستقات اشد مما تأملين منـــه ان يحتمل . واذا صنعت ما أقول لك تجعلينه يفتقدك دائماً ، ويحن اليك ويمنح قلبه لك ولبيتك ولهذه الخدمات المحببة التي تقدمينها له . اذا فكرت فيه ، كما قلت لك آنفاً اصبحت انت وحـــدك شغل قلبه وأصبح كل شيء سواك لا شيء في نظره... وهكذا سيفكر الازواج بزوجاتهم وهم على الطريق لا يزعجهم من مشقاتها شيء ، بسبب ما يضمرونه لزوجاتهم من حب وما يأملونه منهن ، زوجاتهم اللاتي يحنون اليهن كما يحن النساك الفقراء والخطاة التائبون والرهبان الصائمون الى رؤية وجه يسوع المسيح . والازواج الذين يحظون بهذه الخدمة ويعاملون هذه المعاملة ، لا يفضلون على بيوتهم مسكناً ولا يرغبون في صحبة اية جماعة عدا صحبة ازواجهم . وتبدو لهم جميع المحلات ، اذا قورنت ببيوتهم فرشاً من الحجارة . »

لعلنا قد اقتبسنا من كتاب المدبر ما فيه الكفاية لتوضيح رأيه في الزوجة الكاملة . أما رأيه في ربة البيت الكاملة فقد ضمنه عدداً من النصائح والتوصيات يجد القارىء في قراءتها متعة فائقة . ويبدو المدبر في الفصل الذي عقده لتدبير الخدم وسياستهم ، سواء كان في وصفه لاساليبهم في العمل او في نصائحه في كيفية معاملتهم ، عصري التفكير واقعي اللهجة بحيث يصعب على القارىء ان يحس لاول وهلة ان ما يقرأه قد كتبه سري باريسي عجوز قبل ما يزيد على الخمسة قرون. كان للمدبر ، على ما يظهر ، عدد كبير من الخدم والمعاونين ، وكان له في اغلب الظن داران : دار في الريف ودار في المدينة ، إذ يتكلم مرات عديدة عن مراقبة العمال في الحقل ويقول : « عندما تكونون

في القرية » . وقد وضع في البيت عدداً من المعاونين ليساعدوا زوجته في تدبير أمور خدمه العديدين وادارتهم . وكان عنده كبير للخدم يدعى السيد جون الوكيل ، وقهرمانة عجوز تدعى دام اغنيس لابيغوين ، (١) كانت تجمع بين الاشراف على تدبير المنزل وبين مراقبة سيدتها الشابة وحراستها ، وملاحظ أو مقدم للعمال ، يشرف على الحقل ويعني بتدبير شؤونه . ويقسم المدبر خدمه وعماله الى ثلاث طبقات : وتتألف الطبقة الاولى من العمال المستأجرين باليومية او فصلياً لاداء اعمال معينة خاصة كالبوابين والحمالين والحصادين والمذرّين وصناع البراميل ومن اليهم . وتتألف الطبقة الثانية من العمال الذين يشتغلون بحسب القطعة كالخياطين والفرائين والخبازين والحذائين الذين الذين كانت الاسر الغنية في العصور الوسطى تستأجرهم ليصنعوا ما تحتاجه من مواد اولية تشتريها من الاسواق العامة في المواسم او من حوانيت المدينة . وتتألف الطبقة الثالثة من خدم الدار العاديين وهم مستأجرون سنوياً ، ويعيشون في دار سيدهم . يقول المدبر « لا تجد بين هؤلاء جميعاً من لا يسعى مسروراً للحصول على عمل وسيد . » ويعطينا المدبر صورة مسلية ممتعة ، لا شك في انها مبنية على تجارب مريرة ، عن حيل العمال الاجراء . فهو يقول : انهم عموماً كسالى شرسون ، غلاظ الجواب ، متعجرفون ، سريعون الى توجيه الاهانة اذا لم يرضوا عن اجرهم . وهو يوصي زوجته بأن تأمر السيد جون بأنْ يستأجر دائماً المسالمين وان يساومهم دائماً مقدماً على الاجور التي

---

(١) كان البيغوينيات The Béguines يؤلفن طغمة دينية ، او بتعبير ادق يؤلفن أخوية نسائية زمنية تقف في منتصف الطريق بين الحياة الزمنية وحياة الرهبنة ، وتشبه الاخوية الثالثة في الرهبنة الفرنسيسكانية .

يتقاضونها لقاء الاعمال التي يعهد بها اليهم : « واعلمي انهم في غالب الاحيان ، لا يحبون المساومة ، بل يرغبون في العمل دون اية مساومة قائلين بتلطف : « سيدنا : العمل تافه ولا حاجة بنا للمساومة والمفاضلة . ستعطينا اجوراً جيدة وسنرضى نحن بما تعتقده انت مناسباً . » فاذا اقتنع السيد جون بقولهم هذا فانهم سيقولون له بعد انتهاء العمل : « سيدنا : كان العمل أكثر مما نتصور . فقد كان علينا ان نعمل هذا وذاك ، وان نشتغل هنا وهناك . » ولن يرضوا ان يأخذوا ما يعطى لهم ولسوف ينفجرون صائحين ، صارخين بألفاظ غضبى ... ولسوف يذيعون الاقاويل الخبيثة عنك ، وهذا هو اسوأ ما في الامر كله »

نحن نعلم ، من القوانين المتعددة التي اصدرت لتحديد الاجور منذ « الموت الاسود » فصاعداً ، بأن مشاكل العمال كانت حادة في فرنسا وفي انكلترا في نهاية القرن الرابع عشر . وتلقي وصايا المدبر اضواء جانبية منيرة على تلك الظروف .

على ان حكمة « الحية » لا تظهر في شيء ظهورها في ملاحظاته حول استخدام الخادمات وسياستهن . وهو يعطينا في بحثه هذا ، دون قصد ، صورة عن كيفية التعاقد مع الخدم في باريس في القرن الرابع عشر . وتبين هذه المعلومات ان مكاتب التسجيل والتحقق من شخصيات الخدم ليست ظاهرة عصرية ، فقد كان في باريس ، في ذلك الحين ، نساء يملكن مكاتب للتسجيل وقد سمح لهن القانون الصادر عام ١٣٥١ (لتحديد الاجور عقب « الموت الاسود ») ان يتقاضين شلناً ونصف الشلن لقاء تعيين خادمة او وصيفة ، وشلنين عن تعيين مربية او مرضعة . وكانت اجرة الخادمة . في ذلك الحين ،

ثلاثين شلناً وحذاء في السنة . واليك ما يقوله المدبر لزوجته عن هذا الموضوع الحساس ، موضوع مقابلة الخادمـــات والخدام ، واصول استخدامهم :

« اعلمي ايتهـــا الاخت العزيزة ، بانني قد فوضت اليك امر اختيارهمبوساطة دام اغنيس البغونية او بوساطة من ترغبينمن النساء وذلك لكيما يطيعونك خير طاعة ، ويخشون اغضابك اعظم خشية . وخولتك سلطة قبولهم في خدمتنا واستخدامهم كما تهوين ، ولك ان تدفعي لهم اجورهم وتبقيهم في خدمتنـــا كما ترغبين وتطرديهم حينما تشائين . ولكن يجب عليك مع ذلك ان تطلعيني على جلية الامر على انفراد وان تعملي بحسب مشورتي فانت ما زلت صغيرة السن عرضة لانيغشك من هم في خدمتك . واعلمي ان كثيرات من الخادمات الوصيفات ، اللاتي لا عمل لهن، يتهالكن على العمل تهالكاً . فهن يعرضن انفسهن للخدمة بالحاح ويسعين سعياً حثيثاً للدخول في خدمة اي سيد وسيدة . فلا تقبلي من هؤلاء احداً الا بعد ان تعرفي في خدمـــة من كانوا آخر مرة ، وابعثي بعض خدمك يتحققوا لك من هوياتهم وشخصياتهم : هل هم من المسرفين في الكلام والشراب ؟ وما هي المدة التي قضوها في المحل ؟ وما هو العمل الذي اعتادوا القيام به ؟ وما هو العمل الذي يستطيعون القيام به ؟ وهل لهم بيوت أو اصدقاء في المدينة؟ ومن اية ناحية من القطر جاءوا ؟ والى اي صنف من الناس ينتمون ؟ وكم من المـــدة قضوها هناك ؟ ولماذا هجروا الخدمة ؟ فباطلاعك على اعمالهم في الماضي تعرفين مقدار ما يجب ان تأمليه منهم من العمل في المستقبل . واعلمي ان امثال هؤلاء النسوة في اغلب الاحيان ، قـــد أتين في مواطنهن اعمالا استحققن عليها

اللوم ، وهذا ما يحدوهن على الخدمة في الاماكن البعيدة ، والمناطق النائيـــة .

فاذا وجدت ــ من تقرير سيد او سيدة او من تقرير الجيران ومن اليهم ــ ان الفتـــاة ملائمة لمطلبك ، وافية بحاجتك فاسأليها (واطلبي من السيد جون ان يدون ذلك في سجـــله) اليوم الذي استخدمتها فيه ، واسمها واسم ابيها وامها واي شخص من ذوي قرابتها ، واسم المحل الذي يسكنون ، ومحـــل ولادتها ، وعناوين معارفهـــا . فالخادمات يخشين ان يؤذينك اذا علمن بانك تسجلين عليهن هـــذه الامور جميعاً ، واذا علمن بانك ستكتبين الى حاكم منطقتهن او الى اصدقائهن ، اذا ما تركن العمل دون ترخيص او اذا اتين بعمل اجرامي . وعليك ان تتذكري ما قاله الفيلسوف المدعو برتراند العجوز . لقد قال ذلك الفيلسوف : اذا استخدمت خادمة متعجرفة سليطة اللسان فاعلمي انها ستسيء الى سمعتك ما استطاعت إلى ذلك سبيلا . واذا كانت على العكس من ذلك ، مناققة ، مجاملة اللسان ، فاحذريها ولا تثقي بها ، فانها متآمرة مع شخص آخر على خداعك . اما اذا كانت حيية صامتة يحمر وجهها خجلا عندما تنصحينها وتصلحين اخطاءها فاحبيها كما تحبين ابنتك . »

ونصائح المدبر بخصوص تدبير الخدم بعد استخدامهم ، واقعية عملية كذلك . فهو يرى انـــه يجب ان يسود النظام التام ، وان تمنع المشاجرات ، والألفاظ النابية ، وان تصان الاخلاق أدق صون . ويجب ان يعين لكل خـــادم او خادمة عمله بدقة ، وان يطلب اليه انجازه على اكمل وجه واسرعه . « اذا امرتهم ان يقوموا لك بخدمة ما

وكانت اجوبتهم هكذا : « الوقت متسع لاداء العمل او سنعمله غداً»
فاعتبري امرك منسياً كأنك لم تصدريـــه وعليك ان تعيديه عليهم من
جديد . واذا طلبت من الخدم عامة ان يؤدوا لك عملا فاعتبري امرك
منسياً كذلك لان كل واحـــد منهم ينتظر من الآخر ان ينجز العمل
بدلا منه » . ولا ينتظر من ربة البيت ـ تساعدها السيدة اغنيز التي
وضعهـــا المدبر في صحبة زوجته لتعلمها السلوك الناضج الحكيم
ولتخدمها وتنصحهـــا ـــ ان تراقب الخدم وتشرف عليهم فحسب ،
وانما عليها ان تظهر اهتمامها بهم ، وعطفها عليهم، وان تعنى بصحتهم
وسعادتهم ايضاً . وعليهـــا كذلك ان تقدم لهم في الوقت المناسب
وجبة شهية من الطعام مكونـــة من نوع واحد من اللحم ، متجنبة
اللحوم الدسمة ، ومن صنف واحد من الشراب ينعش ويغـــذي ولا
يسكر (الكأس التي تنعش وتفرح دون ان تثمل وتسكر). واغلب
الظن ان البيرة الخفيفة كانت الشراب الشائع في العصور الوسطى .
وعلى ربة البيت ان تحثهم على ان يأكلوا ويشربوا ولكن :

« حالما يبدأون في رواية القصص ، او يأخذون بالجدل والنقاش
أو يعمدون الى الاتكاء على الموائد بمرافقهم ، اطلبي من السيدة اغنيس
ان تأمرهم برفع الخوان والانصراف . فللعامـــة هذا القول المأثور :
« متى أخذ الخادم يتحدث على المائـــدة، والحصان يرعى في الخندق،
فقد شبعا ، وحان وقت انصرافهما . »

ويجب ان يتناول الخدم مساء ، بعد انتهائهم من اعمال بعد الظهر،
وجبة أخرى من الطعام أشهى . ولهم في الشتاء ان يصطلوا بالنار
ويرتاحوا كما يشاءون. ثم تقوم ربة البيت بغلق ابواب الدار وغرفها،
وتبعث بالخدم جميعاً الى النوم. » وعليك ان تعملي أولا على ان يكون

لدى كل خادم شمعدان يضع فيه شمعته الى جانب فراشه . وعليك ان تعلميهم بحكمة ان يطفئوا الشموع قبل ان يأووا الى مضاجعهم ، بأفواههم ، او بأيديهم ، وليس بقمصانهم . وانصحيهم كذلك وعلميهم ان يستيقظ كل واحد منهم في الصباح مبكراً ويؤدي عمله المعين له » .

وينصح المدبر زوجته كذلك ، بخصوص الوصيفات الشابات اللاتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة عشرة والعشرين ، ويخبرها بأنهن حمقاوات لا يعرفن العالم ، ولم يختبرنه . وان عليها ان تجعلهن ينمن في غرفة مجاورة لغرفتها لا توجد في سقفها كوة وليس فيها شباك واطىء يطل على الشارع . وعليها ان تجعلهن ينمن ساعة نومها ، ويستيقظن ساعة استيقاظها . ثم يضيف المدبر : « وعليك ، وقد اصبحت الآن حكيمة عاقلة باذن الله ، ان تبقيهم الى جانبك . » وزيادة على ما تقدم ، اذا مرض احد الخدم او الخادمات « فعليك انت ان تطرحي كل عمل ومشغلة وتعني به او بها بحب ورحمة وحنان ، وان تعوديه وتهتمي بدراسة احسن الطرق لتعجيل شفائه . »

وربما كان المدبر بتمثيله وظيفة « مسز بيتون » ، اكثر ما يكون تسلية وامتاعا . وتبدو معرفته المتنوعة الغنية بشؤون الخدم في هذه النصائح العارضة التي قدمها اثناء وصفه للاجراءات التي يجب ان تتخذها الزوجة في سبيل راحة سيدها ، وحديثه عن اعمال الخدم . فهنالك تعليمات مفصلة بشأن الثياب الثمينة التي كانت تلبس في القرون الوسطى ، سنة بعد سنة على مدى العمر ، ويوصي بها مالكوها ، غالباً ، لأناس آخرين بعد وفاتهم . وتعليمات بخصوص تنظيف الثياب

والفراء وحفظها من العث. وكذلك توصيات بخصوص ازالةاللطخات والبقع الدهنية . ويعطى المدبر سبع طرق لازالة البقع الدهنية ، ولكنه يشك في امر اثنتين منها نقلهما من كتاب ولم يجربها بنفسه . وقد جاء في احدى هذه الوصفات ما يلي : « اذا اردت ان تتخلصي من بقعةفي ثوب من الحرير او الاطلس او الدمقس او غير ذلك من الاقمشة ، فاغمسى البقعة في عصير الحصرم واغسليها به تزل البقعة ، حتى وان أدى ذلك الى ان يبهت لون الثوب فانه يسترجعه. على انني لا اؤمن بهذا ولا اصدقه. » ومهما كان الامر، فإنأهم انطباع يبقى لدينا هو ان الزوجة في العصور الوسطى كانت تخوض حرباً طاحنة مستمرة ضد البراغيث . فمن القواعد البينات التي وضعها المدبر للزوجة، كيما تجعل رجلها سعيداً، في البيت، هي ان تعد له ناراً جيدة الوقود في الشتاء ، وفراشاً خالياً منالبراغيث في الصيف. وهو يقدم ست طرق للتخلص من هذه الحشرات الصغيرة التي كانت تعذب آباءنا الاولين عامة :

« اجتهدي في ان تكون غرفتك وفراشك خاليين من البراغيث في الصيف . وتستطيعين ان تحققي ذلك باتبـاع طرق ست سمعت من الناس عن فوائدها . فقد سمعت من اشخاص عديدين بان الغرفة اذا فرشت باوراق الحور الرومي ، علقت البراغيث بهذه الاوراق فأمكن مسكها . وقد سمعت بأنك اذا وضعت في غرفة النوم قصعة مملوءة بالمخّيط ، او الدبق او التربنتين ووضعت في وسطها شمعة موقدة فان البراغيث تهرع اليها وتعلق بالسائل الدبق . وطريقة اخرى وجدتها صادقة هي هذه : خذي قطعة من القماش الخشن الغليظ وانشريها على الفراش . فاذا تقافزت البراغيث ، وسقطت على قطعة القماش علقت بها ، وبامكانك حينذاك ان تطوي هذه القطعة وتحملي البراغيث الى

حيث تشائين . وكذلك جلود الغنم . وقــد رأيت ايضاً حرامات بيضاء تنشر على القش وعلى الفراش ، حــتى اذا قفزت البراغيث السود عليها ، امكن رؤيتها بسرعة، فتقتل على الحرام الابيض لتوها. ولكن احسن هذه الطرق ان يحرس الانسان نفسه من البراغيث المختبئة في الاغطية، والفرو والحشايا. وقدجربت ذلك بنفسي، اذ عندماتطوى الاغطيةوالملابس والفراء التي يوجد فيهابراغيث طياًجيداً، وتوضع في صندوق محكمالغلق، مغطى بالورق وتضغط فيه ضغطاً محكماً بحيث تبقى البراغيث المتقدم ذكرها سجينة بدون ضياء اوهواءفانها تهلك من توها وتموت في الحال .»

وكان على الزوجة ان تشن حرباً عوانا اخرى على الذباب والبعوض التي كانت تحيل الصيف الى فصل تعاسة وشقاء . يقول المدبر « لقد رأيت أحياناً في غرف نوم عديدة ان الشخص عندمــا يأوي الى الفراش يجده مليئاً بالبعوض الذي ما ان يتنسم أنفاس النائم حتى يجثم على وجهه ويلسعه ويضطره للنهوض من نومه ومغادرة فراشه ، ليوقد من القش والتبن ناراً يطرده بدخانها . » وللمدبر ضد هذه الجائحة المضايقة ست وصفات بينات منزهة عن الخطأ . منها : وضع ناموسية فوق الفراش . وتعليق عدد من اغصان الخنشار (السرخس) ليجثم عليها الذباب . ووضع وعاء مملوء بمزيج من الحليب وصفراء الارنب او بعصير البصل الفج ، وهذا السائل كاف لقتلها . ووضع قنينــة تحتوي على قطعة من القماش مغموسة بالعسل، او تعليق خيط مغموس بالعسل . واستعمال المذبات لطرد الذباب . وغلق للنوافذ والشبابيك غلقاً محكماً بقماش مغموس بالزيت ، او بالجلد الرقيق .

امــا القسم المخصص للطبخ والذي يحتوي على توصيات المدبر بخصوص «علف الحيوانات » فهو اطول أقسام الكتاب، وهو يعطينا

صورة رائعة عن الاقتصاد البيتي لاسلافنا . ويجب ان يكون المدبراخاً لفرانكلين ، « ابن ايقورس نفسه » الذي تحدث عنه تشوسر ، قائلا:

كان سخي الكف ، معطاء ، كأنه القديس جوليان
ترحب مائدته بالقاصي ، من ابناء البلاد ، وبالداني .
ولم يكن لخبزه وبيرته شبيه في الاكوان .
ولم يكن عند احد من الناس خير من نبيذه .
ولم يكن بيته ليخلو من فطائر اللحم ومن السمك واللحوم
فقد كان عنده منها الكميات العظيمة ،
ولقد كانت داره ، حقاً، تمطر لحماً وشراباً ،
وكانت تحوي كل الطيبات التي تخطر على بال انسان .
وكانت ألوان الطعام تتغير على مائدته
بحسب تغير الفصول .
وكانت حظيرته ملأى بالحجل السمان
وبركته تضج بالابرميس وسمك الكراكي (١)
والويل للطباخ الذي لا تحرق «صلصاته» اللسان
أو الذي لم يستعد لتحضير اي لون من ألوان الطعام .
وتنتصب مائدته ، في ردهة الدار ، كاملة العدة
على استعداد لاستقبال الضيفان
في كل آن .

ومما يجلب نظر القارىء في هذا القسم ، وفي كل كتاب طبخ وضع في القرون الوسطى ، الوصف المفصل للولائم الكبيرة ، بما فيها من

---

(١) Breem الابرميس ويسميه المصريون شلبة . وPike وهو سمك الكراكي . (المترجم) .

ألوان الطعام المتعددة، واللحوم الدسمة المشبعة بالتوابل والأفاويه. ففيها الفطائر السود والمقانق ولحوم الغزلان والخنازير والخنكليس والرنجة والسمك البحري المدور والسمك البحري المسطح . وفيها شوربة الخضر المعتادة المتبلة وغير المتبلة ، والشوربة المطبوخة باللحم ، والشوربة المطبوخة بدون لحم ، وفيهـــا اللحوم المشوية والمعجنات ، والمخللات والمرق المطبوخ وغير المطبوخ ، وفيها اصناف الشوربة وألوان الاشربة غير الروحية للمرضى . وتبدو لنا بعض هذه الاطعمة اليوم شهية مستساغة على ان بعضها قـــد يخرب جهازنا الهضمي المنحط . فقد كانت الصلصات المتبلة الحادة المصنوعة من الخل وعصير البصل والنبيـــذ مفضلة كثيراً في تلك الايام . ويظهر القرنفل والقرفة ، والسعد ، والزنجبيل ، والفلفل على غير انتظار ، في ألوان الطعـــام المطبوخة باللحم . اما اللوز فقد كان العنصر المفضل في كل ألوان الطعام ، كما هو الحال الان في الصين وغيرها من الاقطار الشرقية حيث يستعمل اللوز في الطعام اكثر من استعماله في الاطعمة الاوروبية الحديثة . ولم ينس المدبر وهو ابن قومه البار ، ان يذكر وصفات لطابخ الضفادع والبزاق . وقد تبدو بعض تعلياته غامضة بعض الشيء للطباخ الحديث كأن يوصي طباخه بان يغلي شيئاً ما مدة من الزمن تعدل المدة التي ستغرقها تلاوة « أبانا .. » أو « ارحمني يا رب انا البائس » ولكن أكان من المستطاع ان يعطي المرء أوضح من هذه الاشارة في عصر متدين ، وفي مطبخ لم يعرف استعمال الساعة ؟ وهي على كل حـــال ليست اسوأ من « اطبخ في فرن ساخن » التي ما تزال تجد لها مكاناً في كثير من كتب الطبخ الحديثة التي يفترض فيها ان تكون اكثر معرفة واطلاعاً . اما التعليمات الاخرى فمفصلة تفصيلا وافياً . وهو يعطينا ،

في فصل قيم قائمـــة باسماء جميع اسواق االحوم في باريس ، مع عدد الجزارين الموجودين في كل سوق ، وعدد الغنم والثيران والخنازير والعجول المباعـــة كل اسبوع في دور الملك والمملكة وابناء العائلة المالكة ودوقات اورليانس وبري وبرغندي وبربون . ويتكلم في موضع آخر ، عن اسواق اخرى : سوق الحليب ، وسوق الحطب والفحم ، وباب باريس وهو ليس سوقاً للحوم فحسب وانمـــا هو احسن المحلات لبيع السمك والملح والاعشاب والاغصان الطرية لتزيين الغرف .

وقد وصف المدبر، زيادة في ارشاد زوجته وحرصاً على تعليمها، عدداً من الولائم الكبيرة ، وطرق اعدادها ، وصفاً دقيقاً مفصلا . مثال ذلك وليمة غداء اقـــامها رئيس دير لاتيني لاسقف باريس واعضاء مجلس الملك . ووليمة الغداء والعشاء الـــتي اعدها المدعو الياس (وهو ، ولا شك ، رئيس خدم في فندق (١) ، وقور متزمت كالسيد جون الوكيل نفسه) بمناسبة زواج جان دوشيسن في يوم ثلاثاء من ايام ايار. وتنظيم حفلة زواج آخر في شهر ايلول. وقد علق المدبر على هذا الزواج الاخير بما يلي: «بما انهما كانا ارملين فقد تزوجا مبكراً وهما في ثيابهما السوداء ، ثم ارتديا ملابس اخرى غيرها .» وقد كان المدبر حريصاً على ان تسلك زوجته السلوك الصحيح في زواجها الثاني. ووصف مأدبة الزواج التي نظمها السيد الياس مفصل وقيّم. وقد وضع المدبر المدقق وصفاً مطولا لقائمة الطعام في الغداء والعشاء، ولجميع المواد المطلوبة للطعام مع كمياتها واسعارها، واسماء الحوانيت والاسواق التي تبتاع منها، بحيث

---

(١) Maitre d'hotel

يستطيع القارىء ان يتخيل رئيس الخدم والطباخ وهما يتنقلان من حانوت الى حانوت ، مارين على حانوت الجزار ، والخباز ، وبائع الطيور الداجنة ، وصانع الصلصات ، وصانـــع الرقائق والفطائر والمعجنات ، الاثيرة عند سيدات العصور الوسطى ، وحانوت العطار التي تعبق بالعطور الشرقية القوية الرائحه . وربما فصل المدبر كل ذلك تفصيلا لانه كان يتوقع ان يولم بعض الولائم الكبيرة لنبلاء واغنياء باريس . وربما فعل ذلك لمجرد اهتمامه بكل التفاصيل المتعلقة بالناحية المادية من الحياة .

ويذكر المدبر ايضاً جميع الخدم والسقاة والنـــدل الذين ينهضون بخدمة مثل هـذه المأدبة الكبيرة . فهنالك رئيس الطهاة السمين وهو يسير «رافع الرأس، مستعداً للخدمة» كأنه الملكة اليصابات وهي ترقص. يسير ورأسه مليء بوصفات من الوان الطعام اللذيذ ، ويده يد صناع، رائعة الخفة ، في صنع المعجنات والفطائر ، وانفه وعينـه ماهران في معرفة متى يتم نضج الديك . انه مطلق الصلاحية ، معـــدوم النظائر والمنافسين في غلي الفراخ مع العظام .

ووضع التوابل معها .....

لقد كان باستطاعته ان يشوي ويقلي ويغلي .

ويهـيء يخنه ويصنع الفطائر .....

اما الحلوى فقد صنعها على خير ما تصنع .

وكان يصحب خدامه ومعاونيه معه . وكان يتقاضى في باريس فرنكين على اتعابه ومنحة سخية . وهنالك ايضاً معرفون وأدلاء وحجـــاب « ضخام ، اقوياء » يلازمون الابواب ، وكاتب يدون

الحساب . وخدم يقطعون الخبز وغيرهم يحملون الماء . وخادمان يشرفان على مناولة الصحون والاطباق من صوانها في المطبخ . وخادمان يقدمان الملاعق وكؤوس الشراب والخمر للضيوف . وخادمان آخران ينقلان النبيذ الذي يغرفه لها خادم من الدنان . وهنالك رئيسا الخدم الاثنان يقومان بتنضيد المملحات الفضية ، والكؤوس الاربعة المذهبة ، والاقداح الثمانية والاربعين ، والملاعق الفضية الثمانية والاربعين ، والاقداح من ذوات العرى والجرار واطباق الحلوى ، على المائدة المرتفعة ويرشدان كل ضيف الى موضعه من المائدة . وهنالك رئيس للسقاة وخادمان لكل مائدة . وفتاة تصنع أكاليل الزهور للضيوف ونسوة يعنين بشراشف الموائد ، ويهيئن فراش الزوجين ، وغسالات . وكانت الارض مفروشة بالبنفسج والاعشاب الطرية الخضراء . وكانت الغرف مزينة بأغصان ايار (قد اشتريت جميعها من السوق في الصباح الباكر) وكان هنالك عدد كبير من المشاعل والشموع : شموع صغيرة تنتصب قائمة على الموائد ، ومشاعل ضخمة تنتصب مرتفعة على الجدران ، او يحملها الضيوف وهم يسيرون في مواكب . فقد كان العشاء ينتهي «برقص ، وغناء وخمور وتوابل ومشاعل .» ويعطى المغنون ، بهذه المناسبة ، ثمانية فرنكات علاوة على الملاعق والهدايا الاخرى التي تقدم لهم أثناء تناول الطعام . وكان هنالك ايضاً بهلوانات ، وممثلون صامتون يسلون الضيوف . فاذا أراد المدبر ان يولم وليمة فان السيد جون وسيدته الصغيرة لن يضلا بعد هذه المعلومات والارشادات المسهبة ، ولن يقصرا في ارضاء هذا النهم الظريف الذي وضعها لها . ولا شك ان المدبر قد نقل كثيراً من وصفات الطعام من كتب طبخ اخرى . على انه لا بد ان يكون

قد اخذ تفاصيل هذه الوليمة من السيد الياس نفسه . وباستطاعة المرء ان يتصورهما يرنحان رأسيهما الاشيبين فرحاً ، واحدهما يملي والآخر يكتب .

وينتهي كتاب الطبخ بفصل يحتوي على وصفات لصنع ما يدعوه المدبر « اشياء صغيرة ليست ضرورية . » فهنالك ألوان متعددة من المربى مصنوعة ، على الغالب ، بالعسل . ومما لا شك فيه ان الخضر في العصور الوسطى كانت كثيراً ما تعد بهذه الطريقة . فالمدبر يتكلم عن مربى الجزر والقرع واللفت . وهنالك شراب لذيذ الطعم مصنوع من مزيج من التوابل،ومسحوق مصنوع من الزنجبيل والقرفة والقرنفل وحب الهال والسكر ، يرش على الطعام كما يرش السكر في يومنا هذا . وفي هذا الفصل وصفة لصنع الهيبكراس(١) والرقائق والبرتقال المسكّر . وهنالك كثير من النصائح الحكيمة تدور حول الاوقات التي تلائم بعض أصناف الطعام وحول احسن الطرق لطبخها وتقديمها على المائدة . وأكثر هذه الوصفات وصفات لا علاقة لها بالطبخ ، كالوصفات المتعلقة بكيفية صنع الحبر الازرق، وحبر الدمغة (الوسم)، وبكيفية احضار الطيور الصغيرة بالاقفاض، واعداد الرمل للساعات، وصنع ماء الورد وتجفيف اوراق الورد لوضعها بين الثياب (كما توضع الخزامى اليوم) وعلاج وجع الاسنان ، وعضة الكلب المسعور . اما الوصفة الاخيرة فعبارة عن تعويذة تشبه تعاويذ المدبر للخيول : «خذ قطعة من الخبز واكتب عليها ما يلي : + بيستيرا + بستي + ني + بريكوني + ديكتيرا + سغراغان + ايس + دومينا + فيات + فيات

(١) Hippocras

+ فيات + » ويجدر بنا ان نذكر ان الشعب الذي انتج هذه التعويذة قد انتج باستور بعد اربعة قرون .

لقد تكلمنا عن هذا الكتاب الممتع بما فيه الكفاية ليظهر كيف انه استطاع ان يرينا بجلاء ووضوح صورة المدبر ، وصورة زوجته الشابة بعد مضي هذه السنوات الطويلة . فالزوجة الشابة تستيقظ في ساعة مبكرة من الصباح ، اكثر تبكيراً من سيدات عصرنا ، وان كانت أقل تبكيراً من الراهبات اللاتي عليهن ان يصلين صلاة الفجر ، فقد أخبرها زوجها بان هذه الساعة غير ملائمة لان تترك الزوجات فراشهن . ثم انها تغتسل ، أقل كثيراً مما تفعل سيدات عصرنا ، فهي تغسل يديها ووجهها احياناً ، ثم تتلو صلاتها ، وترتدي ثيابها بعناية تامة إذ تعرف العينين اللتين تلحظانها وتقعان عليها . وبعد ان تنتهي من هذه الامور كلها تذهب لحضور القداس بصحبة القهرمانة السيدة اغنيس ، وعيناها مسمرتان في الارض ، ويداها مطويتان على كتاب اصول القراءة الملون . ثم تعود بعد انتهاء القداس الى الدار لترى ما اذا كان الخدم يقومون بأعمالهم وما اذا كانوا قد كنسوا قاعة الدار وغرفها ، ونفضوا الغبار عن الاغطية والوسائد ورتبوا كل شيء باعتناء . ثم تحادث السيد جون الوكيل ، وتأمر باعداد الغداء والعشاء . ثم ترسل السيدة اغنيس لترى الكلاب والطيور « فهذه الحيوانات لا تستطيع ان تتكلم وعليك انت ان تتكلمي بلسانها وتفكري لها ، اذا كان لديك عدد منها . » اما اذا كانت في دارها الريفية فعليها ان تهتم بحيوانات الحقل ، وعلى السيدة اغنيس ان تراقب الاشخاص المسؤولين عنها : روبن الراعي ، وجونسون راعي

الثيران ، وارنولد راعي البقر، وجيهانيتون الحلابة، ويوديلين زوجة الفلاح التي تشرف على حظيرة الدواجن . اما اذا كانت في دارها في المدينة فهي تقوم بمعونة خادماتهـــا ، باخراج ثيابها وفرائها من صناديقها الكبيرة ، وتنشرها في الحديقة او في صحن الدار ، لتتهوى في أشعة الشمس ، وتضربها بقضبان صغيرة وتهزها في الهواء وتزيل عنها البقع واللطخات بواحدة من وصفات المدبر المجربة ، وهي طوال الوقت تتطلع بعيني هر بري الى ما عسى ان يكون فيها من عثّ او براغيث رشيقة الحركة لتنقض عليها انقضاضاً .

وبعد هذا كله يأتي دور الغداء ، وجبة الطعام اليومية ، التي كان آباؤنا يتناولونها حوالي الساعة العاشرة صباحاً . أما ما تقدمه زوجة المدبر لسيدها ، وتاج رأسها، فيتوقف على فصل السنة الذي يكونان فيه وعلى ما اذا كان الوقت وقت صيام . على انها لم تكن لتعدم قائمة متعددة الالوان من الطعام تختار منها ما تريد . وبعد ان تنتهي من تناول الغداء تنصرف الى الاهتمام بغداء الخدم . ومن ثم قد تصبح الزوجة النشيطة المشغولة سيدة من سيدات الفراغ تنصرف الى امتاع نفسها . فاذا كانت في الريف ركبت للصيد برفقة جماعة من الجيران المرحين . اما اذا كانت في المدينة ، او اذا كان الفصل شتاء فهي قد تلعب وتمرح مع السيدات المتزوجات من اترابها ، حيث ينصرفن الى قضاء الوقت بتبادل الالغاز والاحجيات ، او الاستماع الى القصص والحكايات حول المدفأة . اما الشيء الذي تحبه اكثر من سواه فهو الطواف في الحديقة ، حيث تصنع لنفسها اكاليل وقلائد من الازهار، والبنفسج والمنثور والورد والصعتر والحصالبان او تجمع الفواكه في

مواسمها (فالسيدة تحب التوت والكرز) ، وتقدم للبستاني نصائح قيمة حول زراعة القرع «في نيسان اسقها باعتناء واقلعها من مواضعها واغرسها في مواضع أخرى » . ويصغي البستاني الى هـــذه النصائح ويعيرها من الاهتمام بقدر ما يعير البستانيون في كل زمان ومكان ، رغبات مستخدميهم من الاهتمام . فاذا ملّت من التطواف في الحديقة جمعت السيدة اغنيس وخادماتها وجلست واياهن في الردهة ذات العمد المنقوشة ، يصلحن صدرة سيادته او يطرزن الملابس الرسمية للقس ، ليقدمها المدبر له لقاء الصلاة على أرواح امواته . وربما كن يقضين الوقت في الغزل فقط (طالما كان الرب على حد تعبير « زوجة باث » قد اعطى النساء النبوغ في ثلاثة اشياء : المكر ، والبكاء ، والغزل .) وهي طوال الوقت ترعب جليساتها بحكاية غريزيلدا ، وصوتها يرتفع وينخفض منسجماً مع همهمة الدولاب الرتيبة .

ويقبل المساء . ويعود الى الدار ربها وسيدها . اما ما تثيره عودة السيد الى الدار من حركة وضجة وانهماك في الشغل فنحن نعرفه جيداً طالما نحن نعرف مـــا كان يتوقعه السيد . وترى الجميع منهمكين في احضار المـــاء الساخن ليغسل رجليه ، والحذاء المريح . والجميع متعلقون بكل كلمة يقولها ، معجبون بما اتاه في يومه هذا من اعمال . ثم يأتي دور العشاء . ويتناول المدبر وزوجته العشاء في صحبة عدد من الضيوف ، او وحيدين على ضوء شمس المغيب الشاحب . وترى المدبر آنذاك يتلمظ بشفتي العارف باطايب الطعام وهو يقضم الكركي المشوي بينما تقضم الزوجة رقائقها الحلوة قضماً لطيفاً . ثم يقضيان ساعة الاصيل في الحديث تقص عليه كيف قضت نهارها وتسأله ماذا يجب عليها ان

تصنع بتلك الخادمة الشابة التي مسكت بها وهي تتحدث الى صبي الخياط من خلال الشباك الواطئ الذي يطل على الشارع . كان في نظراتها اليه حنان دافيء وكان وجهها المدور الصغير يتغضن بالقلق وهي تحدثه عن الخادمة ليشرق بابتسامة عذبة عندما تنطلق في مدحها والتوصية بها . وكان في نظرات الشيخ التي يوجهها الى زوجته حنان دافيء ، وفخر واعتزاز . ثم يهبط الليل فيجوس الشيخ وزوجته الشابة خلال الدار يغلقان كل باب ، ويتأكدان من ان الخدم قد أووا الى مضاجعهم ، فقد كان آباؤنا اكثر اقتصاداً منا في الشموع . ثم يأويان الى الفراش.

ويحسن بنا ان نغادر الزوجين هنا . لقد كان يوم الزوجة على ما يظهر يوماً حافلا ،

قد يرسل الطقس شيئاً من الراحة للازواج ،

اما اشغال المرأة فلا حد لها ولا نهاية

فلم يكن في حياة الزوجة شيء من ذلك الفراغ العقيم الذي كان يتمتع به السيدات الجميلات التي نصحن لانغلاند بأن يستخدمن أصابعهن الطويلة في خياطة الملابس للفقراء . وزيادة على ما تقدم ، ومهما تبدو آراء المدبر عن خضوع الزوجة لزوجها اليوم متطرفة مسرفة في التطرف ، فان الكتاب لا بد ان يترك في نفس القارىء شعوراً عميقاً بأن المرأة كانت تتمتع بحسن تقدير الرجل لها ، وبحبه واحترامه كذلك . فلم يكن المدبر يريد ان يرى زوجته تمثالا منتصباً على قاعدة من رخام ، كسيدة «التروبادور» ، ولا منسحقة الشخصية تلعق حذاءه كغريزيلدا ، وانما كان يريدها رفيقة وشريكة حياة ، وكما قال تشوسر : « فلو لم تكن المرأة خيرة ولو لم تكن نصائحها

خيرة مريحة لما خلقها ربنا اله السماوات ولما دعاها « عون » الرجل ، بل لكان دعاها حيرة الرجل .» كثيراً ما تريد المرويات عن ارميا ان تصطنع هذه المناقشة التي تمثل روح القرون الوسطى خير تمثيل : لو اراد الرب ان يمنح المرأة مركزاً رفيعاً لخلقها من رأس آدم بدلا من ان يخلقها من ضلعه. اما المدبر فقد كان اقرب الى موافقة بطرس لومبارد الارجح منطقاً الذي رأى بأن الرب لم يخلق المرأة من رأس آدم لانه لم يقصد الى ان يجعل منها حاكمة له ، ولم يخلقها من قدمه لانه لم يقصد الى ان يجعلها عبدة له ، وانما خلقها من ضلعه على وجه التحديد لانه اراد ان يجعلها رفيقة وشريكة له . وفي موقف المدبر من زوجته الصغيرة شيء من هذه الروح ، وهذا ما أضفى على كتابه هذه الروعة والخلابة ، وما جعله يعلو على الكثير من كتب القرون الوسطى التي تبحث في آداب سلوك المرأة . على ان قيمة الكتاب الاجتماعية والتاريخية ، فوق كل شيء ، هي في كونه يرسم لنا بألوان ما زالت زاهية رغم الزمن، صورة تامة لربة بيت من القرون الوسطى لهـا مكانتها في التاريخ (وهي مكانة عظيمة) ، على حين اهملها المؤرخون جميعاً ، على اختلاف الوانهم تقريبـاً ، وصمتوا عن التحدث عنها .

الفصل الخامس

توماس بتسون

تاجر صوف من القرن الخامس عشر

« لئن صيغ بعض الناس من معدن النبل ،
ولئن فاخر بعض الناس بمهارتهم في
استخدام السكينة القاتلة ،
ولئن امتدح بعض الناس علماً او فناً ،
فانا احب التجارة الشريفة ، المحترمة . »

جيمس ايلوري فليكر
الرحلة الذهبية الى سمرقند

ان من يزر مجلس اللوردات ، وينظر باحترام الى تلك الجمعية الوقورة من الرجال ، لا بد ان يندهش لرؤية شيء جسيم ، غليظ ، يواجه العرش . شيء نابي المنظر يجلس عليه ، اثناء اجتماع البرلمان في دورة كاملة ، رئيس قضاة انكلترا . ذلك الشيء هو عبارة عن كيس من الصوف . على ان حشو هذا الكيس من التاريخ لا يقل

عن التاريخ الذي تحدثنا عنه دائرة رئيس القضاة نفسه . فهو يذكّر جيلا من الناس ، احترف غزل القطن وصناعة الحديد ، بأن عظمة انكلترا لم تشيد على نتاج تلك الشجيرة الرقيقة الذي يجلب اليها من اقصى الشرق واقصى الغرب لتحوله الى سلع وبضائع ، لم تشيد على ذلك المعدن القاسي الذي يستخرج من احشائها ، وانما شيدت على الصوف . ذلك الصوف الذي كان ينمو ، جيلا بعد جيل على ظهور اغنامها ذات الوجوه السوداء . لقد ظل الصوف ـ باعتباره مادة خاماً يسعى وراء الحصول عليها جميع صناع الاقمشة سعياً حثيثاً ، ومن ثم باعتباره سلعاً مصنوعة تباع في مدن انكلترا وقراها ، وتنقل بالسفن الى البلاد القريبة والاقطار النائية ـ الاساس الذي رست عليه عظمة انكلترا حتى قيام الثورة الصناعية ، حين حل القطن والحديد محله . ومن هنا تجد ، اذا نظرت الى صور قديمة لمجلس اللوردات ، سواء كان ذلك في حكم هنري الثامن ام في عهد اليصابات ، كيس الصوف منتصباً امام العرش ، كما تجده اليوم اذا ما زرت هذا المجلس. ان رئيس قضاة انكلترا يجلس على كيس صوف لان رخاء هذه البلاد الجميلة قام على كيس صوف .

كان تجار الصوف اشهر تجار القرون الوسطى واعظمهم اعتبارا . وقد ظلت تجارة الصوف ، مدة طويلة من الزمن ، اوسع تجارات البلاد واعظمها ربحاً . وكان ملوك انكلترا يولون هذه التجارة عناية خاصة لان معظم مدخول الجمارك كان يأتي من الجلود والاصواف . وزيادة على ما تقدم فقد كان ملوك انكلترا ، اذا أرادوا ان يستلفوا مبالغ من المال على ايرادات الدولة ، ولوا وجوههم شطر تجـــار الصوف لانهم كانوا اغنى تجار البلاد . لهذه الاسباب ، ولاسباب

غيرها ، كانت الحكومة تخصص بعض المدن الرئيسية لتكون مراكز للتوزيع يتحتم على تجارة الصادر ان تمرّ بها . وكانت الحكومة تغير مركز توزيع الصوف بين حين وآخر . فحيناً كانت بروج هي المركز ، وحيناً انتورب ، واحياناً كان هذا المركز يقوم في انكلترا نفسها . ولكن كاليه كانت هي المركز عادة . فقد جعلت مركزاً عام ١٣٦٣ ، ثم ثبت هذا المركز بصورة نهائية عام ١٤٢٣ . كان يتحتم ان تمرّ جميع الأصواف والجلود الخام والجلود المدبوغة والصفيح من هذه المراكز الرئيسية . وقد اكتمل هذا النظام رسمياً عندما اتحد تجار الصوف، الذين كانوا يسيطرون على معظم تجارة الصوف والحاصلات الرئيسية الاخرى ، بصورة نهائية عام ١٣٥٤ ، والفوا اتحاداً رسمياً ، او شركة يديرها محافظ . وقد لاءم هذا النظام « التاج » والتجار على السواء . فقد اصبح بمستطـــاع الحكومة ان تحشد موظفي الجمرك في محل واحد وتجمع ايراد الجمرك بسهولـــة عظيمة ، وخاصة بعد ان نمّيت بصورة تدريجية الطريقة التي تقوم بموجبها «شركة تجارالصوف» بدفع جميع الرسوم الجمركية والضرائب والاعانـــات المفروضة دفعة واحدة الى موظفي الحكومة ، ثم تجمعهـــا بعد ذلك من اعضائها . واصبح بمقدور التجار ، مستفيدين من تجمع التجارة وتركزها ، ان يسافروا جماعات جماعات ، وان ينظموا حماية الاسطول الذي ينقل الصوف من غارات القرصان الذين كانوا يملأون البحار الضيقة الواقعة بين انكلترا وفرنسا . وكان باستطاعتهم ، بوصفهم اعضاء في اتحاد تجاري قوي ، ان يؤمنوا لانفسهم الحماية والامتيازات في البلادالواطئة (الفلاندرز Flanders) . وقد انتفع مشترو الصوف ، زيادة على ما تقدم، بهذا التنظيم الذي اتاح للحكومة ، ولشركة تجار الصوف ، ان

تراقبا نوعية الصوف المعروض للبيع مراقبة دقيقة ، وان تفرضاسلسلة من القوانين ضد الغش . ويجب علينا ان نذكر ان اعطاء حق احتكار المتاجرة بالصوف لاعضاء شركة واحدة لم يكن فكرة مستهجنة عند جمهورالناس حين كانت التجارة محتاجة الى الحماية التي لم تكن الحكومة مستعدة ، بعد ، لتقديمها : كتب بيكون يقول : « لقد غذّت الشركات التجارية الكبرى ، طوال أربعة قرون ، التجارة الانكليزية ونمّتها ، وجعلت هذه البلاد قائدة العالم في التجارة . »

وظلت تجارة الصوف مزدهرة في انكلترا حتى أواخر العصور الوسطى . على ان تجار الصوف اخذوا يلمسون، طوال القرن الخامس عشر، مزاحمة شركة اخرى لهم هي « شركة التجار المغامرين » المشهورة وذلك ان هذه الشركة انتهزت نمو صناعة النسيج الوطنية خلال القرن السابق فبدأت تصدر الأقمشة بكميات عظيمة . وكان تجار الصوف يكرهون هذا النوع من التجارة . فقد كانوا يرغبون في استمرار النظام القديم حيث يصدر الصوف الانكليزي الى القارة الاوروبية . وهنالك، في يبرس وغنت وبروج وميشلين وغيرها من مدن الاراضي الواطئة المشهورة بصناعة النسيج ، يحول هذا الصوف الى أقمشة نفيسة، ناعمة الملمس. ولقد اعطت صناعة النسيج هذه بلاد الاراضي الواطئة نوعاً من التفوق الصناعي في أوروبا طوال العصور الوسطى . وكانت هذهالصناعة تعتمد اعتماداً تاماً على كميات وافية من الصوف الانكليزي ومن هنا كانت تلك الروابط السياسية الوثيقة بين انكلترا وبلاد الاراضي الواطئة . فقد كانت الاولى بحاجة الى مشتر، وكانتالاخرى بحاجة الى المادة الخام الاساسية . وكما يقول شاعر انكليزي منالقرن الخامس عشر :

« ان بلاد فلاندره الصغيرة لا تعدو كونها مركزاً تجارياً لغيرها من البلاد . وكل ما تنتجه فلاندره ، من الحبوب او البذور ، لا يكفيها أكثر من شهر واحد . وسواء احب الفلمنكيون الامر ام كرهوه ، فما الذي يوجد في فلاندره سوى صباغ المدر وبعض القماش ؟ ان القسم الاكبر من السكان يعيش على صنع الصوف الذي يحيكونه قماشاً . هذا سبيلهم . ولا يمكنهم العيش براحة دونه . ومن ثم يترتب عليهم ان يسود بيننا وبينهم السلم ، والا فنوا . »

كانت السترة التي يرتديهـا الانكليزي مصنوعة من الصوف الانكليزي ، ولكنها كانت مصنوعة في احدى مدن الاراضي الواطئة. ولم يكن تجار الصوف ليروا ضيراً في استمرار هذه الحال . امـا بالنسبة للفلمنكيين فقد أدّى التحالف السياسي ، الذي كانت تقتضيه الضرورات التجارية ، الى ظهور مثل بينهم مؤداه : انهم اشتروا جلد الثعلب من الانكليز بدرهم ، وباعوهم ذنبه بدينار . على ان ما كانوا يشترونه انمـا هو جلد الغنم ، ولم يكتب لهم ان يشتروه الى الابد . فلقد هدم نمو صناعة النسيج الانكليزية التي أخذت تستنفد الصوف الانكليزي ، المدن الصناعية العظيمة في الاراضي الواطئة . على انه بالرغم من نمو هذه الصناعة وازدهارهـا وتعاظم ارباحها ، بحيث طردت في بداية القرن السادس عشر تجارة الصوف بوصفها التجارة الرئيسية في انكلترا، فقد ظلت شركة تجار الصوف طوال القرن الخامس عشر مزدهرة ، طائرة الشهرة ، عظيمة الشأن .

وقد كان عدد تجار الصوف الاغنيـاء المحترمين الذين يوجهون مقدرات المدن الانكليزية كبيراً . كنت تجد بينهم عمدة مدينة لندن ،

ومحافظي كثير من الموانىء الانكليزية . كما كنت تجد فيهم المقاولين الذين يتعاونون مع الملك، الذي كان معدماً مزمن الافلاس ، والدائنين الذين يسلفونه ما يحتاج اليه من مال . لقد بلغ تجـــار الصوف درجة عظيمة من الثروة والقوة وعلو السلطان ، بحيث كادوا يصبحون خطراً يتهدد الدستور ، وبحيث كادوا يصبحون طبقة رابعة كان على صاحب الجلالة ان يمنحها الامتيازات والرخص دون ارادة البرلمان . وكثيرة هي وصايا تجـــار الصوف المحفوظة في السجلات الرسمية المنتشرة في طول انكلترا وعرضها ، التي تشهد على ما بلغوه من ضخامة الثروة ، وسعة ذات اليد ، وامتداد السلطان ، والمشاركة في الاعمال الاجتماعية. وكثيرة هي اللوحات النحاسية التذكارية الفخمة التي مـــا زالت تحفظ ذكراهم في كنائس ابرشيات كوتسولد وغيرها من المقاطعات الانكليزية التي تنتج الصوف . في تشيبينغ كامبدن يرقـــد وليام غريفل وزوجته «احد مواطني لندن المأسوف عليه وزهرة من زهرات تجار الصوف في انكلترا . » الذي توفي سنة ١٤٠١ ، وما زال بيتـه الجميل قائماً في شارع القرية . وفي نورثليتش يرقـــد جون فورتي الذي عمر صحن الكنيسة قبيل وفاته سنة ١٤٥٨ . وتصوره لوحته التذكارية النحاسية واضعا احدى رجليه على ظهر شاة، والاخرى على حزمة من الصوف. وتجد ايضاً لوحات توماس فورتي « رجل الصوف » ، وتاجر آخر مجهول الهوية ، والى جانبهما حزمة صوف . وقد تجد عددا آخر من اعضاء هذه الشركة العظيمة يرقدون في لينوود وسايرينسستر وتشيبينغ نورتن وليتشليد وأولهالوزباركينغ . انهم الآن يرقـــدون بسلام . ولكنهم عندما كانوا احياء كانوا اكثر تجار زمانهم دهـاء ، واوسعهم حيلة . ولنستمع الى الشاعر غور Gower يخاطب الصوف :

« انت ربة التجار يا حزمــة الصوف . يا ايتها السيدة النبيلة . التجار جميعــاً طوع اشارتك ، مستعدون لخدمتك . بحسن توفيقك وغناك ترفعين اناسا الى قمة المجد والثروة ، وتخفضين آخرين الى هاوية الدمار . ان السوق التي تسكنين فيها لم تخل ابدا من الغش والخـداع حيث يطعن الانسان ضميره .

ايها الصوف ! ان النصارى ليسوا اقل من الوثنيين والمسلمين سعيا لامتلاكك والاستحواذ عليك .

ايهــا الصوف ! يجب الا نسكت عن اعمالك في البلاد الاجنبية الغريبة ، فان تجار جميع الاقطار ، في زمن السلم والحرب ، يسعون اليك مندفعين بحبهم العظيم لك . ولئن كان سواك لا يعدم اعداء ، فانك ذو اصدقاء وهبوا انفسهم لخدمتك المربحة. ان العالم بأسره يعزك ويعظم قدرك . وان البلاد التي انجبتك لحرية بأن تصنع ، بوساطتك، اعمالا عظيمة . وتحملين ، يا حزمة الصوف ، في البر وفي البحر ، الى جميع اقطار الارض . ولكنك تذهبين الى ذوي الثراء العريض من الناس . في انكلترا ولدت . على انه يقال بانك لم تنعمي بسياسة رشيدة ، وادارة حسنة ، فيها . فان تريك (١) ، الذي يملك ثروة طائلة ، قد اصبح أميراً لسوقك ، متحكماً فيها . فهو ينقلك حسب إرادته ، الى الاقطار الاجنبية ، حيث يجلب الربح لنفسه ، ويجلب لنا المضرة والخسران .

ايتها الجميلة ! ايتها البيضاء النقية ! يا من تبعثين في النفوس البهجة والانشراح ، ان حبك يلسع القلوب ويقيدها . ان قلوب الذين

---

(١) اسم علم ومعنى الكلمة الاصلي : الحيلة Trick . (المترجم)

يتاجرون بك لا تستطيع عنك صبرا ، ولا من قيودك فكاكا . وانهم ليضعون الخطط ، ويدبرون المكائد ، ويبتكرون الحيل ، سعياً وراء الحصول عليك . ثم انهم يجعلونك تمخرين البحار ، يا ملكة سفينتهم وسيدتها . ومن اجل الحصول عليك ، من اجل امتلاكك ، يدفعهم الحسد ، وشهوة الربح الوفير ، الى المساومة عليك »

ليس من الصعب تصوير الحياة اليومية لاحد تجـــار الصوف . فقد تركت « الجزة الذهبية » آثاراً كثيرة في حياتنا القومية . هـــذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان سجل القوانين ملىء بالاوامر والقواعد التي تتعلق بتجارة الصوف . على ان السبب الاهم انما هو وجود عدد كبير من الرسائل الشخصية تحدرت الينا من اشخاص كانوا يشتغلون في شحن الصوف من انكلترا الى كاليه . وقد تكون هذه الرسائل ، التي خلفها لنا أولئك التجار ، اعظم فتنة وامتاعاً للفكر من جميع المواد الخام التي يصنع منها تاريخ الناس البسطاء في العصور الوسطى . ففي هذه الرسائل يحيا الناس ، ويعبرون عن انفسهم تعبيراً يظهر شخصياتها المتميزة . كان معظم الرجال والنساء ، من الطبقة العليا والوسطى ، في القرن الخامس عشر ، يعرفون القراءة والكتابة ، وإن كانت تهجئتهم للكلمات ، وطريقتهم في الترقيم ، غريبة ، تثير الدهشة . ولكن ليس في هذا بأس كبير . فقد كانت معانيهم جلية الوضوح . ولقد حفظ لنا حسن الطالع ، في مختلف المخفوظـــات الانكليزية ، عـــدداً من المجموعات الكبيرة لرسائل عائلية دونت في القرن الخامس عشر . وخير هذه المجموعات هي مجموعة رسائل باستون وهي اسرة كريمة الاعراق من اسر نورفولك . وهذه الرسائل محشوة بالمعلومات عن السياسة العليا ، وعن الحياة اليومية . اما رسائل اسرة

بلومبتون ، وكان اعضاؤها لوردات في يوركشاير ، فهي وان تكن اقل امتاعاً، الا انها قيّمة على كل حال . على ان اكثر هذه المجموعات فائدة وامتاعاً ، فيما يتعلق بموضوعنا ، رسائل اسرة ستونرز ، وكانت أراضيها واملاكها واقعة في مقاطعة اكسفورد شاير والمقاطعات المجاورة ، وأوراق سيلي وقد احتفظت بها اسرة من تجار الصوف .

وتعطينا هاتان المجموعتان من الرسائل صورة زاهية عن تجار الصوف في حياتهم العامة والخاصة . وتبحث « اوراق سيلي » في الفترة الممتدة بين ١٤٧٥ و١٤٨٨ . ومن محاسن الصدف انه خلال تلك الفترة نفسها أصبح وليام ستونر (وقد صار سير وليام في سنة ١٤٧٨) من المهتمين بتجارة الصوف . ففي سنة ١٤٧٥ تزوج اليزابيث ريتشي ، وهي ابنة تاجر غني ، وارملة احد تجار المدن الاغنياء . كانت اسرة ستونر تملك عدداً كبيراً من الغنم في مقاطعاتها في تشيلتيرن وكونتروولد . وسرعان ما أدرك وليام فائدة تحالفه مع اسرة اليزابيث التي كانت معنية بتجارة الصوف . وعلى هذا فقد شارك احد اصدقاء اسرة زوجته ، وهو تاجر صوف في كاليه يدعى توماس بتسون ، وهو موضوع دراستنا هذه . وقد قام بدور فعال في تجارة الصادر حتى وفاة اليزابيث سنة ١٤٧٩ . وتوفي توماس بتسون سنة ١٤٨٦ . وعلى هذا يكون معاصراً لتاجري الصوف جورج وريتشارد سيلي ، وأغلب الظن انه كان على معرفة بهما . وكتب وليام سيلي ، ابن عمهما ووكيلهما ، سنة ١٤٨١ من لندن الى جورج في كاليه يخبره بأنه قد أرسل اليه ٤٦٤ جزة صوف في احدى سفن مدينة نيوهايث المسماة « توماس » . وان هذه الجزز موضوعة بجوار الصاري تحت جزز توماس بتسون . وبمساعدة « رسائل

واوراق ستونر » التي تحتوي على رسائل كثيرة صادرة عن توماس بتسون ، وتتعلق به ، خلال سنوات مشاركته لسير وليام ، وبمساعدة « اوراق سيلي » المليئة بالمعلومات عن حياة تاجر صوف في كاليه ، يمكننا ان نستحضر توماس بتسون امامنا ، بضرب من السحر اللطيف، حتى ليكاد يبعث حياً . ويحق له ان يبعث حياً . فقد كان من ابهج الشخصيات التي كشفت عنها رسائل القرن الخامس عشر . ولم يكن لينافسه احد فيما كان يتمتع به من خلابة صادقة ، وسحر حقيقي ، الا مارجيري بروس الخلاّبة ، التي تزوجت جون باستون الاصغر ، والتي كانت تتألق بهجة في وسط نساء أسرة باستون الجامدة .

ولعلّ السبب الذي يجعل قلوبنا تميل بسرعة الى توماس بتسون ، وتمتلىء بحبه ، هو انه يغمرنا مباشرة ، عند اول لقـــاء به ، بقضية غرامية . إن اولى رسائـــله الى وليام ستونر مؤرخة في ١٢ نيسان ١٤٧٦ ، وفيها يخبر وليام بأن صوفهم قد وصل الى كاليه . والرسالة تبدأ بهذه الجملة : « سيدي المبجل والجزيل الاحترام . اقدم عظيم احترامي لسيادة شخصكم الكريم، ولسيدتي المبجلة زوجتكم ، ولسيدتي كاترين اذا تفضلتم سيادتكم واذنتم لي بذلك . وارجو ان احظى بعطفكم ورضاكم جميعـــاً .» وكتب بعد عشرة ايام رسالة اخرى من لندن عشية سفره الى كاليه ، يشكر فيها ستونر على «البشاشة اللطيفة، والحب المخلص ، اللذين تكنهما لي دائماً ، وتسبغهما عليّ ، واللذين لا يستحقهما شخصي الضعيف .» ويعلمه فيها انه قد ارسل له قليلا من السلق المخلل هدية من عنده ، وبرميلا من النبيذ الاحمر هدية من أخيه ، ثم يضيف هذه الحاشية : « سيدي . ألتمس من سيادتكم ان تجعلوا هذه الرسالة الفقيرة تقربني عند سيدتي المبجلة زوجتكم وكذلك

عند ابنة عمّي اللطيفة وسيدتي الكريمة العطوف كاترين ريتشي ، التي اضرع الى سيادتكم ان تحبوها دوماً وتسبغوا عليها آلاء نعمكم . » فمن تكون كاترين ريتشي هذه التي يقدم لها احترامه بهذه العناية البالغة ؟ كانت كاترين ريتشي ابنة زوجة وليام ستونر من زوجها الاول . وكانت خطيبة توماس بتسون ، وكانت في الوقت نفسه في حوالي الثالثة عشرة من عمرها .

ان التفكير العصري ، الذي يحبذ الحب والزواج الناضج ، كثيراً ما تصدمه هذه الروح التجارية التي تسيطر على قضايا الزواج في ايام الفروسية ، وهذا العدد العديد من الرجال البالغين الذين يتزوجون بنات صغيرات ما زلن في العقد الثاني . لقد كان الناس يعتقدون في تلك الايام بأن الولد يبلغ الحلم في الرابعة عشرة ، والبنت في الثانية عشرة (وهذه المغايرة كان المحامي الشرعي العظيم ، ليندوود ، وهو ابن تاجر صوف ، يعزوها الى كون الاعشاب البرية سريعة النمو .)

وكثيراً ما كان يخطب الاولاد ، وهم ما زالوا صغاراً . بل وكثيرا ما كانوا يزوجون ، وذلك لاسباب ماليـــة ، او لفض الخصومات العائلية ، او للاطمئنان على مستقبلهم فحسب . وكل ما كانت تطلبه الكنيسة هو ان تترك للاطفال عندما يبلغون الحلم ، في الرابعة عشرة للبنين والثانية عشرة للبنات ، حرية الغاء عقـــد الزواج اذا رغبوا ، والظاهر انه لا شيء يفصل انكلترا المعاصرة عن انكلترا تلك الازمان القديمة الطيبة فصلا واضحا مثل قضية غريس دي سلبي الصغيرة ،التي زوجت وهي في الرابعة نبيلا عظيما في سبيل اراضيها الواسعة . وبعد ان توفي زوجها ، بعد سنتين ، تزوجها شخص ثان . ثم ، عندمـــا اصبحت في الحادية عشرة من عمرها ، تزوجها شخص ثالث دفع لها

٣٠٠ مارك . في بعض قصص الزواج هـذه تمتزج الفكاهة بالكآبة الاليمة . اخذ جون ريغاردن ، وعمره ثلاث سنوات ، الى الكنيسة بين ذراعي قسيس كان يحثه على تلاوة عقد الزواج . ولكن الطفل اعلن ، في منتصف الحفلة ، بانه لا يريد ان يتعلم اكثر مما تعلم ذلك اليوم . فاجابه القسيس «قل بضع كلمات اخرى ، واذهب للعبك .» وتزوج جيمس بللارد ، وعمره عشر سنوات ، زوجته جين ، « في الساعة العاشرة مساء ، دون موافقة أي واحد من اصحابه ، على يد المدعو سير روجر بلاكي وكان اذ ذاك خوري كولون ... وصرح جيمس هـذا لعمه ، في اليوم التالي ، بان المذكورة جين (وكانت في الوقت ذاته فتاة كبيرة ، في سن الزواج ،) قـد اغرته بتفاحتين للذهاب معها الى كولون وتزوجها . وتقول اليزابيث بريدج ، المولودة في رامسبوتام ، بان زوجها جون بريدج ، وكان عمره احدى عشرة سنة وعمرها ثلاثة عشرة ، لم يستعملها بعد الزواج « بعشق ومحبة . فقد حدث في الليلة الاولى لزواجهما ان جون المذكور رفض ان يأكل لحما في العشاء . وعندما حان وقت النوم اخذ جون المذكور يبكي ويطلب الذهاب الى بيتـه مع والده . وكانت هي اذاك في بيت اخيها . »

على ان مدونات العصور الوسطى تلقي ، أحياناً ، أضواء سارة على زيجات الاطفال هذه ، وتصورها بألوان بهيجة . من ذلك تلك الصورة التي اعطانا اياها كتاب مدبر باريس لزوجته الشابة . وكان المدبر كثير العطف، عظيم الحنو، على زوجته ، صادق الغفران لزلات شبابها النضير . ومن ذلك ايضاً هذه الاضواء التي تلقيها الرسالـة الخلاّبة التي كتبها توماس بتسون للصغيرة كاترين ريتشي في اليوم

الاول من حزيران ١٤٧٦ . هذه الرسالة درة حقيقية . والغريب انها لم تحظ بالكثير من العناية والانتباه . مع انه لا يجوز ان تخلو منها اية مجموعة من مجاميع الرسائل الانكليزية . وسأثبتهـــا فيما يلي بتمامها . فهي تعيد الى دفيء الحياة توماس بتسون وكاترين رينشي :

« ابنة عمي كاترين المحبوبة . ابعث اليك بتحياتي . وارجو من أعماق قلبي ان اكون موضع رضاك . واخبرك بانني استلمت منك اخيراً هدية تقبلتها مسروراً . وقد كانت وما زالت ، فرحة لقلبي . وقد استلمت ايضاً رسالة من هوليك ، وكيلك الكريم ، فهمت منها انك جيدة الصحة ، منشرحة الفؤاد . وانني اصلي الى الرب ، من كل قلبي ، ان يديم عليك هذه النعمة بمشيئته ورضاه . فان اعظم سلوى لي ، واكبر راحـــة لفؤادي ، ان تكوني كذلك . وعسى ان يعينني المسيح . واقسم لك صادقاً بأنك اذا أكلت باستمرار كمية من اللحم ، كيما تكبرين وتنمين بسرعة فتكونين امرأة ، تجعلينني اسعد انسان في العالم . فعندما اتذكر عطفك عليّ ، وحبك الأكيد لي ، يفرح قلبي ، ويمتلىء حبوراً ، اما عندما اتذكر صباك الغض وانك لا تأكلين اللحم الذي يساعدك على النمو مساعدة عظيمة احزن ، ويمتلىء قلبي غما . فاتوسل اليك ، يا ابنة عمي الحلوة ، بهذا الحب الذي تضمرينه لي ، ان تكوني منشرحة النفس ، مبتهجة القلب ، وان تأكلي اللحم مثل النساء . فاذا فعلت هذا ، من أجل حبي ، اعدك صادقاً بانني سابذل جهد طاقتي لتلبية كل ما تطلبينه مني مهما كان الشيء الذي ترغبين فيه، بعون الرب. ولا استطيع ان اقول لك اكثر من هذا الآن ، ولكن عند رجوعي الى البيت سأقول لك الشيء الكثير ، ونحن منفردان ، امام الرب . وحيث انك ، كأمرأة كاملة وكمحبة ، قد تذكرتني بألطاف

كثيرة متنوعة الالوان ، وتركت لي حرية التصرف بهـا كما اشاء وأحب ، فيجب ان تعلمي جيـداً ، وان تصدقيني ، يا ابنة عمي الحلوة ، بأنني قد تقبلتها بقلب طيب ونية خالصة ، وانني اخذت نصفها وسأحتفظ به لنفسي ، وأما النصف الآخر فسأرسله لك ، يا ابنة عمي الحلوة ، مع حب قلبي وا كرامي ، لتحتفظي به لنفسك. وارسل لك معه البركات التي منحتها سيدتنا لابنها العزيز . واتمنى ان تكوني بخير وعافية . وارجو منك ان تحيي حصاني تحية طيبة . وان ترجيه ان يمنحك اربعاً من سنّيه يخـدمك فيها ويعينك . وسأمنحه انا ، عند رجوعي ، اربعاً من سنيّ حياتي ، وسأطعمه طعاماً جيداً يعوض عنه تعبه . وبلغيه انني آمل منه ان يفعل ذلك . انني اشكرك، يا ابنة عمي كاترين ، بالنيابة عن حصاني ، وستشكرك زوجتي كذلك في مقبل الايام . فقد بلغني ، اخيراً ، انك تنفقين عليه نفقة كبيرة . وقد بلغني اخيراً ، يـا ابنة عمي الحلوة ، بأنك جئت الى كاليه (١) للبحث عني ، ولكنك لم تستطيعي مشاهدتي ولا العثور عليّ . ولو انك جئت الى مكتبي لوجدتني ولما رجعت دون ان تريني . ولكنك طلبتني حيث لا يمكن ان اكون موجوداً . وارجو منك يا ابنة عمي الكريمة ان تبلغي الساعة احترامي ، وترجي منها ان تحد من تبذيرها، فهي تدق دائماً في غير ميعادها ، وهي مسبقة دائماً . وهذا عمل ينطوي على مكر ودهاء . واخبريها بأنها اذا لم تصلح من عاداتها المسرفة هذه فسيضطر الزوار الى تجنبنا والانقطاع عن زيارتنا . وانا اعتمد عليك في اصلاح عاداتها قبل قدومي الذي أرجو ان يكون قريباً جداً بمشيئة الرب وبركاته . ويا ابنة عمي الوفية جداً انني وان لم أقدم في

(١) يحتمل ان يكون هذا فندقاً يحمل الاسم نفسه .

مطلع هذه الرسالة تحياتي الى السيدة الجزيلة الاحترام والدتك ، فانا اعتمد عليك في ان تقدمي لها احتراماتي واجلالي من تلقـــاء نفسك الكريمة ما شئت من المرات . وبإمكانك ان تقولي لها ، اذا شئت ، بأنني عازم على التوجه الى السوق في اسبوع العنصرة القادم . وانـــا متأكد من انك سوف تصلين من اجلي كما أصلي انـــا من اجلك . جعلك يسوع الكلي القدرة امرأة طيبة ، وأطال عمرك ، واسبغ عليك نعمتي الصحة والتقوى ، بمشيئته ورضاه . في كاليه العظيمة ، على هذا الجانب من البحر ، في اليوم الاول من حزيران ، عندمـــا تدق الساعة التاسعة يذهب كل رجل الى العشاء . كل من في الدار يناديني، ويتوسل اليّ : انزل . انزل الى العشاء ، حـــالا . » وانت تعرفين بماذا اجيبهم .

ارسل لك هذا الخاتم تذكاراً . حرّر هذه الرسالة ابن عمك ومحبك المخلص توماس بتسون . »

وما ان انهى توماس بتسون رسالته حتى ابتسم ، وألقى قبلة على الختم ، وكتب عنوان الرسالة : « تسلم هذه الرسالة على عجل الى ابنة عمي المحبوبة كاترين ريتشي في ستونر . »

وتبدأ ، منذ ذلك الوقت، مراسلة ثلاثية فتانة بين بتسون وستونر والسيدة اليزابيث ستونر، تمتزج فيها الاخبار العائلية بالمعاملات التجارية امتزاجاً بهيجاً . وتقوم بين السيدة اليزابيث وبتسون احسن العلاقات واقواها. فقد كانت السيدة اليزابيث صديقة قديمة لبتسون قبل زواجها الثاني . وقد افردت له في دارها غرفة خاصة . وكانت تدعوه، وكأنها تقرأ الغيب ، « ولدي ستونر » . وتكاد جميع رسائلها الى زوجهـــا تحتوي على اخبار عنه : كيف استقل سفينة في الساعة الثامنة صباحاً

فيسر له الرب رحلته وأمدّ في سرعة سفينته ، وكيف انها لم تستلم منه رسالة هذه الايام الثمانية ، وكيف انه كتب الآن عن السعر الذي يجب ان يدفع عن اربعين كيساً من صوف كوتسوولد ، وكيف انه قدم احتراماته لسير وليـــام ، وأتى الى الدار نهار الاثنين المنصرم : وكانت تعهد اليه ، احياناً ، مهمة التحدث الى والدة السيدة اليزابيث وهي مهمة حساسة ، تحتاج الى حسن تأتّ . فقد كانت عجوزاً ، صعبة المراس ، حادة اللسان . يقول توماس ، وهو يزوي مــا بين حاجبيه، بعد واحدة من تلك المقابلات مع السيدة العجوز : « اسأل الله ان يعطيهــا أسارير ضاحكة فرحة ، أو يرسلها قريباً الى دير المالينوريس . (١) » وهو يكتب الى السيدة اليزابيث ، عقب مقابلة أخرى له مع السيدة والدتها : منذ عودتي الى لندن التقيت مع سيدتي والدتك . ويعلم الله انها ظلت عابسة الوجه ، مقطبة الاسارير، طوال مدة زيارتي لها . وقد ظللت افكر في ذلك طويلا بعد ان غادرتها . وقد انبأتني عن اشياء قديمة كثيرة ، ولا سيا عن حكايــة الخوري السابق معها ، وكنت انا قد حدثتها بشأنها . وقد اخبرتني انالخوري لم يفلح بعدها ابداً ، فقد كان تأثره عظيما . وقد اجبتها جواباً مقتضباً وانصرفت، فلم اجد متعة في اطالة المكوث عندها . وقد وقع الاختيار على بتسون المخلص ايضاً للعنايــة بآن اخت كاترين الصغرى ، حين كانت في لندن . وهو يكتب الى الاسرة يطلب ارسال ملابسهـــا : « يعلم الله انها بحاجة الى ملابسها هذه. » وهو يشكو من سلوك الجدة العجوز : « عندما تلتقي سيدتي والدتك بابنة عمي آن لا تقول لهـــا

---

(١) دير المالينوريسيين وهو دير للراهبات الفرنسيسكان خارج اولدغيت .

اكثر من : « بارك الرب فيّ وفيك . » ثم تمضي في سبيلها ، وكأن لقاءها لا يسرها ». وبتسون ايضاً هوالذي صحب السيدة اليزابيث من وندسور الى لندن ، وكتب الى زوجها يقول : « كنا ، والحمد لله ، مسرورين طول الرحلة . ونأمل ، برحمته، ان نكون مسرورين كذلك مدة اقامة السيدة بيننا . وعندما تكون سيادتكم مستعداً للمجيء الى هنا ، فسنحتفل بك احتفالا عظيماً ، بحيث لا تكون اقامتك مزعجة، بعون الله . » وبناء على هذا ارسل سير وليام ديكين مسمنين بيد رسول ليساعد في سرور زوجته وانشراحها . وقد كتب له بتسون يقول : « سيدي اخذت ديكين مسمنين ، ولكنها لم يكونا من احسن صنف كما نصحتني في رسالتك ان آخذ . وأقول لك الحقيقة انه لا لوم عليّ . ان سيدتي زوجتك قد اخذت تنمو نمواً قوياً معقولا ، والشكر للرب ، وهي تفرض ارادتها في هذه القضية كما تفعل في كل القضايا الاخرى . »

والحق ان لدينا مئات الشواهد على تعلق بتسون القوي باسرة ستونر ، وحبه العميق لها ، وعلى بساطة تقواه . وقد كان يتجرأ أحياناً فيقدم للاسرة بعض النصائح الصائبة . لقد ارتفعت معنويات السيدة اليزابيث ، بعض الشيء ، بارتفاعها من صنف البورجوازية التجارية واحتلالها مركزاً بين الاسر النبيلة في الريف . وكانت عرضة للتبذير والاسراف. ولم يكن زوجها بريئاً ، كل البراءة ، من الاسراف في الدّين . فنحن نسمع ان الخباز والخمار يزوران وكيله يومياً . وكانت اسرة ستونر، ذات مرة، مدينة بمبلغ اثني عشر جنيهاً استرلينياً لاخ بتسون ، وهو تاجر خمور ، ثمن عدد من دنان النبيذ الاحمر

والابيض وبرميل من الرمني(١) وقد كتب توماس للسيدة اليزابيث ، وهو في طريقه الى السوق : « ليحفظكما ربنا المبارك يسوع المسيح ، ويسبغ عليكما نعمة الشرف . واسأله ان يديم عليكما نعمة مرضاته ، وان يرسل اليكما النصائح الصائبة المربحة ، ويعينكما على عمل الخير . هذه هي، وأقول الحق ، صلاتي كل يوم ، وستبقى كذلك الى الابد. وستبقى صورتك أقرب الى قلبي من اي انسان حواليك ، رجلا كان او امرأة . هــذه هي الحقيقة . وليعنّي ربنا المبارك . أنصحك يا سيدتي ان تتذكري النفقات الكبيرة ، وان تكوني منها على حذر . وأرجو ان يكون سيدي ، زوجك ، كذلك . وانك لتحسنين صنعاً اذا جلبت انتباهه الى هذه النفقات لأسباب عديدة كلاكما بها عليم . وليعزكما الرب ، وليعنكما في جميع اعمالكما الخيرة الطيبة آمين . » وبعد شهر من هذا بلغه ان سير وليــام ستونر مريض فكتب الى السيدة اليزابيث يشاركها آلامها : « ولو كان في طاقتي ان اعمل اي شيء هنا يؤدي الى سرورك وسروره لما تأخرت عن عمله . وصدقيني بأن حزنك ليس فرحة لي ، والله بما أقول عليم . ومهما يكن من شيء فعليك يا سيدتي ان تجعليه مرحاً ، منشرح الصدر ، سعيداً ، وان تبعديه عن الاوهام والافكار المسرفة التي تؤلم ولا تجدي نفعاً . فقد يؤذي الرجل نفسه اذا اتبع سبيل الاسراف والشطط . ومن الخير له ان يكون حذراً . »

وماذا عن كاترين ريتشي الصغيرة ؟ ان ذكرها يتردد في رسائل

(١) نبيذ يوناني Rumney

توماس بتسون مراراً وتكراراً . وقد تحظى، أحياناً ، بغضب توماس لانها لا تحسن مصاحبة القلم . كتب الى امها يقول : « انا غاضب على كاترين لانها لم ترسل لي اية رسالة . لقد بعثت لها عدة رسائل ولم أستلم عنها جواباً. وقد املني الانتظار واتعبني. بامكانها ان تستخدم كاتبا اذا ارادت. اما اذا لم ترد فانها ستريحني من عناء الاجابة عن رسائلها في المستقبل .» على ان المهم في امرها انها كانت تكبر باستمرار ، وان لم يكن نموّها سريعاً سرعة تسر محبيها . وكتب في «سبت الثالوث» سنة ١٤٧٨ رسالة الى السيدة اليزابيث : « انني اذكرها دائماً . والله يعلم ذلك . حلمت مرة انها في الثلاثين من عمرها. وعندما استيقظت تمنيت لو انها في العشرين فحسب . والراجح ان أمنيتي ستحقق عن قريب . وانا اضرع من كل قلبي الى يسوع الكلي القدرة ان يحقق أمنيتي هذه اذا شاء .» وكتب بعد شهر الى زوج ام الفتاة : « اضرع اليك ان تذكر ابنة عمي كاترين وان ترعاها . واتمنى ان تكون بخير، والله بما اقول عليم . وصدقني انها لو كانت حاضرة هنـــا في الدار لازداد فرحي ولأصبح سروري عظيما . على انني احمـــد الله على كل شيء . ان آلامي في ازديـــاد . ويجب علي ان احتمل كما احتملت في الايام الماضية . وهذا ما سأفعله في سبيل الرب ، ومن اجلها .» على ان كاترين قد بلغت الآن الخامسة عشرة من عمرها . اصبحت اهلا للزواج . وترينا الرسالة التالية التي ارسلها توماس بتسون الى السيدة اليزابيث ، بعد اسبوع ، توماس هـذا وقد بدأ ينظم داره ، وازداد تضايقه من اعداد جهاز العروس ، هذه المهمة التي عهدت بها اليـــه السيدة اليزابيث نفسها في اغلب الظن : « سيدتي . فهمت من رسالتك

ان سيادتك لا تستطيعين القدوم الى لندن قبل اواخر شهر آب . فاذا كان الامر كذلك فاني اسف جـــداً . اذ علي ان اقوم باعمال كثيرة تستغرق معظم وقتي . وليس بامكاني ان انجز الاعــمال التي تمت الى القضية التي تطلبينها مني (اي قضية جهاز كاترين) ... وارجو من سيادتك ان تبعثي لي (بنصائحك) ، وان ترشديني الى كل ما تحتاجه ابنة عمي كاترين ، وتدليني على كيفية الحصول عليــه . انا اعلم انه يجب ان يكون لديها احزمة ، ثلاثة على الاقل . اما كيف تصنع هذه الاحزمة ، واما كيف تكون هــذه الاحزمة ، فلست اعلم عن ذلك شيئاً . وهي بحاجة الى اشياء كثيرة اخرى تعلمين انت بها ، امـا انا فلا علم لي بها حقاً . ولكنني اقول صادقاً بانني مستعد لشرائها مهما كلفتني من ثمن ... اما فيما يتعلق بارسال ابنة عمي كاترين الى هنـا فبامكانك ، يا سيدتي ان تتصرفي بالامر كما تشائين وكما يحلو لك . كم اتمنى ان يكون لكاترين معرفتك وخبرتك لتقوم ببعض الاعمال النافعة عندما تأتي الى هنا ، ولتستطيع ان تساعدني في كثير من الامور ... وقد كتبت لي باسيدتي عن عطف سيدي الشامل على كاترين ومعاملته الحسنة لها الخ . والحق انني قد سررت بذلك سروراً عظيما ، ودعوت الرب ان يشكر له صنيعه هــذا ويعينه على الاستمرار عليه .. فقد كان دائماً محباً لها ، حفياً بها . كما دعوت الرب ان يعينها على ان تكون اهلا لمعاملته هذه ، بسلوكها الحسن ، وميلهـــا النسوي الى التنظيم والتدبير . وبامكانها ان تفعل ذلك اذا ارادت . وهذا ما يقوله عنها كل من يعرفها ويذكرها بالخير . »

ان رنـــة الفخر والاعتزاز التي تنطلق من الجملة الاخيرة لتمتعنا

وتخلبنا مثلما يمنعنا هذا الضجر الهلوع الذي يستولي على الرجـل وهو يواجه مشكلة اختيار احزمة لخطيبته . والكتاب الذي ارسله الى السيد وليام ستونر ، في اليوم نفسه ، يفوق هذا خلابة وامتاعا . وهو يبدو في الرسالة مرتبكا بعض الشيء ، بمـا كان مستولياً عليه من فرح واعتراف بالجميل ، متأسفاً ، غاية الاسف ، على ان اعماله حرمتـه من زيارته ، وهو يرجو لافراد الاسرة صحة جيدة . ويقول : « انا كعازف الناي الحزين . عندمـا ابدأ عملا لا استطيع ان اتركه . ولكنني ادعو ربنـا المبارك ، مرة اخرى ، ان يقويك ويعينك . » وعن كاترين كتب يقول :

« فهمت من رسالة سيادتكم الكريمة ما ذكرتموه عن سلوك كاترين معكم، ومع سيدتي زوجتكم، ومع الجميع الخ، واقول الحق انه مما يفرحني جداً ويملأ قلبي راحة وسروراً ان اسمع ذلك عنها . وانا ادعو ربنا المبارك ان يبقيها محفوفة بالفضائل ، ممتعة بالصحة والعيشة السعيدة ، برحمته ورضاه . واسأله ان يجعل الجنة ثواباً لك على حسن معاملتك لها ، ونصائحك الطيبة الصائبة . تلك كانت امنيتي القديمـة . فلولاك لما اصبحت كاترين طيبة النزعات ، كريمة التصرفات ، فاضلة . فلها من صباها الغض شفيع ... سيدي تذكر جيداً ما كتبته لي عن ابنـة عمي كاترين . واصدقك القول بانني عندما التقي بها ، ساخبرها عن كل كلمة . ان خورينا هـذا سيعلن ، بمعونة الرب ومشيئته ، عن زواجنا بعد عشرة اسابيع او اقل من ذلك . وعندما يحين هذا الوقت ساكون قد استعددت غاية الاستعداد وانجزت كل مـا يجب عمله ، بمشيئة الرب وبركتـه . وأرجو ان تكون هي كذلك . وارجو ان تصدقني فيما اقوله لك صادقاً . »

كتبت هذه الرسالة في ٢٤ حزيران سنة ١٤٧٨ . وتزوج توماس ابنة عمه كاترين الصغيرة ، على الارجح في شهر آب او شهر ايلول . فقد ذكرت السيدة اليزابيث ، في رسالة الى زوجها بتاريخ اليوم الخامس من تشرين الاول ، تقول : « ابني بتسون وزوجته يقدمان لك احتراماتهما . » على ان هذه الطفلة البائسة سرعان ما اخذت تتعلم مآسي الحياة ، وتعاني احزانها . فبعد عام من زواجها مرض توماس بتسون مرضاً خطيراً ، وكان عليها ان تمرضه ، وتعنى به ، وتشرف على اعماله الكثيرة ، كأنها سيدة مكتملة العمر ، ناضجة الخبرة ، لا عروساً في السادسة عشرة . وزيادة على ما تقدم فقد كانت تتوقع ميلاد ابنها البكر . ولم يخل موقف وليام ستونر من مرض شريكه من عنصر الفكاهة . فقد كان موزعاً بين القلق على حياة صديق عزيز وبين القلق الاعظم على ان يموت بتسون قبل ان يسوي ما بينهما من تعهدات تجارية . ونسمع عن مرض بتسون ، وعن مشاغل كاترين المضنية ، من رسالة كتبها الى ستونر احد وكلائه : « سيدي . كنا في ستيبني ، في الساعة التاسعة ، حسب أوامر سيادتكم . وقد زرنا السيد من تونا ففرح بقدومنا ، ورحب بنا . والحقيقة انه ، كما بدا لي من تصرفه ، لن يبقى في الدنيا طويلا . وهذا هو رأي السيدة بيفايس وغيرها من السيدات الكريمات ، وعمه . وقد دعونا له بالشفاء ، وتمنينا له الراحة والطمأنينة . وبعد ان بذلنا في مواساته ، مواساة قلبية صادقة ، جهد ما نستطيع ، باسمك وباسم سيدتي ، خرجنا من غرفة المريض الى الصالون . اما هو فقد نام نوماً عميقاً ، وكان مضطرب النفس جداً . وفي الساعة الحادية عشرة دعوت عمه من فراشه الى غرفة السيد . وقد طلبت منه ، ومن سيدتي زوجته ، ان يخبراني عن رأس المال

وعن المعاملات التجارية للسنة ونصف السنة المنصرمة . وقد اعترف بان ما لديه من رأس المال يبلغ ١١٩٠ جنيها . وسيكون هذا المبلغ جاهزاً عندما تقطع معاملتك معه ، وحالما تقدم له ، او لمن سيخلفه في العمل ، وثيقة بابراء الذمة . اما عن كيفية استخدام رأس المال هذا فهنالك دفتران : سجل في احدهما المشتريات وقيمها ، وسجل في الآخر المبيعات وقيمها . وهو يشهد الله والشيطان على صحة ما فيها. وهذان الدفتران موجودان في حوزة سيدتي زوجته مع صكوك المعاملات والسندات المتعلقة بضمانات مختلفة يجب دفعها لتجار مختلفين كما يقول السيد المذكور ... اما فيما يتعلق بأواني المائدة الفضية والذهبية فقد قمت انا وسيدتي جين (يحتمل ان تكون جين رينشي أخت كاترين الصغرى) برفعها جميعاً ، ما عدا الضروري منها للاستعمال ، ووضعها تحت ضمانة كفيل . »

ويخبر سيده بان بتسون قد ارسل له ولسيدته مبلغين من المال مقدار كل منهما حوالي ثمانين جنيهاً كان مديناً بهما لهما . ثم يضيف :

« واملي بيسوع ان يظل على قيد الحياة حتى يعود الرسول . ولم يقرر الطبيب فيما اذا كان سيعيش مدة اطول . وسيكون الاوصياء عليه ثلاثة اشخاص : سيدتي زوجته ، وهمفراي ستاركي مسجل العقود في لندن ، وروبرت تيت تاجر من كاليه . وعلى الرغم من هذا فقد حاولت ، بحضور سيدتي جين ، ان اقنعه بالغاء هذا القرار ، وتعيين سيدتي زوجته وحدها وصيـــة . ولا استطيع ان اخبرك الان بما سوف يتم ، ولكنني سأبذل جهد طاقتي ببركة الله ونعمته . »

هنالك شيء غير متوقع ، يذكرنا بالنسر وهو يقع على الجيفة ،

في الاستيلاء على ادوات المائدة ، وفي اجتماع الدائنين حول فراش رجل يحتضر ، كان ابداً عظيم الحب لاسرة ستونر ، شديد التعلق بها ، مخلصاً لمصالحها ، وهو الان ختن سيدة الاسرة . ولا تخلو محاولة جعل الزوجة الشابـــة ، التي عمرها ستة عشر عاماً ، الوصية الوحيدة على الميراث حتى تكون في قبضة اسرتها تماماً ، وحرمانها من الافادة من مشورة تاجرين مجربين بعيدين عن المصلحة — من نية ماكرة خبيثة . وقد استمرت المؤامرة . وبعد ثلاثة ايام ارسل الوكيل رسالة ثانية الى سيده . ومن السار ان نلاحظ ان السيدة المشاكسة كروك ، ام السيدة اليزابيث ، لم تكن غير معنية بمدى صبر بتسون اثناء تلك الزيارات التي كانت تسلط فيها عليه ما يجود به لسانها السليط من هزء وسخرية:

« اما عن اخبارنا هنـــا ، فأملي بالرب ، انها حسنة . في يوم الخميس قدمت سيدتي كروك الى ستيبني ، وجاءت معهـــا بالسيد برينكلي الطبيب ليفحص بتسون . والحق ان بتسون كان مريضاً جداً . وقبل ان يغادره الطبيب اعطاه لزقات يضعها على رأسه وعلى معدته واحشائه ما جعله ينام ليلته تلك بكاملها نوماً هادئاً مريحاً . ثم زاره مرة ثانية يوم الجمعة وكان قد تحسن تحسناً ظاهراً لمسه كل من حوله وبالرغم من كل هذا فان الطبيب لم يستطع ان يقرر بعد فيما اذا كان المريض سيشفى ام سيموت . ولكن ربما امكنه ان يبقيه حياً الى ظهر يوم الثلاثاء وقد تعهد هو بدفنه . اما السبب الـــذي دعاني الى تأخير الكتابة اليك حتى الآن فهو انني لم اكن متيقناً . سيدي : منذ قدومي وسيدتي جين الى هنا بذلت جهود خاصة في السر لاحباط ما جئنا من اجله . ولا استطيع اخبارك عن تفاصيل هذه الامور بوضوح . على ان سيدتي بتسون ، بغض النظر عن كل شيء وبغض النظر من المشورات

التي تقدم لها ، واثقة من عطفك وعطف سيدتي الأبوي . واذا فارق المريض الحياة فسوف تصلك أخبار ذلك بالسرعة التي تنقل فيها نصائحك وارشاداتك لها . وسواء توفي المريض ام بقي على قيد الحياة ، فانه من الضروري ومن الواجب ان لا تغادر سيدتي جين اختها ، الى ان يتضح اليقين في امر المريض . فان اناساً مختلفين ، ستعرفهم سيدتي فيما بعد ، قد بذلوا جهودهم وما زالوا يبذلونها ، لحملها على القيام بأعمال تخالف ما نريد ، لو لم نصل نحن الى هنا في الوقت المناسب ، والسيدة جين تستحق الشكر الجزيل . »

ولكن هذه المؤامرات كانت سابقة لأوانها . فقد شفي بتسون من مرضه لحسن الحظ . وكتب هينهام «التلميذ» في ١٠ تشرين الاول يقول : « تماثل سيدي بتسون للشفاء ، ليتبارك يسوع . وقد زال خطر عودة المرض اليه تماماً . وهو يتناول الاطعمة المغذية كما ينبغي ولم يزره أحد من الاطباء ، اذ لم تعد به اليهم حاجة . » على انه حدثت وفاة اخرى فصمت عرى هذه الشركة القوية التي كانت قائمة بين اسرة ستونر وبين توماس بتسون . فقد توفيت ، في نهاية السنة ، السيدة اليزابيث ، المرأة اللطيفة ، المسرفة ، المحبة ، العطوف. والعجب ان تؤدي وفاتها الى قطع الشراكة التجارية بين زوجها وختنها ويقتصر ذكر توماس بتسون ، في أوراق ستونر ، منذ الآن على اشارات متقطعة عن ديونه لستونر . ومما لا شك فيه انه قد اشترى اسهم ستونر في اعمالها المشتركة . فهو يقر ، في العاشر من آذار سنة ١٤٨٠ ، بانه مدين لستونر بمبلغ ٢٨٢٥ جنيهاً وتسعة شلنات . ونراه في سنة ١٤٨٢ ما زال مديناً له بمبلغ ١٢٠٠ جنيها . ومن المستحيل علينا ان نحزر السبب الذي جعل هذه العلاقة ، التي كانت قائمة على

الصداقة الشخصية الصميمة وعلى الشراكة التجاريـــة الوثيقه ، تنتهي هذه النهاية المفاجئة . فكما يلاحظ محرر « رسائل ستونر » « ان نزاهة بتسون واخلاصه ، اللتين تفصح عنهما رسائله ، لا تجيزان لاحـــد ان يلومه . »

هذه صورة لحياة بتسون الشخصية والعائلية . ولكن هذه الصورة لا تحدثنا الا قليلا (فيما عدا اشارات عابرة عن شركة تجار الصوف ، او عن اسعار صوف كوتسوولد) عن تلك الشركة العظيمة التي بدأنا بها هذا الفصل . وحيث اننا نريد ان نتناول بتسون ــ باعتباره فرداً من الافراد ونموذجاً ــ فقد وجب علينا ان نلفت الى حياته الاجتماعية والتجارية ، وان نحاول ان نكتشف ، من خلال الادلة والشواهد غير المباشرة ، كيف كان تاجر الصوف يقوم بأعماله ويصرف تجــارته . كان على تاجر الصوف ان يقوم بأمرين : ان يشتري الصوف من منتج انكليزي ، وان يبيعه لمشتر اجنبي. كان قسم من اجود الاصواف الانكليزية يرد من كوتسوولـــد . فاذا كنت تاجر صوف فسوف تمتعك المساومة عليه ، سواء كنت تبغي جزاز الصيف ، او جـــلود الخريف ، بعـــد ذبح الاغنام . كان توماس بتسون يركب الى غلوسترشاير ممتطياً صهوة جواده الاشقر الكريم ، في جو الربيع الناعم الطري ، ورائحة الزعرور تعبق من حوله وترافقه على امتداد الطريق. وهنالك تجار صوف آخرون يسافرون الى اماكن أبعد مدى ــ الى وديان يورك شاير الطويـــلة ــ ليساوموا الرهبان السسترشيين على الصوف الذي يحصلون عليه من قطعان أغنامهم الكثيرة . ولكنه وآل سيلي كانوا يميلون الى جلود كوتسوولد (وقـــد شحن في شهر تموز الى لندن ٢٣٤٨ جلداً ، باسم السير وليام ستونر وتوماس

بتسون ، في سفينة تدعى « يسوع » لنـــدن ، وقائدها ، جون لولينغتون) .

كان شهر ايار شهر شراء الصوف. وكانت نورثليتش اعظم سوق يجتمع فيها تجار الصوف ودلالوه . فلا عجب اذن ان تمتلىء كنيسة نورثليتش بلوحات تجار الصوف النحاسية ، فلقد طالما ركعوا فيهـــا مصلين ، ولطالما ازدحمت القرية بالبائعين والشارين حيث يتبادلون الطلبات ، ويفحصون العينات . وكان آل سيلي يشترون ،في الغالب، من بائِعـَين للصوف من نورثليتش هما : وليام مدونتر، وجون بوش. وكانت العلاقات ، بين دلالي الصوف وتجاره ، رضية ، في الغالب ، متينة الاواصر. وقد يحاول مدونتر، أحياناً ، ان يزود الزبون بعروس الى جـــانب تزويده بشحنة من الصوف . ولم تكن الشابات من البالغات سن الزواج ، غير راغبات في ان يفحصن الخطاب في سهرة ممتعة في « الفندق » حول قنينة من النبيذ . صحيح ان مدونتر كان عرضة للتمرد عندما يتأخر التجار في تسديد ما عليهم قبله من الديون، ولكننا قد نجد له عذراً . اما توماس بتسون فكان يفضل صوف روبرت تربوت من لامبرتون . كما كان يتعامل ايضاً مع المدعو جون تيت ، وهوايت من بروداوي (وهي قرية اشتهرت بالصوف) ، وجون الميس ، وهو تاجر من تجار هينلي كانت اسرة ستونر تعرفه معرفه جيدة . كان مدونتر وبوش والميس دلاّلين ، اي وسطاء بين الفلاحين الذين يملكون الصوف وبين التجار الذين يشترونه . على ان تجار الصوف كانوا يتعاملون في الغالب مع الفلاحين مباشرة ، صغاراً وكباراً . وقد نشأت من الزيارات السنوية بين هذين الفريقين صداقة متينة الاواصر . وكان سكان وهاد يورك شاير ووديان كوتسوولد

يتمنون حلول هذه الزيارات ويستعجلونه وينتظرونه . وانها لالتفاتة كريمة ان يترك رينشارد رسل ، احد مواطني مدينة يورك وتجارها : (٢٠ جنيهاً توزع على فلاحي بوركيسوالدالذين كنت اشتري الصوف منهم . وتوزع بنفس الطريقــة ١٠ جنيهات على فلاحي لينديشي كذلك . » (١٤٣٥)

تقدم لنا « رسائل سيلي » معلومات وافرة عن شراء الصوف في نورثليتش . ففي ايار من السنة التي انتهت فيها شراكة توماس بتسون وستونر كان ريتشارد سيلي العجوز يقوم هنــا بأعماله التجارية ، ويكتب الى ابنه « جورج سيلي في كاليه » :

« احييك تحية طيبة.لقد استلمت رسالتك التي ارسلتها من كاليـة والمؤرخة في ١٣ ايار (١٤٨٠) ، وفهمت منهــا جيداً ذهابك الى السوق ، وبيعك الصنف الوسط من الصوف العائد لي والذي يرغب فيه جون ديسترمير وجون اندرباي . وعلى هــذا فسأكون ببركة الله مشغولا جــدا . اذ سأشحن ال ٢٩ الرزمة Sarplers المذكورة التي اشتريتها من وليــام مدونتر من نورثليتش . و ٢٦ رزمة اخرى ، وهي من الصوف الجيد كما اخبرني ول بريتين رزام الصوف .وثلاث رزم اشتريتها من الخوري وهي من النوع الجيد الذي لم اجــد احسن منه في العام الماضي ، وقد شحنتها قبل عيد الفصح الماضي . وسيبدأ الشحن من لندن، ولكنني لم اشحن اي شيء بعد على انني سافعل ذلك بعد انقضاء الايام المقدسة ، وسوف أخبرك عن تكاليف الشحن وغير ذلك من النفقات . سافر اخوك ريتشارد سيلي هذا اليوم الى نورثليتش ليشتري صنفاً من الجلود لي وصنفاً اخر من الجلود لك ويبعثها . »

وهو يكتب في مناسبة اخرى : « تنصحني في رسالتك ان اشتري صوفاً من كوتسوولد . وبناء على طلبك هذا ساشتري محصول جون سيلي البالغ ٣٠ كيساً واربعين كيساً من ول مدونتر من نورثليتش . ونصحتني ان اشتري اكثر من هــذا . اسعار الصوف في كوتسوولد مرتفعة جداً . فسعر « التود » (١) الواحد يبلغ ١٣ شلناً و ٦ بنسات وقد قصد كوتسوولد، هذه السنة عدد كبير من التجار لشراءالصوف. مما لم تشهد هذه المدينة مثلا له في السنوات السبع المنصرمة . »

وكان هنالك تاجر منشعب اللحية ،
ثيابه مفوقة الالوان ، يجلس على حصانه
منتصباً رفيعاً ،
وينتعل حذاءين « مبكلين » باناقة .
وقد تحدث عن ارائه وعن مهنه وصناعاته ،
بلهجة حازمة جدية وكيف انه لم يخسر ابداً

وغالباً ما كان يلتقي بتسون باخوانه تجار الصوف . وفيهم التاجر المترصن ريتشارد سيلي وابنه جورج الذي يركب وصقره « ميغ » على ذراعه . والذي كان يملك حصانا يدعى «بيارد» واخر يدعى«باي» . وربما التقى ايضاً بجون مارتون من هولم الواقعة قرب نيوارك ، وهو تاجر الصوف الفخور الذي كتب على زجاج شبابيك داره الملون هذا الشعار ، وجعله على هيئة باقة من الازهار :

احمد الرب دائماً
سدت الاغنام كل النفقات

---

(١) Tod وزن قديم كان يستعمل لوزن الصوف. وهو عادة يساوي ١٢،٧٠ كيــلو غرام . (المترجم)

وان كان من غير المحتمل ان يوغل جنوباً حتى يصل الى كوتسوولد لشراء ما يحتاجه من الصوف . وكان بتسون يلتقي على الطريق احياناً بمنافسين من الفلمنكيين البدينين ، الاقوياء الرابطي الجأش ، ومن اللمبارديين الناعمين ذوي العيون السود ، والاذرع التي تشارك السنتهم في الحديث ، الذين لا داعي لوجودهم في كوتسوولد البتة ، والذين كان يجب عليهم ان يشتروا الصوف من السوق في كاليه . ولكنهم جاءوا ، وجميع الانكليز غاضبون من حيلهم ، وربما كانوا اشد غضباً لنجاح تجارتهم . كتب ريتشارد سيلي العجوز في ٢٩ تشرين الاول ١٤٨٠ « لم ارزم صوفي في لندن بعد . ولم اشترِ هذه السنة شيئاً من الصوف ، فان صوف كوتسوولد قد اشتراه اللمبارديون . ولهذا اراني غير مستعجل على رزم ما لدي من الصوف في لندن . » ويكتب له ابنه من كاليه في ١٦ تشرين الثاني: «لا يوجد الا القليل من صوف كوتسوولد في كاليه . وقد علمت ان اللمبارديين قد اشتروه في انكلترا . » صحيح ان افراد اسرة سيلي ، وغيرهم من التجار الانكليز ، لم يكونوا غير راغبين في عقد صفقات تجارية خصوصية مع المشترين الاجانب في انكلترا بين الحين والحين . فنرى، بعد سنتين ، وكيلهم وليام سيلي ، يكتب لهم قائلا ان تاجرين فلمنكيين يحاولان شراء الصوف في انكلترا خلافاً للقانون ، وان من بيدهم الامر في كاليه أخذوا علماً بذلك . وعلى هذا فيجب على سيديه ان يحتاطا للامر ويجعلا ويليكين وبطرس بيل يدفعان ما عليهما في كاليه . « اما فيما يتعلق بمعاملاتكما التجارية فلا يعلم بها احد دون ان يفحص دفاتر بطرس بيل . » ولا شك في ان بتسون المستقيم كان يحاذر أمثال هذه الحيل ويبتعد عنها . وكان يشمئز بصورة خاصة

من اللمبارديين المرابين ويستقبح هذا الروغان المالي الـــذي يجيدون اصطناعه ليخدموا التجار الانكليز . أفلم يشتروا الصوف نسيئة في انكلترا ، متجولين حيثما شاءوا في كوتسوولد ؟

« ففي منطقة كوتسولد وبقية انكلترا كانوا يتنقلون ويبتاعون ما يريدون احراراً وعلانية ، وخيراً ممـــا يمكننا ، نحن الانكليز ، ان نفعل » .

ثم ألم يحملوا ذلك الصوف المشترى بالدين الى الفلاندرز (الاراضي الواطئة) ويبيعوه نقداً بخسارة خمسة بالمئة . ثم يسلفوا ما يتقاضونه من مال بفائدة فاحشة الارتفاع الى التجار الانكليز انفسهم ، حتى اذا حل موعد الدفع في انكلترا يكونون قد حققوا ارباحاً طائلة؟

وهكذا ، لو سمحنا بذلك ، لمسحوا أنوفنا باردانا .
وقد لا يكون هذا المثل مهذباً ولا لائقاً ، لكنه ،
في الغالب ، هو الحقيقة .

وقد كان على توماس بتسون ان يشرف بنفسه على رزم ما لديه من الصوف ، وشحنه الى كاليه . وهنا كان يجد نفسه مرتكباً وسط هذه الانظمة والقوانين التي تضعها الشركة والحكومة ، والتي هي ابداً بالمرصاد لكل غش في رزم الصوف او في بيان اوصافه . فالصوف يجب ان يرزم في المنطقة التي ينتج فيها . وكان يوجد قوانين صارمة ضد مزج الصوف بالشعر والتراب والنفاية . ويطوف الجباة ـــ الذين تعينهم الشركة للمناطق المختلفة التي تنتج الصوف ويصادق على تعيينهم ديوان مالية الدولة ـــ المناطق التي بعهدتهم ، ويختمون كل رزمـــة بحيث لا يمكن فتحها دون ان يكسر الختم . ثم تنقل بالات الصوف

الكبيرة على ظهور الخيل والبغال ، على الطرق العمومية القديمة المارة بويلتشاير وهمبشاير داون ، التي كان الناس يساكونهـا قبل الفتح الروماني . ومن هنالك تمرّ على سَراي وَكِنت واصلة موانىءمدواي عن طريق الحج . » وفي كل ميناء تجد جبـاة الجمارك على استعداد لتسجيل اسماء التجار المصدرين للصوف ، الى جـانب مقادير الصوف واوصافه التي يشحنها كل واحد منهم . ويأتي قسم من الصوف الى لندن نفسها ، حيث يوجـد لكثير من تجار الصوف مكاتب في مارك لين (وهو تحريف عن مارت لين [1]) . ويوزن الصوف في ليدنهول لحساب مقادير الضرائب الجمركية والمعونة المفروضة عليه للحكومة . وكان يعاون توماس بتسون في انجاز هذا الجانب من العمل ثلاثة معاونين ، او « تلاميذ » كما كانوا يدعون انفسهم، وهم توماس‌هينهام ، وغودارد اوكسبردج ، وتوماس‌هاوليك وكان توماس بتسون يكنّ للاخير منهم حباً عميقاً . لان هذا الشاب كان لطيفاً مع الصغيرة كاترين ريتشي . كان هؤلاء الرجال الثلاثة يقضون بعض الوقت في مستودع ستونر في لندن ، وبعض الوقت في مكتبهم في كاليـه . وكانوا يجنبون بتسون كثيراً من المصاعب والمشقات . فقد كانوا خبيرين بمراقبة حزم الصوف في لندن ، عليمين بطرق بيعه في كاليه .

كان الصوف ، بعد أن يرزم ويوزن ويعلّم ويقدر موظفو الجمرك الضرائب المفروضة عليه ، يحمل الى كاليه على سفن كاليـه نفسها او على سفن الموانيء الصغيرة المتنـاثرة على السواحل الشرقية او الجنوبيـة الشرقية من انكلترا ومعظمها الآن

(١) اي سوق لين (المترجم)

عبارة عن قرى صغيرة . فلم تكن السفن لتبحر من هل وكولتشستر فحسب ، وانما من برايتلينغسي ، ورذرهـــايث ، ووولبرسويك في سوفوللك ورينهـــام في ايسيكس ، وبرادويل ، وسيدستون وميلتون ونيوهايت وميلهول ، كذلك . ففي آب من عام ١٤٧٨ تعاقد آل سيلي مع اصحاب واحد وعشرين سفينة مختلفة على نقل صوفهم من جزاز الصيف، واستمر شحن السفن بالصوف طوال الصيف، وامتد الى عيد الميلاد . على ان معظم ما كان يرسله التجار في فصل الشتاء كان من جزاز الصيف ، والجلود . كانت الاغنام تذبح يوم عيد القديس مارتن (١١ تشرين الثاني « المترجم ») وتأخذ ربات البيوت بتمليح اللحوم استعداداً لفصل الشتاء بينما يسلم الفلاحون الصوف والجلود لتجار الصوف الذين كانوا قد ساوموا عليها منـــذ زمن . وغالباً ما تحدثنا رسائل التجار وذفاتر حسابات الجمارك عن اسماء هذه السفن الصغيرة الجريئة ، وتصف لنا ما عليها من بضاعـــة . ففي تشرين الاول من عام ١٤٨١ ، مثلا ، كان آل سيلي يشحنون كمية من الجلود على ظهر احدى السفن : « سيدي الجليل . بعد تقديم فائق التحية والاحترام ، اود ان اعلمك بأن سيدي قد شحن ما لديه من الجلود ، في تشرين الاول ، من ميناء لنـــدن... وسوف تستلم هذه الجلود وتدفع نفقات شحنها بعون الرب . سبع رزم مجموع ما فيها ٢٨٠٠ جلـــداً ، بوساطة « ماري » اوف لندن ، وقبطانها وليام سورديفيل . وهي موضوعة في مؤخر السفينة قرب الصاري . رزمة منها موضوعة فوق الرزم جميعاً ، وبعض جلودها ، وهي من محصول الصيف معلمة بحرف « O » وتحتها ثلاث رزم تعود لوليام دالتون وتحتها الرزم الست الباقية لسيدي . وهناك سبع رزم ونصف الرزمة

من جلود كوتزولد مجموع ما فيهـــا ٣٠٠٠ جلد ارسلت بوساطة « كريستوفر » اوف رينهام ، وقبطانها هاري ويلكينز. وهي موضوعة في مؤخر السفينة قرب الصاري ويوجد تحتها ٢٠٠ جلد تعود لويلشر فيلدز وهو تابع وليام ليندز اوف نورثامبتون . والحاجز بينهما حبال صغيرة . وكذلك ست رزم مجموع ما فيها ٢٤٠٠ جلـــد بوساطة « توماس » اوف ميدستون وقبطانها هاري لاوسون ، خمس رزم منها موضوعة امام الصاري مباشرة ، ولا يوجد شيء فوقها . اما الرزمة السادسة فموضوعة في مؤخر السفينة . ويوجد بين الرزم جلود من محصول الصيف وهي معلمة بحرف « O » ، وست رزم مجموع ما فيها ٢٤٤٠ جلد ، بوساطة « ماري غريس » اوف لندن . وقبطانها جون لوكينغتون وهي موضوعة في مؤخر السفينة تحت جلود توماس غرونغر ويفصلها عنها إشارة حمراء . فيكون مجموع ما شحنه سيدي في هذا الوقت ستا وعشرين رزمة ونصف الرزمة ؛ وعلى هذا يبقى ٥٦١ جلداً من جلود الريف وسوف نعلمها بحرف « C » وسيبقى من محصول الصيف اكثر من ٦٠٠ جلد . ولكن قسماً منها سيبقى دون شحن . فلدينا رزمتان لم نستطع ان نجد لها مكاناً في أية سفينة. وسوف نعلم جميع الجلود من محصول الصيف بحرف « O » .سيدي : «سوف تستلم بوساطة « ماري » اوف رينهام وقبطانها جون دانيال صندوقك ومعه متاعك ، وكميـــة من جبن ايسيكس معلمة بشارة سيدي . »

وهكذا تمضي الرسالة مفصلة عدد الجلود المشحونة بالطريقة نفسها في «ميخائيل» من هل ، وفي «توماس» من نيوهايث ، حيث تراها « موضوعة الى جانب الصاري تحت جلود يتسون » وقد بلغ عددها جميعها ١١٠٠ جلد .

ما أشد مـــا تبعثه هذه القائمة باسماء السفن في النفس من قوة وانتعاش ، ان حمل السفينة هو اكثر المواضيع رومانطيقية ، سواء كان هذا الحمل قردة وعاجاً وطواويس او « صواني رخيصة من الصفيح » . ومنذ ان ابحر جيسون الى كولتشيس ، اصبحت جزز الصوف من بين اكثر شحنات السفن رومانطيقية . ما أشد رائحة الملح التي كانت تنبعث من اولئك البحارة الاشداء ــ هنري ويلكنز قبطان « كريستوفر » من رينهام ، وجون لولينغتون قبطان « جيزو » من لندن ، وروبرت أوين قبطان «توماس» من نيوهايث ومن اليهم — وهم يبحرون من الخلجان الصغيرة المتألقة، ملوحين بأيديهم لزوجاتهم وحبيباتهم ، وقد امتلأت سفنهم بأكياس الصوف الجيد موضوعة على ظهر السفن او في عنابرهـــا . كان اولئك البحارة جميعاً عزيزين على قلب تشوسر، اثيرين عنده :

« وفي مهارته المد والجزر
والتيارات ، واكتناه الاخطار المحدقة به ،
ومعرفة الموانيء ، وحالات القمر ، وقيادة السفن ،
لم يكن له مثيل من هل الى قرطاجه .
وكان صلب العود ، قوى الشكيمة ، حكيماً في تصريف اموره
وما اكثر ما استقبل بوجهه من العواصف الهوج .
وكان يعرف كل معتصم بين غوتلند ورأس فينيستر
وكان يعرف كل خليج في بريتاني واسبانيا
وكانت السفينة التي يملكها تسمى «موديلين»

ومما لا شك فيه ان هذه السفن تشبه « مرغريت سيلي » ، السفينة

التي اشتراها الاخوان سيلي واطلقا عليها اسم والدتهما بمبلغ قدره ثمانية وأربعون جنيها ، ما عدا حبال السفينة وأجهزتها . وكانت تقل قائداً ورئيس نواتي وطباخاً وستة عشر بحاراً مرحاً . وكانت شديدة الاحتراس من القراصنة ، شديدة المراقبة لهم . وكانت مسلحة بمدفع وأقواس وحراب وستين سهماً واثنتي عشرة أوقية من البارود ؛ وكانت مزودة بالسمك المملح والخبز والطحين والبيرة . وكانت تسعى ذهاباً واياباً بتجارة آل سيلي الى زيلند والفلاندرز وبوردو وكانت هذه السفن تزن مئتي طن في أغلب الظن . على ان بعض السفن كانت اصغر منها كثيراً ، وأخف وزناً . فحرر « رسائل سيلي » للعليم يخبرنا انه « كانت سفن الموانئ الصغيرة الواقعة في ميدواي ما تكاد تزيد عن الثلاثين طناً لتمخر النهر بامان . ولم تكن « توماس » من ميدستون غير صندل (مركب للنقل) والا لما كان بامكانها ان تمر من تحت جسر آيلزفورد . » على ان هذه السفن كانت تمخر عباب القنال الانكليزي ، وتزوغ عن طريق القراصنة بخفة ونشاط ، وان كان توماس بتسون غالباً ما يكون في كاليه ثائر الاعصاب قلقاً على سلامة وصول السفن المشحونة صوفاً . وقد كان كتاجر تشوسر :

من رأيه ان يظل البحر حراً مهما كلف الامر
ما بين ميدلبرغ وأورويل .

وكثيراً ما كان يقف بتسون على الرصيف ، والى جانبه جورج وريشارد سيلي ، محدقاً في الآفاق البعيدة ، والريح المالحة تهب عليه من البحر وتعصف بالريش من قبعته . وعندما كانت السفن تلوح لناظره من بعيد يتعالى لسانه بالشكر للرب . وقد كتب ذات مرة

الى ستونر من لندن : « سيدي . الحمد للرب الكريم . لقد علمت علم اليقين بأن صوفنا الذي شحناه قد وصل ... الى كاليه . كان بامكاني ان ابقي الخبر حتى ابلغكم اياه بنفسي عند قدومي لطرفكم ، فهو خبر طيب يستحق البشارة . ولكنني لم اجرؤ على ارجائه ، فان سيادتكم الان ولا شك ستسرون بهذا النبأ سروراً عظيماً . والحقيقة انني مسرور جداً بهذا الخبر واشكر الرب من كل قلبي ، عليه ... » وكتب كذلك « التلميذ » توماس هينهام، بعد ثلاثة اسابيع ، يقول: « غادرت سندويتش في اليوم الحادي عشر من نيسان ، وبلغت كاليه يوم خميس الاعتراف الماضي مع سفن الصوف . ليتبارك يسوع كثيراً فقد استلمت صوفك سالماً . واحب ان أضيف الى ما تقدم ، اذا كان يسر سيادتكم ان تعلم ذلك ، بأنني قد استلمت صوفك كاملا غير منقوص ، وبحالة جيدة كصوف سائر التجار في هذه السفن . وقد يسرك ان تعلم ايضاً انني اعتنيت بخزن الصوف قبل حلول عيد الفصح . وقد يسرك ان تعلم كذلك بأن جميع البحارة راضون ، مسرورون، وقد دفعت لهم جميع نفقات الشحن . » ويكتب الاخوان سيلي على هذه الشاكلة : « في هذا اليوم ، اليوم السادس عشر من آب قدم الى كاليه اسطول الصوف من لندن وايبسويتش سالماً والحمد للرب . وقد افرغ جزء من الشحنات في اليوم نفسه، وما زال ارتفاع المد حسناً والحمد للرب ...» وتخبرنا رسائلهم عن المخاطر التي كانوا يخشون ان تتعرض لها السفن . فقد كتب ريتشارد الى اخيه « العزيز المحبوب جورج » في ٦ حزيران ١٤٨٢ : « طورد روبرت ايريك وسكوت بين كاليه ودوفر . ولكنهما نجوا بصعوبة بعد ان كادا يهلكان . » ولدينا أخبار مسجلة عن عدد من هذه المطاردات البحرية.

كما اننا نسمع ايضاً عن صوف تشعل فيه النار عمــداً ، او تقذفه العواصف الى البحر .

وكثيراً مـــا يسافر توماس بتسون والاخوان سيلي عبر القنال الانكليزي في السفن التي تحمل المسافرين والرسائل . وكانوا يستطيعون الاقامة في كاليه ويكادون لا يشعرون فيها بغربة . ولم يكن يسمح للتجار الانكليز ان يسكنوا في اي محل يشاءون في كاليه . فقد كانت لدى شركة تجار الصوف قائمة بـ « المضيفين » المرخصين الذين يمكن للتجار الانكليز ان يقيموا في بيوتهم . وكان يقيم عند المضيف الواحد، عادة ، عدد من التجار . وكان كبار التجار ، الاقوياء ، الوقورين ، المحترمين ، يتناولون طعامهم على مائدة عالية . امـــا صغار التجار فيتناولون طعامهم على موائد صغيرة موضوعة في جوانب القاعة . وكانوا يختصمون أحياناً ، على شروط الاقامة ، كما تخبرنا الرسالة التي كتبها وليام سيلي الى ريتشارد وجورج في لندن :

« سيدي . يسرك ان تعلم بأنه حدث خلاف بين مضيفنا توماس غرونغر وبين زملائنا التجار المقيمين في منزله . فقد وعدنا توماس غرونغر بأن يتقاضى من كل واحد منا ، ثمناً لطعامنا ، ثلاثة شلنات واربعة بنسات فقط في الاسبوع على المائدة العاليـــة ، وشلنين وستة بنسات فقط على الموائد الجانبية . وهو يخبرنا الآن بأنه لن يتقاضى اقل من أربعة شلنات في الاسبوع على المائدة العالية ، واربعين بنساً على الموائد الجانبية . وبناء على هذا فقد قرر زملاؤنا التجار ان يغادروا هذا المنزل . وسيسكنون في منازل مختلفة . فيقيم وليام دالتون في منزل روبرت تورني ، ورالف تبمينغتون و « رجل » السيد براون

أوف ستامفورد في منزل توماس كلارك . وعلى هذا فسيغادر جميع زملائنا المنزل ما عداي . ولهذا أردت أن أحيط سيادتكم علماً بالامر، لتتصرفوا كما يحلو لكم وكما تحبون . » على ان توماس بتسون لم يختلف مع مضيفه ابداً . ولم يكن هـــذا المضيف ليشكو من بتسون شيئاً سوى انه كان يطيل العكوف على رسائله الغراميـــة ، ويأتي الى العشاء متأخراً .

كان لتوماس بتسون من الاعمال في كاليه ما يستغرق أوقاته. فقد كان الصوف عند وصوله الى بر كاليه يفحص من قبـــل الموظفين الملكيين ليتأكدو من انه معنون ومعلم بصورة صحيحة . ثم يقوم رزاموهم المهرة بفحص اكياس الصوف ، وتفريغها واعادة رزمها وختمها من جديد . وقد كانت تلك اللحظات ، لحظات قلق وانشغال بال للتجار الذين كانوا يعرفون ان صوفهم يحتوي على انواع رديئة . ولكننـــا على يقين بان بتسون النزيه لم يغش أبداً . ولكن آل سيلي كانوا يعرفون الكثير عن حيل التجارة . ففي احدى السنين اخـــذ ضابط كاليه الكيس رقم ٢٤ ليفحصه وكان وكيلهم وليام سيلي يعلم انه يحتوي على صوف رديء ، فابدله سراً بالكيس رقم ٨ وكان يحتوي على صوف جيد وغيّر علامته ، وبذلك استطـــاع ان يكتب الى اسياده : « لقد قبل صوفكم بوساطة الكيس الذي قدمته له آخر مرة» ولا عجب ان يقول غوَر ان تريك (الذي معنى اسمـــه الحيلة) هو الوصي على تجارة الصوف .

لئن كان بعض الصوف ما زال محافظاً
على القيم والمقاييس القديمة
فقد رأيت كثيراً من الصوف

لم يحفظ لهذه القيم القديمة ولاء . (١)

وكان هنالك ايضاً الضرائب الجمركية والاعانات المالية التي يجب ان تدفع للمحافظ ولاتحاد تجار الصوف الذين يجمعانها ويقدمانها للملك. واخيراً تأتي المهمة الرئيسية لكل تاجر : بيـــع الصوف . كان من الطبيعي ان يفضل بتسون بيع الصوف باسرع ما يمكن من الوقت ، حالما تصل السفن . ولكن كان يحدث احياناً ان تكون السوق بطيئة فيبقى الصوف مكدساً لديه عدة اشهر . وكان الصوف الذي يجز في الصيف ويشحن في شهر شباط او قبل حلول شباط ، والذي يبقى غير مباع حتى اليوم السادس من نيسان ، يصنف : صوفـاً قديماً . وقد فرضت شركـــة تجار الصوف على التجار الاجانب ان يشتروا كيساً من الصوف القديم مع كل ثلاثة اكياس من الصوف الجديد . وبالرغم من ان التجار الفلمنكيين كانوا يتذمرون ويريدون ان يأخذوا كيساً من الصوف القديم من خمسة اكياس من الصوف الجديد ، فقد كان عليهم ان يرضخوا لهذه الاوامر والتدابير . كان بتسون ينهي قسماً كبيراً من اعماله التجارية في سوق كاليه نفسها ، حيث كان يلتقي بالتجار الفلمنكيين الوقورين من ابنـــاء الاسر الكبيرة التي تملك المقاطعات الزراعية ، والتجار العاديين من دلفت وليدن ، ودلالي الصوف من فلورنسا المشمسة ومن جنوا والبندقية . وكان بطرس ودانيال فان دوراد من بروج من خيرة زبائن آل ستونر وآل سيلي . (ورد ذكرهم في رسائل كلتا الاسرتين) وقد ذكر توماس هوليك ذات مرة انه باعهما اربعة أكياس من صوف كوتسوولد الناعم بسعر

---

(١) أوردت المؤلفة هذه الابيات بنصها الفرنسي (المترجم)

١٩ ماركا للكيس الواحد مع خصم اربعة «كلوفات» Cloves ونصف عن كل كيس يحوي ٥٢ جزة . ثم يضيف : « سيدي يسرك ان تعلم ان التجار المتقدم ذكرهم الذين ابتاعوا صوفك هم من خيرة تجار البلاد الواطئة ، ومن اطيبهم سمعة وهذا ما جعلني اقدم لهم كل التسهيلات ، وأعاملهم احسن معاملة . »

على ان تجار الصوف لم يكونوا يقصرون معاملتهم التجارية على كاليه وحدها . فقد كانوا يسافرون الى الاسواق الموسمية الكبيرة في انتويرب ، وبروج ويرحلون الى كل بقعة تقام فيهـا مواسم البيع والشراء . كتب هينهام الى معلمه يقول : « قدم توماس بتسون الى كاليه في آخر يوم من نيسان . ورحل عنها قاصداً سوق بروج في اليوم الاول من ايار . وهو في صحة جيدة . »

ويوماً من الايام حدث ان هذا التاجر
أخذ يعد العدة للسفر الى « بروج »
ليتزود من هناك ببضائع جديدة .

على ان بتسون لم يذهب الا « ليبيع » جزءاً من بضاعته هناك . وقد كتب هو نفسه الى السير وليام يقول : « يسرك ان تعـلم بأنني وصلت كاليه عشية « الثالوث » . وقد كانت سفرتي ميسرة ، مريحة والحمد للرب الكريم . وفي نيتي يا سيدي ان أسافر يوم الجمعة القادم الى السوق بعون الرب . واسأل الرب الكريم ان يسهل علي ويعينني في كل اعمالي . وآمل يا سيدي برحمة الرب ، اذا ظلت الامور حسنة هنا ، ان استطيع القيام بما فيه لي ولك اعظم الربح والفائدة . ولم يصل الى هنا حتى الآن الا عدد قليل من التجار . وسوف يأتي بمشيئة

الله ولطفه عدد أكبر منذ الآن فطالعاً . وأعدك بأنني لن أضيع وقتاً عندما يبدأ الموسم ... ويا سيدي ، سأكتب لك عندما أعود من السوق ، برحمته ، عن كل شيء .» ويلتقي بتسون في هذه الاسواق الموسمية ، بجماعات كبيرة من التجار يأتون من جميع أنحاء اوروبا . وان كانت الاضطرابات السياسية غالباً ما تجعل السفر خطراً والطرق مخيفة ويتعرض التجار لسطو اللصوص وقطاع الطرق . وقد اشتهر الانكليز عامة بأنهم أحسن البائعين واحسن الشارين في اسواق البلاد الواطئة وبرابانت . وان كان التجار الفلمنكيون يشتكون أحياناً من ان شركة تجار الصوف لا تجيز لأعضائها الشراء الا في آخر يوم حينما يكون البــائعون الفلمنكيون مهتمين برزم بضاعتهم ومنشغلين بالاستعداد للسفر مما يضطرهم الى بيع بضائعهم بارخص الاسعار .

ويفخر مؤلف Lidelle of Englyshe Polycye بالعادة الــتي جلبها الانكليز معهم الى هذه الاسواق فيقول :

« في كاليه يبتاع الهولنديون الجلود والصوف الذي يبيعه الانكليز لهم .... ونحن نذهب الى اسواق برابنت ومعنا القماش الانكليزي الجيد والجميل المنظر ومعنا الحرائر والخردوات (نوفوته) والبقالة الى الاسواق التي تفد اليها جميع الشعوب ــ فالانكليز والفرنسيون واللمبارديون والجنويون والكاتاليون جميعهم يذهبون اليهــا ، والاسكتلنديون والاسبانيون والايرلنديون يذهبون حاملين اليها الكثير من الجلود المملحة . وانا أقول اننا عندما نذهب الى برابنت او او فلاندره او زيلانده فاننا نبتاع من البضائع المعروضة اكثر من الشعوب الأخرى . وقد سمعت تجاراً يقولون لو ان الانكليز تغيبوا عن هذه الاسواق لكانوا (التجار الآخرون) عاجزين (في التجارة)

ولكانت حصتهم قليلة القيمة لان الانكليز يشترون وينفقون اكثر من الباقين مجتمعين . »

كانت الاسواق تقام في مختلف الازمنة والامكنة . ولكن كانت تقام خلال السنة اربعة اسواق موسمية عظيمة توافق فصول السنة الاربعة . فهنالك السوق « البارد » الذي يقام في الشتاء ويذهب اليه توماس بتسون مدثّراً بالفرو وحوافر حصانه ترن على الطريق المجلّد. وسوق عيد الفصح الذي يقام في الربيع . ويركب اليه بتسون منشرح النفس ، يصفر على الطريق وقد زين قبعته بزهرة بنفسج . وسوق القديس يوحنا الـذي يقام في الصيف حوالي عيد القديس يوحنا المعمدان . وهنا نلمح بتسون حران يتفصد جبينه عرقاً او داخلا خيمة احد الجنويين في انتويرب ليشتري لكاترين قطعة من الاطلس الاسمر ، او من حرير لوكا . وسوق بالم (او باميس) الذي يقام في الخريف حوالي عيد القديس ريمي الذي يدعوه الفلمنكيون القديس بامي (٢٨ تشرين الاول) . ويشتري بتسون لكاترين من تجار مدن اتحاد « الهنسا » الذين يعرضون بضائعهم في بروج فرو السمور او دثاراً من القماش الاسود اللطيف . وفي هذه الاسواق الموسمية يقوم تجار الصوف وهم ينتقلون من محل الى آخر لمقابلة المشترين لصوفهم، بشراء مئات الحاجات الصغيرة لأصدقائهم . فالاهل والاصدقاء في الوطن يظنون ان تجار الصوف لم يخلقوا الا لقضاء حاجاتهم وارسال الهدايا لهم . يطلب احدهم قفازاً من صنع لوفان ، ويطلب الآخر رأس سكر والآخر برميلا من النبيذ الغسقوني (بامكانك ان تشتريه يا عزيزي هناك بسعر اقل) . والآخر ذراعاً او ذراعين من قماش هولندا . اما الزنجبيل والزعفران فلهما الحظوة الكبرى عند الاهل

والاصحاب دائماً وبالامكان شراؤها من التجار البنادقة . وكان تجار الصوف يشترون بطبيعة الحال البضائع والسلع التي يحتاجون اليها في تجارتهم كخيوط كاليه المستعملة في الرزم وخيش آراس أو بريتاني أو نورماندي المستعمل في حزم بالات الصوف. يحدثنا توماس بتسون عن آل سيلي قائلا : ان أحاديثــه معهم على الطريق لم تكن تعدو مواضيع الصيد والطرد وشراء الصقور وبيعها ما خلا مناسبة واحدة حينما ركب جورج سيلي معه مسافة عشرة اميال ساكتاً جم الشجون ليسر اليه بعد ذلك بأن كلبته الرمادية في انكلترا ولدت اربعة عشر جروا ثم ماتت والجراء معها .

بين المخزن في كاليه والاسواق الموسمية في الارياف كان توماس بتسون يبيع ما لديه من صوف . على ان عمله لا ينتهي عند هذا الحد. فقد كان عليه ان يباشر المهمة المعقدة ، مهمة جمع الاموال من عملائه التجار الفلمنكيين وتسديد ما عليه من الديون في انكلترا قبل تجار الصوف ودلاليه في كوتسوولد. وكان من عادة تجار الصوف الانكليز ان يشتروا الصوف نسيئة بسندات مالية تستوجب التسديد بعد ستة اشهر كما جرت العادة . وكان توماس بتسون يلقى المصاعب لتسديد هذه السندات اذا تأخر المشترون الاجانب عن دفع ما له عليهم من ديون . وزد على ما تقدم ان الفرق بين العملات المختلفة كان يعقــد الصعوبات التي يلاقيها بتسون تعقيداً يصعب تصوره . نحن نظن اننا نعرف بعض الشيء عن صعوبة « سعر القطع » المعقد المتقلب في يومنا هذا . ولكن يصعب علينا ان نتصور الحسابات المعقدة والخلافات الدائمة التي كانت تتعب افكار تجار الصوف في القرن الخامس عشر وتقلق بالهم . فلم يكن فرق العملة بين انكلترا والقارة الاوروبية دائم

التغير فحسب ، وانما كان الحكام المختلفون يزيدون القضية صعوبة وتعقيداً . يحدثنا محرر « اوراق آل سيلي » : « ان الحكام العديدين الذين يدعون حق سك النقود في اراضيهم، والشكوك التي كانت دائماً تحوم حول طبيعة الذهب والفضة التي يدعي هؤلاء الحكام انها موجودة في نقودهم، كل ذلك يجعل حساب الفرق بين قيم العملات عسيراً على آل سيلي الذين كانوا مضطرين ولا شك الى اخذ ما يمكنهم الحصول عليه . » وبحسبك ان تتخيـل الصعوبات التي كان يعانيها المسكين توماس بتسون حيث كانت تدخـل الى متجره باستمرار الليرة الاسكتلنـدية وليرة غيلدريز (وقد خفضت قيمتها كثيراً) ، وليرة شارل البرغندي ، والليرة الفرنسية الذهبية القديمة والجديدة ، وليرة ابرشية اترخت ، وليرة كونتات ويستفاليا ، وليرة لويس الذهبية الفرنسية ، وليرة ليمبرغ ، وليرة ميلان ، وليرة نيموغين ، وليرة برابانت ، و« بلاغ » اترخت ، و « بوستليت » الابرشيات المختلفة ، والريال الانكليزي (عشرة شلنات)، والفارس الاسكتلندي او الفارس البرغندي (سميت كذلك لانها تحمل صورة رجل على صهوة حصان)، و « فلورين » رينو لابرشية كولون ، و « السينتيلير » .

فكان عليه ان يعرف اسعار هذه العملات جميعاً بالعملة الانكليزية كما كانت تحددها شركة تجار الصوف في ذلك الوقت . وكثير من هذه العملات قد خفضت تخفيضاً يفوق كل تصور . والحق ان العمـلة الانكليزية ظلت تتمتع بسمعة طيبة تحسد عليها حتى جاء هنري الثامن فخفض قيمتها لغاياته الخبيثة. ورسائل آل سيلي حافلة بالقلق من سعر القطع . وهذا مما يدعونا الى الاشفاق على توماس بتسون . ولكنه ولا ريب كان كتاجر تشوسر الملتحي :

« قدير على بيع الليرات الفرنسية عليم بأسعارها » .

وكان تجار الصوف يفيدون في انجاز المعاملات المالية بين انكلترا وبلاد الاراضي الواطئة من الخدمات المصرفية ووسائل القروض الاخرى (الحوالات وما اليها) التي كان يضعها تحت تصرفهم التجار الايطاليون والاسبان وتجار الاقمشة الانكليز وكلهم كانوا يجمعون بين التجارة والصرافة . وهذا وليام سيلي يكتب الى سيده قائلا :

« اود ان اخبر سيادتكم بأنني قد تسلمت مبلغ ٣٠٠ جنيه فلمنكي فقط من جون ديلوبي وذلك قيمة الحوالة التي ارسلها لي أدلينغتون . وقد دفعت منها لغينوت سترابانت ، ٨٤ جنيها فلمنكيا وستة شلنات وستة بنسات . وارسلت لكم حوالة على بينينجي ديكاسون اللمباردي مبلغاً قدره ١٨٠ «نوبل» سترليني تدفع بتاريخها. وقد دفعت هذا المبلغ بسعر ١١ شلناً فلمنكياً وبنسين ونصف البنس للنوبل الواحد وبلغ مجموع المبلغ ١٠٠ جنيه فلمنكي و١٧ شلناً و٦ بنسات . وقد ارسلت لكم بالطريقة نفسها حوالة على جاكوب دو باس ٩٨ نوبل سترليني و٦ بنسات تدفع في لندن وفي التاريخ المحدد بالطريقة نفسها . وقد دفعت النوبل الاسترليني الواحد بسعر ١١ شلنا وستة بنسات فلمنكية . وبلغ مجموع المبلغ ٥٠ جنيهاً فلمنكياً اما ما تبقي من ال ٣٠٠ جنيه سترليني العائدة لكم فما زال موجوداً لدي . فلم استطع ان احوله لكم في هذا الموسم هنا اذ لا يوجد من يرغب في اخذ اي مبلغ من النقود . اما سعر الصوف فهو ١١ شلنا و٣ بنسات ونصف للنوبل الواحد . ولا يروج في السوق من النقود غير ليرة نيموغين ، والكروت واندرو غيلدر ورانيش غيلدر . وسعر

الصوف في هبوط مستمر . وارسل لكم يا سيدي طي رسالتي هذه الرسالتين الاوليين لدفع الحوالة السابق ذكرها اعلاه . ورسالةبينينجي ويكاسون موجهة الى جبرائيل ديفوي وبطرس ستانلي من البندقية . ورسالـــة جاكوب فان دوباس موجهة الى انطوني كارسي ومارسي ستروسي الاسبانيين اسألوا عنهم تجدوهم في شارع اللمبارد . »وكتب بعد اسبوع : « فهمت ان سيادتكم قـــد استلمتم تحويلا على جون رينولد تاجر الاجواخ ٦٠ جنيها سترلينياً تستوجب الدفع في اليوم الخامس والعشرين من الشهر وعلى دييغو دوكاسترو الاسباني مبلغ ٦٠ جنيهاً سترلينياً تستوجب الدفع في اليوم السادس والعشرين من الشهر نفسه . اما فيما يتعلق بسيدي لويس مور اللمباردي فقد سددت لــــه المبلغ واستلمت منه السند . ووكيله شديد الخصومة شكس المعاملة فهو يصر على ان لا يقبض من العملات الا ليرة نيموغين » .

لا شك في ان توماس بتسون قد كتب الكثير من امثال هذه الرسائل . وكان يدون كثيراً من هذه الرسائل في منزله ويظل يكتب الى اصدقائـــه الى موهن متأخر من الليل حتى تخزه عيناه من التعب والارق ، وكان يختم رسائله بهذه الجملة : « لندن في ليلة يوم سيدتنا حيث تكون انت نائماً اما انا فعيناي تخزاني وجعاً . وليعني الرب . » اما القيام باعداد الحساب السنوي فكان اصعب اعمال توماس بتسون اطلاقاً . وهذه صورة له تصوره وهو مكب على عمله :

« في اليوم الثالث ينصرف التاجر جدياً لتصفية حساباته ولذلك يصعد الى حيث يحتفظ بدفاتره وقيوده ليدقق حساب العام فيرى كيف سارت الامور معه وكيف استغل ثروته ، وليعرف فيما اذا كانت قد ازدادت ام لا . انه ينشر دفاتره

واكياسه بين يديه . لقد كان عنده الكثير من النقد . وكان مستودعه مليئاً ، ولذلك فانه يحكم اغلاق باب محسبه ويوصي بألاّ يزعج ابداً في هذه الفترة ، ثم يستمر في عمـــله حتى يكون الوقت قد تجاوز الساعة التاسعة (صباحاً) . »

لقد استعرضنا حياة تاجر من تجار الصوف ، وتناولناهـــا من جوانبها جميعاً . ولقد رأيناه راكباً الى حقول كوتسوولد بحثاً عن الصوف . ورأيناه منهمكاً في متجره في مارك لين . ورأيناه على ظهر السفينة مبحراً من لندن الى كاليه ومن كاليه الى لندن . وراقبناه وهو يعامل التجار الغرباء في سوق كاليه او راكبـــاً الى الاسواق الموسمية في بلاد الاراضي الواطئة في الاجواء الحسنة . وكانت شركة الصوف العظيمة تحميه ، وتهيء له مسكنه ، وتراقب نوعية الصوف الذي يبيعه بنظر حديد، وتضع الاوامر التي تنظم له البيع والشراء، وتهتم بأن يحظى بالعدالة في محاكمها . وفي وسط هذا الجو من العمل المتعب والممتع معاً نما حب توماس بتسون واثمر زواجاً سعيدا ، ولكن لم يكتب له ان يعيش طويلا بعد ابلاله من مرضه الخطير عام ١٤٧٩ . واغلب الظن ان مرضه ذاك تركه رقيق البنية مهزولا فقد مات بعد سنوات عام ١٤٨٦ . وقد انجبت له زوجته خلال السنوات السبع التي قضتها معه (وعلينا ان نذكر ان هذه السنوات ابتدأت وعمرها خمس عشرة سنة) خمسة اطفال ، ولدين هما توماس وحنا وثلاث بنات هن اليزابث واغنيس واليس . وقد مات توماس بتسون ميسور الحـــال كما تخبرنا وصيته (التي ما زالت محفوظة في دار سوميرسيت) . وقد اصبح عضواً في شركة تجار السمك كما كان عضواً في شركة تجار الصوف . فلم تعد الشركات التجارية الكبيرة

في ذلك الزمن مقتصرة على التجار الذين يمارسون التجارة التي ينتمون اليها بأنفسهم . وقد ترك توماس بتسون في وصيته مبلغاً من المال لترميم هيكل ومصلى ابرشيته في كنيسة « اول هالوز » في باركينغ ، حيث دفن وترك كذلك « ثلاثين جنيهاً لشراء بعض الجواهر والحلى لزخرفة مصلى تجار الصوف في كنيسة سيدتنا في كاليه » . وعشرين جنيهاً لشراء لوحات نحاسية تذكارية لشركة تجار السمك . وترك اولاده تحت وصاية هذه الشركة . وترك بيتيه لزوجته . وترك ميراثاً قدره أربعون شلنا لتوماس هينهام زميله في خدمة ستونر . وقد اوصى ان يجري دفنه بصورة معتدلة وان يخلو الجناز من التكلف والاسراف والبهرجة وان يقتصر على عبادة الرب وتسبيحه وتمجيده . وقد تزوجت كاترين، التي ترملت ولها من العمر اثنتان وعشرون سنة ومن الاولاد خمسة، زوجها الثاني وليام ويلبيتش وهو بائع خردوات (كان تجار الخردوات أغنياء) وانجبت منه ولداً . ولكن قلبها ظل وفياً لذلك الزوج الذي كتب لها اول رسائلها الغرامية عندما كانت طفلة . وعندما توفيت عام ١٥١٠ دفنت الى جانب توماس بتسون حسب اوامرها في اول هالوز باركنغ حيث ما زال يرقد ثلاثة من تجار الصوف تحت لوحاتهم النحاسية وان لم يبق لتوماس من اثر . فليرقدوا هناك منسيين وان كانوا احق بالذكر من كثير من الفرسان المدججين بالسلاح الذين يرقدون رقدتهم الابديه تحت القبور المزخرفة في كنائس العصور الوسطى الجميلة .

« لقد ذوت اكاليل الغار على جبينك

فلا تفاخر اذن بأعمالك الرائعة .

والان على مذبح الموت الاحمر انظر
اين ينزف المنتصر ــ المغلوب ، دمه ،
لا بد ان يأتي رأسك
الى القبر البارد .
ان اعمال العادلين فقط
تزهر وتعبق في ترابهم . »

الفصل السادس

توماس بيكوك اوف كوغيسهول

تاجر جوخ من ايسيكس في ايام هنري السابع

كان بزازا عظيم الهمة
وستبقى شهرته خالدة الى الابد
«توماس ديلوني»

لقد تركت صناعة النسيج العظيمة الشريفة آثاراً عديدة في حياة انكلترا تبدو واضحة في العمارة والادب والاجتماع. ولقد ملأت ريفنا بالكنائس العمودية الرائعة والبيوت الجميلة التي ترتكز سقفها على عوارض من جذوع البلوط . وملأت ادبنا الشعبي بالحكايات التي تقصها العجائز عن الشخصيات المحترمة في انكلترا حيث يزاحم تجار القماش مثل توماس اوف ريدينغ وجاك اوف نيوبري ، الراهب بيكون وروبن هود . وملأت مقاطعاتنا بالنبلاء . وكما لاحظ ديفو في اوائل القرن الثامن عشر : ان معظم الاسر الكبيرة التي تعتبر الآن من الاسر النبيلة في المقاطعات الغربية قام مجدها على هذه الصناعة الشريفة حقاً . » وملأت سجلات النفوس بأسماء اسر عديدة مشتقة من هذه الصناعة امثال : ويفر (الحائك) ، ويبر ، ويب (النساج)

شرمان (الجزاز) ، فولر (القصار) ووكر (١) داير (الصباغ) . كما اسبغت على كل فتاة عزباء لقب : « غزّالة » ، وكانت صناعة النسيج ـ منذ ان حلت محل تجارة الصوف ، كأهم تجارة للصادرات في انكلترا الى ان تخلت عن مركزها هذا للقطن والحديد ـ الاساس الذي قامت عليه عظمة انكلترا التجـــارية . يقول دياوني العجوز : « كانت صناعة النسيج رأس الصناعات جميعاً . فقد كانت بضائعها اعظم البضائع التي جعلت بلادنا مشهورة بين الشعوب جميعاً . »

بدأ صناع الاقمشة الانكليز منذ نهاية القرن الرابع عشر ، ينافسون صناع الاقمشة في بلاد الاراضي الواطئة في صناعة الاقمشة الناعمة الملمس اللطيفة كما تشهد بذلك « زوجة باث » في حكايات تشوسر :

وكانت تبدي في النسج مهارة فائقة
بحيث كانت اقمشتها تفوق اقمشة يبرس وغنت .

ولكن ما ان انتهى القرن السادس عشر حتى انتهت معـــه كل منافسة حقيقية . فقد خرجت المصنوعات الانكليزية منتصرة انتصاراً مبيناً . لقد تطورت صناعة النسيج وتقدمت وصحب تطورها هذا تغير في تنظيمهـــا . فلم تكن هذه الصناعة من الصناعات التي يسهل تنظيمهـــا على اساس نقابي (gild basis) لان صنع قطعة من القماش يحتاج الى عدد كبير من العمليات المستقلة . كان ندف الصوف وتمشيطه وغزله من العمليات الاولية لصناعة النسيج . وكانت هذه العمليات تعتبر صناعات ثانوية ، يقوم بها النساء والاطفال في اكواخهم . اما

---

(١) ناظر او ناظر الحانوت ، او الدكان Shop-Walker (المترجم)

الحائكون الذين يشترون الغزل فقد كانت لهم نقاباتهم . وكذلك كان للقصارين الذين يقصرون القماش وللصباغين الذين يصبغونه، وللقصاصين الذين يقصون ما يبقى من الشعر والصوف عالقاً في القماش وينهون عملية النسيج ، نقاباتهم الخاصة .

ولم يكن باستطاعة اي واحد من هؤلاء ان يبيع قطعة القماش التي تم صنعها . وفي هذه الطائفة من الصناعات المتداخلة ، ولكل منهــا نقابتهــا الخاصة ، قد يقوم الحائك بعمل القصار ، والقصار بعمل الحائك . ولمــا كانت عملية النسج اسرع من عملية الغزل فقد كان الحائــك يضيع كثيراً من الوقت ويلقى الصعاب ، في جمع الكمية اللازمة من الغزل ، التي لا بد منها لابقاء نوله دائراً . وعندما اتسعت سوق القماش ولم تعد مقتصرة على بلدة الحائك ظهرت الحاجة لوسيط متخصص ببيع قطع القماش التامة الصنع . وهكذا ، وعلى مراحل متعاقبة ، ظهرت طبقة من الناس كان افرادهــا يشترون الصوف بكميات كبيرة ثم يبيعونه للحائكين والنساجين . ثم حدث تحول طبيعي في هذه العملية ، فقد اصبح الوسطاء يشترون الصوف ، لا ليبيعوه كما هو وانمــا كانوا يسلمونه للحائك فيحيكه ثم للقصار فيقصره ، ثم للقصاص فيقص ما لا يزال عالقاً به من الشعر والصوف لقاء اجور يدفعونها لهم بعد انجاز العمل . وقد صار هؤلاء الرجال اغنياء على مر الايام وتكدست لديهم رؤوس الاموال فاصبحوا قادرين على تشغيل عدد كبير من الصناع . وسرعان ما بدأوا يشغلون مختلف الصناع الذين يتعاونون لانجــاز قطعة من القماش . وكان خدامهم يحملون الصوف الى اكواخ الغزالات لندفه وتمشيطه وغزلــه ثم ينقلون الغزل الى الصباغين والحائكين والقصارين والقصاصين . وكانوا يحملون قطع

القماش التامة الصنع الى الوسيط الصناعي ـ او البزاز كما كان يدعى آنذاك بتاجر القماش . لقد ازدهر البزازون ازدهاراً سريعاً وتعاظمت ثرواتهم وازدادت أهميتهم في المجتمع حتى لقد اصبحوا في بعض مناطق البلاد العمود الفقري للطبقة الوسطى . وكانوا يتخذون من القرى والارياف مجالا لنشاطهم الصناعي ، بدلا من المدن العتيقةالتي كانت التجارة والصناعة فيها خاضعة للنقابات ، وذلك رغبة في تجنب القيود التي كانت هذه النقابات تفرضها على الصناعة . وقد انتقلت صناعة النسيج برمتها تقريباً الى الريف شيئاً فشيئاً . وسارت صناعة النسيج في القسم الغربي من انكلترا ، وفي انجيليا الشرقية (وان لم يكن ذلك في يورك شاير) على نظام « الانتاج البيتي » putting up حتى اللحظة التي قامت فيها « الثورة الصناعية » بنقل صناعة النسيج من الاكواخ الى المصانع ، ومن الجنوب الى الشمال . وقد ادى ذلك الى فقر تلك القرى المزدهرة الغنية وتناقص عدد سكانها بحيث اصبحنا الآن بحاجة الى الاعتماد على الآثار المبعثرة ، والمباني القديمة ، وعلى أسماء ابعد قدماً من هذه المباني ، لنحيي صورة بزاز انجليا الشرقية الذي كان مألوفاً في وقت من الاوقات، وصور تلك الجماعات من الصناع النشيطين الذين كانوا يعملون له .

كان توماس بيكوك واحداً من اولئك الاشخاص الذين كانت صورهم مألوفة فيما مضى من الزمن . كان بزازاً في كوغيسهول من اعمال ايسيكس . وقد توفي، بعد ان طعن في السن ونال شرفاً رفيعاً، عام ١٥١٨ . جاءت اسرته في الاصل من كلير في سفولك . ولكن حوالي منتصف القرن الخامس عشر استقر فرع من الاسرة في كوغيسهول ، وهي قرية لا تبعد عنها الا قليلا . والظاهر ان جده

ووالده كانا جزارين . اما هو واخوته واولاده من بعدهم فقد اشتغلوا في صناعة النسيج « الصناعة الشريفة حقاً » . وقد خلفوا آثاراً لا تمحى في حياة القرية التي استوطنوها . كانت كوغيسهول تقوم في مقاطعة ايسكيس العظيمة المشهورة بصناعة النسيج ، التي كتب عنها فوللر يقول : « ان هذه المقاطعة تشبه بيت شبع Bathsheba » فيدها بتدوير المغزل صناع « ... ولا تثريب علينا اذا دعونا الرب ان يبقي المحراث غادياً رائحاً والمغزل دائراً على نفسه . فاذا استجاب الرب لدعائنا هـــذا برحمته وبركته فلن يجوع شعبنا ولن يعرى (فالمحراث يطعمه والمغزل يكسوه) » وكانت تقوم في طول مقاطعة ايسيكس وعرضها قرى مشهورة بصناعة النسيج مثل كوغيسهول وبرينتري وبوكينغ وهالستيد وشالفورد وديدهام. وفي مقدمتها جميعاً كولتشيستر مركز هذه الصناعة العظيم وسوقها الواسعة . وقد انتعشت القرى بهذه الصناعة وازدهرت حتى لقد كان يصعب على المرء ان يجد كوخاً لا تضج فيه عجلة مغزل او شارعاً خالياً من عدد من مصانع الحائكين : مطابخ تقوم فيها الى جانب الحيطان انوال غير مصقولة ولا مهذبة ينفق الناس الطيبون في صحبتها ساعات عملهم . ويندر ان يمر اسبوع لا يسمع فيه وقع حوافر برذون على الازقـــة المعوجة آتياً بكميات جديدة من الصوف لتنسج ، وناقلا القماش الى تجـــار الجوخ في كولتشيستر والقرى المحيطة بهـــا . كانت كوغيسهول طوال القرن الخامس عشر مركزاً مهما لا يفوقه اهمية الا هذه المدن العظيمة الثلاث : نورويتش وكولتشيستر وسدبري . وحتى يومنا هذا ما زال الفندقان القائمان فيها يدعوان : « حزمة الصوف » و « الجزة » .

ويجب علينا كما قلت ان نعيد بناء صورة توماس بيكوك ورفاقـــه

مستندين على آثار مبعثرة . وهذه الآثار ، لحسن الحظ ، موفورة في عدد كبير من القرى الانكليزية وخاصة في كوغيسهول نفسها حيث نجدها قريبة من متناول ايدينا . وباستطاعتنا ان نعيده الى الحيـاة معتمدين على أشياء ثلاثة هي : داره القائمة على جانب من شارع القرية، وصفائح اسرته النحاسية المنتصبة في احد اجنحة كنيسة القرية، ووصيته المحفوظة في « بيت سوميرست » . دار ولوحة تذكارية ووصية تضم تاريخ حياته كاملا وان بدت لأول وهلة ضئيلة المادة قليلة الأهمية . وانه لخطأ عظيم ان يحسب المرء ان التاريخ لا يمكن ان يكون الا شيئاً مدوناً . فقـد يكون التاريخ بناية . وباستطاعة الكنائس والبيوت والجسور والمسارح ان تروي قصتها ، لمن له عينان يقرأ بهما ، بوضوح وبساطة لا يقلان عن وضوح الكلمة المكتوبة . وان الفيلا الرومانية (Roman villa) التي كشف عنها بعد ان ظلت قروناً عديدة مطمورة تحت التراب راقدة تحت اقدام الصبي الذي يدفع محراثه دون ان يحس بها او يعلم بوجودها، هذه الفيلا ، بفنائها الواسع وارضها المنقوشة بروائع الفسيفساء وبمـا فيها من اجهزة للتدفئة المتقنة ، والمزهريات المحطمة ، تكشف لنا عن المعنى الحقيقي للامبراطورية الرومانية بوضوح لا يتأتى لأي كتاب مدرسي . تلك الامبراطورية التي كان مواطنوها يحيون مثل هذه الحياة في جزيرة يغشاها الضباب واقعة في أقصى زوايا عالمها الواسع . والقـلعة النورماندية بالخندق العميق يحيط بها ، والجسر المتحرك يصلها بالعالم الخارجي ، وبالباب الواسع تخترقه فتحة الاستطلاع الضيقة ، وبما فيها من فتحات تطلق منها السهام وتستخدم بدلا من النوافذ والشبابيك ، ابلغ في الحديث عن مخاطر الحياة في القرن الثاني عشر من مئة كتاب

في التاريخ ، واشد تأثيراً. وما هكذا كان يعيش النبيل في عهد روما. ويحدثنا منزل الاقطاعي في القرن الرابع عشر ــ بفنائه وكنيسته وردهته وبرج حمامه ــ عن عصر يسوده السلام من جديـــد ، حيث الحياة في المقاطعات الصغيرة تدور حول اللورد ، وحيث كانت حياة جماهير الشعب الانكليزي العظيمة تسير في طريقهـــا الاعتيادية ، لم تصبها بأذى حرب المئة عام التي خمشت وجه فرنسا الجميل . ثم تبدأ بيوت التجار العمودية المتقنة البناء في مدن وقرى القرن الخامس عشر، منتصبة على جوانب الشوارع تمتد خلفها الحدائق الجميلة وتزينها العوارض المنقوشة والمدافىء العظيمة، ويشيع فيها جو من الراحة العامة والهناءة الشاملة. هذه البيوت تشير الى ظهور طبقة جديدة من الناس في التاريخ الانكليزي ــ الطبقة المتوسطة التي ما فتئت تقحم نفسها اقحاماً بين طبقتي النبلاء والفلاحين حتى استقام لها مركزها . واي شيء يعكس لنا صورة الحيـــاة الرحبة المتفتحة في عهد الملكة اليزابيث العظيمة احسن من البيوت المشيدة على الطراز الاليزابيثي بأجنحتها العريضة وغرفها الواسعة ومداخنها ونوافذها الزجاجية ، تطل على الحدائق المكشوفة والاشجار السامقة بدلاً من ان تطل على الفناء المغلق . او فاذهب الى دار شيدت ، او اعيد نقشها في القرن الثامن عشر، حيث تجد كراسي تشيبانديل (١) ، والمناضد المدهونة وورق الحيطان الصيني المغطى بصور الهياكل الصينية والحكام الصينيين المبجلين . وانك

(١) من صنع توماس تشيباندايل، (صانع الاثاث الانكليزي المشهور ١٧١٨؟ــ ١٧٧٩) ، الذي ازدهر بين سنتي ١٧٥٠ و ١٧٧٥ ، او على طرازه .
(المترجم)

لتجد عصر امراء الهند (١) ماثلا امامك ، ذلك العصر الذي جعلته شركة جون مألوفاً معروفاً بما كانت تستورد من منتجات الشرق الاقصى ، العصر الذي حل فيه الشاي محل القهوة شراباً للمهذبين» والذي كان فيه هوريس وولبول يجمع الاواني الخزفية ، والذي صور فيهاوليفر كولد سميث الصين اجمل صورة واسماها في قصيدته «مواطن العالم » ، العصر الذي كان فيه الدكتور جونسون يدعى « خان الآداب العظيم » . انظر الى هذه الصورة هنا ثم انظر الى هذه الصورة : انظر الى هذا الصف من الدور التجارية الرخوة البناء ، مئة دار في الصف الواحد يشبه بعضها بعضاً ، او انظر الى تلك « الفيلا » المبنية على الطراز الحديث : كلها سقف وتكاد لا تجد فيها نافذة واحدة، زجاجها من زجاج القناني المزيف ، تجد امامك القرن العشرين . الحق ان تاريخ انكلترا الاجتماعي بأسره ، ومعظم تاريخها السياسي، يمكن ان يدون من جديد اعتمادا على فن العمارة الانكليزي وحده . ولهذا لا أراني بحاجة الى الاعتذار عن اعتباري بيت توماس بيكوك وثيقة تاريخية من الدرجة الاولى .

وتقدم لنا الصفائح النحاسية التذكارية انماطاً من هذه الشواهد التاريخية نفسها وان كانت أقل منها امتاعاً . وتوجد هذه الصفائح في معظم انحاءانكلترا وتكثر في انجليا الشرقية و الا « هوم كاوينتيس »، ووادي التيمس . وهذه الصفائح التذكارية متنوعة تنوعاً رائعاً :صفائح نحاسية مرسوم عليها صور رجال الدين بثيابهم الكهنوتية ، وصور دكاترة القانون واللاهوت واساتذة الآداب باثوابهم الجامعية ، وصور

(١) Nabob وكانت تطلق على الرجل الذي يثري في الشرق ويعود لبلاده . (المترجم)

بعض رؤساء ورئيسات الأديرة . وصفائح عليها صور الفرسان بكامل سلاحهم . وصفائح عليها صور سيدات ، تجثم عند اقدامهن كلابهن الصغيرة ، وقد ارتدين الملابس الشائعة في عصرهن ، وهي ترينا تغير الازياء من عصر الى عصر وتكشف لنا عن سر الفساتين والمناديل والقمصان المزركشة وأغطية الرأس التي تتغير من حين الى حين لتناسب الازياء الشائعة . ان هذه الصفائح النحاسية ، كالبيوت، دليل يشهد على رفاهية الطبقة الوسطى . ففي القرن الرابع عشر عندما بدأ التجار يشيدون لانفسهم بيوتاً جميلة اخذوا ينشئون لأنفسهم كذلك لوحات نحاسية رائعة ليرقدوا تحتها بعدوفاتهم. ولعل اجمل هذه الصفائح النحاسية هي تلك التي تعود لتجار الصوف . حيث ترينا صور هؤلاء التجار وقد وضعوا اقدامهم على اكياس الصوف أو على اغنام . على ان تجاراً آخرين كانت لهم مثل هذه اللوحات . وتكثر بين هــذه الصور صور رؤساء البلديات وعمدها ، وقد وضعوا علاماتهم التجارية الفارقة على قبورهم بكل فخر واعتزاز كما يضع النبلاء شعار النبالة على قبورهم . ولم يكن أولئك التجار اضعف حظاً بالفخر والاعتزاز من هؤلاء التجــار . وانك لتراهم في ذروة فخرهم واعتزازهم في الصفيحة النحاسية القائمة في (لين) حيث يرقد روبرت برونتش بين زوجتيه وقــد حفر تحت قدميه منظر يمثل الوليمة التي اقامهــا للملك ادوارد الثالث ، تلك الوليمة التي اطعمه فيهــا لحوم الديوك . وتجد بين هذه الصور صورة لخياط والى جانبه مقص ينضح بالمجد في نورثليتش وكأنه سيف احد فرسان الصليبيين . وصورة تاجر خمور في سايرينسيستر تستريح قدمه على برميل نبيذ . وهنالك صور لاناس اقل من هؤلاء شأناً في الحياة التجارية ولكنهم لا يقلون عنهم اعتزازاً بحرفهم ولا فخراً بالادوات التي يستخدمونها في مهنهم

تجد بينهم اثنين او ثلاثة من موثّقي العقود والى جـانبهم اقلامهم ومحابرهم ، وصيادا وبوقه . وتجد في كنيسة نيولاند صورة لاحد معدّني « فوريست أوف دين » وقد وضع قبعته على رأسه وربط سرواله الجلدي القصير تحت ركبتيه وتنكب نقير التعدين الخشبي ، وحمل بيده اليمنى معولا صغيراً ، وباسنانه شمعداناً . ان هذا الضرب من الادلة التاريخية سيعيننا على تصوير حياة توماس بيكوك . لقد وضعت لوحات اسرته النحاسية في الجناح الشمالي من كنيسة القديس بطرس ادفينكيولا . وقد اختفت بضع لوحات منهـا خلال القرن ونصف القرن المنصرم ولم تبق لسوء الحظ اية لوحة لتوماس بيوك نفسه . ولكن ما يزال باقيا في هذا الجناح صفيحتان : صفيحة اخيه جون المتوفى عام ١٥٣٣ وزوجته ، وصفيحة ابن عمه ، واسمه توماس ايضاً ، المتوفى عام ١٥٨٠ . وبامكان المرء ان يشاهد علامة الاسرة التجارية ما تزال قائمة هناك .

وهنالك اخيراً الدليل التاريخي المستمد من وصايا اسرة بيكوك التي يوجد منها ثلاث محفوظة في دار سوميرست: وصية جون بيكوك (المتوفى عام ١٥٠٥) وهو والد توماس وباني الدار ، ووصية توماس بيكوك نفسه (المتوفى عام ١٥١٨) ، ووصية ابن عمه توماس وهو نفس توماس الذي ما تزال صفيحته النحاسية قائمة في جناح الكنيسة ، والذي ترك لنا وصية طويلة رائعة التفاصيل ، ملأى بالمعلومات القيمة عن التاريخ المحلي وعن تنظيم صناعة النسيج . ان مؤرخي الحيـاة الاجتماعية حتى الان ، لم يستفيدوا كما ينبغي من الشواهد التاريخية التي تتيحها لهم الوصايا ، اذ يصعب على المرء ان يصدق هذه الكميات الهائلة من المعلومات المتنوعة المستمدة من هذه الوصايا عن حياة آبائنا

الاولين الا ان يكون قد قرأ احدى مجموعات الوصايا مثل « تيستيمنتا أبوراسنسيا » العظيمة . وبامكانك ان تعرف من الوصايا عدد البنات اللاتي يوصي لهن والدهن بصداق الزواج وعدد اللاتي يدخلهن الى الدير . واي لون من الثقافة يهيء لابنائه . وبامكانك ان تعرف ما هي الاسر الدينية التي كانت اعظم حظوة بحب الناس واحترامهم ، واي الناس كانوا يقتنون كتباً ، وما هي تلك الكتب ، وما هو مقدار المال الذي كانوا يرونه مناسباً لاعمال البر والاحسان ، وماذا كانوا يفكرون في مقدرة زوجاتهم الادارية . وبامكانك ان تقرأ قوائم مطولة تبهر العين تحتوي على اسماء ادوات المائدة ، فقد كان لكل الكؤوس والصحون العزيزة اسماء تحبيب خاصة . وبامكانك ان تجد قوائم تحتوي على الخواتم والبروشات والاحزمة والسبحات . وتجد اوصافاً مطولة مفصلة للثياب والفراء ، بعضها رائعة فاخرة ، وبعضها بسيطة عادية ، فقد كان الناس يعنون بثيابهم الثمينة كما كانوا يعنون بمجوهراتهم . وانك لتجد في هذه الوصايا اوصافاً اعظم روعة لاسرة النوم وما عليها من حشايا وشراشف وكلل ، فقد كان سرير النوم قطعة جد ثمينة من اثاث المنزل . ولا بد ان يكون السرير قطعة ثمينة جداً استناداً الى ما تحدثنا به هذه الوصايا . فقد نال شكسبير مقدار عظيم من اللوم والتشهير ، لا يستحقه ، لانه ترك لآن هذاواي سرير نومه الثاني في الجودة وان كنا لا ننكر انه كان من الممكن ان يترك لها احسن اسرته . واجمل من الثياب والاسرة وستائر الغرف ، ملابس الكهان الرسمية المزركشة ، المقصبة بخيوط من الذهب والفضة ، المذكورة في هذه الوصايا ، اما الترتيبات المفصلة لحفلات الدفن فممتعة كل المتعة . وهذه الوصايا مختلفة الانواع ، متعددة الاشكال . تجد بينها

حتى وصايا الفلاحين الاقنان وان كانت ممتلكات القن هي ملك سيده نظرياً . كما تجد بينها وصايا الملوك ، والملكات والنبلاء والسيدات والاساقفة والخوارنة والمحامين والبقالين . وهنا نجد ايضاً شواهد اخرى على رخاء ابناء الطبقة الوسطى ، واوصافاً لتجارتهم ومحتويات حوانيتهم وموجودات بيوتهم ومقاطعاتهم التي كانت تقوم في الريف (احياناً) ، وايجارات بيوتهم التي تقوم في المدينة في اغلب الاحيان ، وخزائن ادوات المائدة المزينة بالصحون ، وزينة نسائهم واوصاف تلاميذهم (في الصناعة) ، ونقاباتهم الحرفيـــة واعمالهم الخيرية ، وزواجهم من اسر النبلاء ، وآرائهم الدينية . هذه الصور الحية لحياة الناس اليومية تقدمها لنا وصاياهم .

هذه اذن المصادر الثلاثه التي نستمد منها معلوماتنا عن حياة توماس بيكوك وعصره . وهذه المصادر الثلاثة : الدور واللوحات النحاسية التذكارية والوصايا ، تحتوي على الكثير من الشواهد على النمو السريع خلال القرنين الاخيرين من العصور الوسطى ، لطبقة وسطى ضخمة العدد مرفهة لم تكن ثروتها لتقوم على ملكية الارض وانما على اساس من الصناعة والتجارة . وقد عرضنا فيما تقدم من فصول هذا الكتاب نماذج من ابناء هذه الطبقة الوسطى ممثلين بتوماس بتسون « ومدبر باريس » المجهول الاسم . وعلينا ان نرى الان ما عسى ان يخبرنا عن توماس بيكوك بيته ووصيته ولوحات اسرته التذكارية . إنها تحدثنا اولا وقبل كل شيء حديثاً طويلا عن الصناعة الشريفة التي كانت عماد حياته . ان دار اسرة بيكوك ملأى بآثار صناعة النسيج . يجد المرء العلامة التجارية الفارقة للاسرة — وهي عبارة عن ذنب القاقوم الذي يشبه ورقة البرسيم المزدوجة الساقين — على صفحة المدخنة

المنقوشة ، وعلى واجهة المدفأة ، وفي وسط النقوش التي تزين مدخل الدار . كذلك كان توماس بيكوك يعلم الاكياس التي تحمل اقمشته واجواخه . وهل كان بحاجة الى شارة غير هذه ؟ كانت الدار في جوهرها من دور الطبقة الوسطى . كانت دار رجل « حديث نعمة » في زمن لم يكن يعني فيه « الحديث النعمة » العامي المبتذل . لقد تفتحت رفاهيته المادية عن زخرفة ناعمة النقوش ، لطيفة الزينة ، فكان يزين شريط من النقوش والزخارف واجهة الدار. ومن جذع هذا الشريط المنحني تتفرع عشرات الرسوم الجذابة والنقوش الرائعة : اوراق ، واسلاك نبات وازهار غريبة الاشكال ورؤوس بشرية وورود تيودور وملك وملكة متوجان يرقدان متماسكين بالايدي وطفل يغطس في حوض زهرة سوسن . وفي وسط هذا الشريط من الرسوم والتصاوير تجد العلامة التجارية لرب البيت مصورة على درع والى جانبها الحروف الاولى من اسمه . وفي القاعة سقف جميل مغطى بخشب البلوط المنقوش تطالعك فيه علامة التاجر الفارقة بين مسافة واخرى . وفي الطابق العلوي ، في غرفة النوم الكبيرة ، يقوم سقف خشبي دعاماته محفورة باستدارة بارزة ، وقاعة استقبال صغيرة انيقة تغطي جدرانها الواح يسترها كتان ، ولها عتبة عليا (حاجب) محفور عليها حيوانات غريبة .

ان احكام الصنعة هنا صفة مميزة لفن العمارة في تلك الازمان . يطالعك في الدور كما يطالعك في كنيسة كوغيسهول وفي غيرها من كنائس انجليا الشرقية الفسيحة مثل: ليفينهام ولونغميلفورد وثاكستيد وسافرون ويلدين ولين وسنيتزهام . هذه الكنائس جميعاً سامقة

الارتفاع فسيحة الجنبات شيدها تجار الاقمشة وصناعها من هذه الثروة التي تدفقت عليهم حديثاً . لقد طبعت « حداثة النعمة » هذه فن العمارة ، كما طبعت الناس الذين انفقوا على العمارات اموالهم . فلقد حل محل الجلال البسيط الذي كان يميز اسلوب العمارة الانكليزية في نشأته الاولى ، احكام في الصنعة واغراق في النقش ، وفخامة البناء الشامخ المترف بالمواد والتفاصيل . وكان فن العمارة ذاك هو لون العمارة الذي يطيب لتاجر واسع الثراء ان يبذل في سبيله ماله . لقد كان ابناء الطبقة الوسطى يحبون ان يدللوا على ثروتهم ويظهروا غناهم. على ان هذه المباهاة باظهار الثروة وسعة ذات اليد كانت بريئة من غلاظة الذوق التي تصاحب التبجح بالثراء عادة . واغلب الظن ان توماس بيكوك كثيراً ما كان يبارك هذه الصنعة الشريفة التي تعوله ؛ وتدعم مركزه سواء كان ينظر الى بيته الجميل او يتعبد الى جانب قبور موتاه وهو ينظر الى تلك اللوحات النحاسية التي عليها شارات التجار المعلقة في جناح كنيسة القديسة كاترين .

وتقص علينا وصية توماس بيكوك القصة ذاتهـــا . فلقد اوصى ان يوزع تراثه على ابناء اسرته وعلى جيرانه البسطاء الطيبين الذين كانوا يعملون له . ونجد في وصيته ذكر ابناء غودّاي ذوي الاسماء المرحة وقد خلّف لاثنين منهم، وكانا يعملان في قص القماش واكمال صناعته ، هبة قيّمة : « اوصي لتوماس غودّاي القصّاص بعشرين شلناً ولكل من ابنائه بثلاثة شلنات واربعة بنسات . وأوصي لادوارد غودّاي القصّاص بستة عشر شلنا وثمانية بنسات ولابنه بثلاثة شلنات واربعة بنسات » وقد اوصى بمبالغ من المال لروبرت غودّاي اوف ستامفورد ولاخيه جون ولكل واحدة من اخواته . وقد زاد في حصة

غريس الـــتي كانت ابنته في العماد . ولم ينسَ نقولا غودّاي اوف ستيستيد ولا روبرت غودّاي اوف كوغيسهول واسرتيهما ولا قريبهما القسيس جون الذي ترك له عشرة شلنات للصلاة على روح الاموات. ومما لا شك فيه ان ابناء اسرة غودّاي هؤلاء كانوا مرتبطين بتوماس بيكوك برابطة المصلحة والعمل ورابطة الصداقة كذلك . وقد كانت اسرة غودّاي من الاسرة المعروفة في كوغيسهول مارس ابناؤها صناعة النسيج جيلا بعد جيل مدة طويلة من الزمن . وقـــد ظل حفيد عم توماس بيكوك وسميّه على صلة وثيقـــة بآل غودّاي وترك لهم في وصيته المؤرخة في عام ١٥٨٠ مبالغ من المال : « أوصي لادوارد غودّاي ابني في العماد اربعين شلناً ولكل من اخوة واخوات ادوارد المذكور الاحياء بعد وفاتي مبـــلغ عشرة شلنات ، ولوليم غودّاي الاكبر عشرة شلنات .» ان ابنـــاء اليوم العجلين المتفرقين ، قلما يستطيعون ان يتصوروا ذلك الاستقرار الراسخ الذي كانت تتمتع به القرية في القرون الماضية عندما كانت اجيال متعاقبة من ابنـــاء الاسرة الواحدة تعيش في البيت الواحد من المهد الى اللحد ، وتنقل خطاها على نفس الازقـــة المفروشة بالحصباء ، وعندما كانّ الابناء ما زالوا اصدقاء ابناء اصدقاء آبائهم واجدادهم.

وقد كان لاصدقاء توماس بيكوك ومستخدميه الاخرين ، حصتهم من الميراث . فقد ترك ستة شلنـــات وثمانية بنسات لهمفري ستونر « الـــذي كان تلميذاً عندي يوماً ما » . ولنا ان نتخيل همفري ستونر يترك العلية الواسعة ذات السقف المائل التي ربما كان «التلاميذ» يأوون اليها ، وينزل الدرج في صباح مقرور الهواء ، ومـــا زال النوم عالقاً باجفانه . وقد كانت تقوم بين ستونر وبين الحائكين والقصارين الذين

يعملون لسيده صداقة يشوبها شيء من السلاطة والقحة . زد على ذلك ان همفري كان شاباً ينتمي الى اسرة كريمة المحتد ، وربما كان احد اقرباء ستونر الذين كان توماس بتسون يعمل في خدمتهم . فكما يحدثنا ديلوني : « كان ابناء الفرسان والنبلاء الذين لا يرثون اراضي عن آبائهم يفضلون غالب الاحيان ان يتعلموا هذه الصناعة ويتقنوها مؤملين ان يثروا عن طريقها ويقضوا حياتهم في رفاهية ورخاء .» وقد اصاب اثنان من اصحابه مبالغ حسنة من الميراث . والظاهر ان توماس بيكوك قد اسلفهما مالا فلما اصبح على فراش الموت اراد ان يعفيهما منه . فقد جاء في وصيته : « أوصي لجون بينشام الذي يعمل عندي حائكاً خمس ليرات وله اوصي بخمس ليرات اخرى اذا ظهر انه مدين لي حتى يستطيع ان يسدد ما عليه من دين . وأوصي له كذلك بثوب وصدرة ... لقد تنازلت لروبرت تيلور القصّار عما بذمته لي من الدين وأوصيت له بثلاثة شلنات وأربعة بنسات . » وترينا وصاياه الاخرى بوضوح أشد ان اعماله الصناعية والتجارية كانت على نطاق واسع : « أوصي لكل حائك وقصّار، وقصّاص من الذين يعملون لي ولم اذكر اسماءهم آنفاً اثني عشر بنسا . واوصي لكل من أدى لي عملا مهما كان ضئيلا بثلاثة شلنات وأربعة بنسات . واوصي بان توزع اربع ليرات بين الحائكين والندافين وماشطي الصوف .» وهنا نستطيع ان نرى جميع فروع صناعة النسيج بلحظة عين . وقد كانت الصناعة بكاملها تدور حول توماس بيكوك تاجر الجوخ نفسه فهو الذي كان يقدم الصوف الى النساء لينذفنه ويمشطنه ويغزلنه وهو الذي كان يتسلم منهن الغزل ليقدمه للحائك فيحيكه قماشاً وهو الذي كان يقدمه للقصار فيقصره وللصباغ فيصبغه . وما ان يتسلم القماش كامل

للصنع حتى يقوم برزمه في رزم تحتوي كل رزمة منها على اثنتي عشرة قطعة يرسلها الى تاجر الجملة ، (تاجر القماش) الذي يقوم ببيعه . وربما يرسل هذا القماش الى « توماس بيربونيت تاجر القماش » نفسه الذي كان يدعوه « ابن عمي » والذي جعله وصيا على املاكه بعد وفاته . وتتضمن وصية توماس بيكوك صراحة وتلميحاً اعماله التجارية جميعاً . وقد كان في السنة التي توفي فيها ما زال يستخدم عدداً كبيراً من العمال . وكانت معاملته لهم حسنة ، قوامها الصداقة والاريحية وحسن التفهم . ولم يكن تشييده داره الجديدة علامة لتركه العمل وتخليه عن الصناعة كما حدث عندما تخلى تاجر قماش كبير ، اسمه توماس دولمان ، عن صناعة النسيج فأخذ الحاكة في نيوبري يولولون ويندبون حظهم قائلين :

« رحمة اللهم بنا نحن الحطاة البائسين .
شيد توماس دولمان داراً جديدة وطرد جميع عمال النسيج »

لقد كانت العلاقات بين توماس بيكوك وعماله ، كما تظهرها الوصية ، سعيدة موفقة . ولم تكن الحال كذلك دائماً . فلئن كان لتجار الأقمشة في ذلك الزمن بعض فضائل الرأسماليين فقد كان لهم كثير من رذائلهم كذلك . وكان الصراع العريق القائم بين الرأسماليين والعمال قد بلغ حداً ملموساً في القرن الخامس عشر . على ان وصية بيكوك لا تخبرنا عن شيء يسرنا ان نعلمه وهو هل كان يستخدم الحائكين الذين يشتغلون في بيوتهم فحسب ام انه كان يملك عدداً من الانوال يديرها الحاكة في داره ايضاً ؟ لقد تميزت الفترة التي عاش فيها بيكوك بظهور نظام المعمل على شكل مصغر ، ذلك النظام الذي اخذ يثبت اقدامه وسط نظام الانتاج البيتي الجديد . فقد أخذ تجار

الاقمشة ينشئون انوالا للنسيج في دورهم يديرهــا حائكون أجراء . وكان الحائكون المستقلون عادة يكرهون هذا النوع من الانتاج اشد الكره . فقد كان عليهم اما ان يتخلوا عن مركزهم كسادة احرار ويضطروا للعمل خداماً مأجورين في معمل تاجر القماش ، واما ان يعانوا انخفاضاً في اجورهم وارباحهم لمزاحمة العمال المأجورين لهم . زد على مــا تقدم ان تجار القماش كانوا يملكون أحياناً انوالا للنسيج يؤجرونها للحائكين الذين يعملون لهم وفي هــذه الحالة يفقد الحائكون جزءاً من استقلالهم الصناعي . وقــد استمر الحائكون طوال النصف الاول من القرن السادس عشر ، في مناطق صنع الاقمشة، يمطرون البرلمان بعرائضهم محتجين على هذا الشر الجديد من شرور الرأسمالية. ولكأنما فطن اولئك الحائكون المستقلون الى طبيعة نظام المعمل قبل ان يثبت اقدامه في انكلترا بوقت طويل ورأوا الى العامل الصناعي وقد فقــد عمله واصبح لا يملك شيئاً من ادوات الانتاج ومن المواد الخام ولا يتمتع بشيء من انتاجه . ولكأنهم نظروا بعين الغيب الى العامل وقد اصبح لا يملك شيئاً سوى قوة عمله والى الحائك المستقل الذي كان يملك حانوتاً ونولا وقــد انحط شأنه وتضاءلت اهميته واصبح عاملا اجيراً . ومما لا ريب فيه ان هذا النوع من نظام الانتاج كان يتقدم باطراد في ايسيكس حيث نجد الحائكين بعد عشرين سنة من وفاة توماس بيكوك يقدمون عرائض احتجاجية ضد تجار القماش الذين كانوا يملكون انوالا في بيوتهم يديرها لحسابهم حائكون وقصارون مما كان يعرض هؤلاء الموقعين على العرائض للعوز والفاقة. «فقد اتفق الاغنياء، تجار القماش، فيما بينهم على ان يدفعوا اجراً واحداً لنسج قطعة القماش.» وكانت تلك الاجور التي اتفق الاغنياء

على دفعها للحائكين ضئيلة لا تكفي لاعاشة اسرهم حتى ولو اضطروا للعمل ليلا ونهاراً ايام العمل وايام العطل والاعياد ، بحيث اضطر كثيرون منهم الى ان يتخلوا عن استقلالهم ويصبحوا خداماً لاناس آخرين . ومهما يكن من شيء فقد ظل نظام « الانتاج البيتي » هو النظام السائد . ومما لا شك فيه ان معظم العمال الذين كانوا يشتغلون لحساب توماس بيكوك كانوا يعيشون في اكواخهم الخاصة وان كان هو يملك دون ريب عدداً من الانوال في داره ، كانت موضوعة في الغرفة المستطيلة الواطئة القائمة في مؤخرة الدار التي كان يفترض عادة ان تستخدم لاجل الحياكة ، او ربما كانت تقام في سقيفة او « دار خاصة للحياكة »

يحتوي « تاريخ جاك اوف نيوبري البهيج » لديلوني على صور شعرية غنية الالوان مجنحة الخيال لواحد من هذه المعامل الصغيرة التي قد يسرنا ويسلينا ان نتخيل معمل توماس بيكوك على مثالها . كان جاك اوف نيوبري الذي تصوره لنا هذه القصة شخصاً تاريخياً يدعى جون وينتشكومب. وكان وينتشكومب هذا تاجراً مشهوراً من تجار الاقمشة . وقد توفي في نيوبري بعد وفاة بيكوك بعام واحد . ولا بد ان يكون بيكوك قد سمع به واطلع على أخباره ، فقد كانت اقمشته الصوفية الغليظة مشهورة في القارة الاوروبية. ولقد دعاه فوللر العجوز الذي مجد ذكره وخلده في كتابه «وجهاء انكلترا» «اعظم تاجر قماش عرفته انكلترا. وليس هذا الذي اقوله من نسيج الخيال.» وقد تناقل الناس في طول انكلترا وعرضها قصة ذهابه على رأس مئتين من عماله ومستخدميه الى فلودن فيلد ، وقصة الوليمة التي اولمها للملك والملكة في داره في نيوبري ، وقصة بنائه جانباً من كنيسة نيوبري وقصة رفضه لقب

« فارس » الذي انعم به عليه الملك، مفضلا « ان يبقى تاجر صوف فقيراً مرتدياً معطفه الصوفي الخشن ، حتى توافيه المنون . » وكانت هذه القصص تنمو وتتضخم بمرور الزمن ، وبعد المطاف . وفي عام ١٥٩٧ جمع توماس ديلوني ، وهو جد القصة الحديثة ، هـــذه القصص المشتتة في حكاية نصفها شعر ونصفها نثر ، سرعان ما طار صيتها واشتهرت بين عامة القراء . وبامكاننا ان نستمد من هـــذه الحكاية قصة خيالية عن العمل في دور تجار القماش على ان نتذكر ان ديلوني قد بالغ في وصف الحقائق وضخمها وان حكايته اسطورة وانه لم يكن لوينتشكومب العظيم مئتا نول تعمل في داره ابداً ، واما صاحبنا توماس بيكوك فلم يكن لديه في أغلب الظن ، اكثر من اثني عشر نولا . على ان للشاعر عـــذره . فالمهم في « القصة الشعرية » انما هو روحها فحسب . والشعر فرحة للنفوس ابداً :

في غرفة واحدة ، فسيحة ، طويلة
ينتصب مئتا نول عامر النشاط .
مئتا رجل ، واقول الحق ،
يشتغلون على هذه الانوال صفاً واحداً .
وامام كل نول يجلس فتى وسيم
ينسج « مضربية » فرحاً مبتهجاً .
وفي غرفة اخرى غير بعيدة
تجلس مئة امرأة طروبة ،
يمشطن الصوف فرحات نشيطات
ويغنين بأصوات صافية .
وفي غرفة مجاورة

تعيش مئتا عذراء ،
يرتدين معاطف قصيرة من نسيج ستاميل الاحمر
ويضعن على رؤوسهن مناديل في بياض الحليب ،
واكمام قمصانهن بلون ثلوج الشتاء
التي تطفو على الجبال الغربية ،
وكل كم مربوط عند الرسغ برشاقة
بشريط من الحرير .
هؤلاء الفتيات الجميلات لا يهدأن ابداً ،
بل يغزلن في تلك الغرفة طوال اليوم .
يغزلن وهن يغنين
كالبلابل أغانيَ ما أعذب وما أحلى .
وفي غرفة اخرى يجلس اطفال اثوابهم خلقان ،
اطفال رجال فقراء بسطاء يلتقطون من الصوف أجوده ،
وكانوا يعدون مئة وخمسين
ويتناول كل واحد منهم اجراً على عمله
بنساً واحداً عند كل مساء
عدا ما كانوا يتناولونه من اللحم والشراب طوال اليوم .
وكانوا يعتبرون حياتهم هنا مدهشة عجيبة .
وفي غرفة اخرى مثل هذه ،
تبصر خمسين رجلا مكتملي المهارة والنشاط ،
خمسين « جزازاً » يبدي كل واحد منهم
فطنته في الصناعة ومهارته في العمل .
وغير بعيد منهم تجد ثمانين نساجا

يجهدون في عملهم ويتعبون ،
تجد مصبغة يعمل فيها اربعون رجلا ،
ومقصرة يعمل فيها عشرون قصارا .
وينحر صاحب المعمل كل اسبوع عشرة عجول سمان
الى جانب ما يقدم من الزبدة الطرية والجبن
والسمك وغير ذلك من المآكل المغذية اللذيذة
وكان يستخدم على مدار السنة ، جزارا
وخمارا يعتق النبيذ ويخمر البيرة ،
وخبازاً يخبز ما يكفي آل بيته وعماله جميعا ،
وخمس طباخين منهمكين طوال العام ،
في اعداد الطعام ،
وستة اولاد مشمرين عن سواعدهم
يغسلون القدور والطسوت ويجلون الصحون ،
وعدداً من الاطفال الفقراء
يحركون السفافيد ، عليها اللحم الغريض على النار الموقدة .
وقد تعجب الشيخ مما رأى
وحق له ان يعجب
فقد كان بزازاً عظيم الهمة ،
شهرته خالدة الى الابد .

وبالامكان ان نرسم صورة لحياة توماس بيكوك الخصوصية لا تقل حيوية عن الصورة التي رسمناهـا لحياته العملية . ولا تخبرنا وصيته القيمة عن اسرته الا قليلا . اما زوجته الاولى فهي مرغريت نفسها التي رأينا الاحرف الاولى من اسمها تزين، هي والحروف الاولى

من اسم زوجها ، اخشاب الدار . واغلب الظن ان جون بيكوك الشيخ قد بنى هذه الدار للزوجين الشابين بمناسبة زواجهما . ولا بد ان يكون المنظر الذي شاهدته هذه الدار في ذلك اليوم السعيد منظراً مفرحاً بهيجاً . فقد كان آباؤنا يضعون قلوبهم وعواطفهم في حفلات الزواج . ولم تكن انكلترا المرحة اكثر مرحاً منها ليـلة يصحب العريس عروسه الى الدار . ونعود الى ديلوني مرة اخرى فنقتبس من حكايته ما يعين على بعث المشهد حيا .

« وكانت العروس ترتـدي فسطاناً وردياً من الصوف ومعطفاً جميل الصنع ثميناً ، يزين رأسها الحـلي ، وينوس شعرها الذهبي على ظهرها ، وقد مشط بعناية وضفر ضفائر بحسب عادات ذلك الزمان . وسارت الى الكنيسة بين ولدين حلوي القسمات تزين اكمام قصانهما الازهار والورود (١) ، وحمل امامها كأس العرس الفضي والمذهب وغصن من « اكليل الجبل » مذهباً تذهيباً جميلا ، وقد علقت فيه شرائط من الحرير من كل لون بهيج .

وسار امامهـا الموسيقيون وهم يغنون ويعزفون طول الطريق . وسار وراءها اجمل عذارى المنطقة تحمل بعضهن كعك الزفاف وتحمل بعضهن اكاليل مضفورة من سيقان الحنطة ، مذهبة تذهيباً جميلا . وعلى هذه الهيئة دخلت الكنيسة . ولا حاجة بي الى الاسهاب في وصف العريس . انه لم يكن بحاجة الى من يصحبه الى الكنيسة فقد كان معروفاً ، يحبه الجميع حباً عظيماً ، على انه كان يحيط به كرام اهل المنطقة ، وجمع من التجار الغرباء ، اتوا من لندن لحضور العرس

---

(١) في الاصل Rosemary, Bridelaces . ومعنى الاخيرة اكليل الجبـل او الحصالبان . (المترجم)

والاشتراك فيه . وبعد ان انتهى تكليل العروسين في الكنيسة ، عاد الموكب الى الدار بمثل الهيئة التي ذهب فيها الى الكنيسة . وجلس المدعوون الى موائد لا ينقصها المرح والسرور ولا تعوزهـا الانغام الشجية... ودام العرس عشرة ايام ... أطعم فيها كل فقراء المنطقة، ونعموا بالخير العميم . »

ولا شك ان الدار قـد شهدت ألواناً من الرقص تحت سقف القاعة المزين بالنقوش الجميلة، وما يصحب الرقص من اغان والعاب وقبل وانطلاق عام في مجالات اللهو . ويستمر الضيوف في مرحهم ولهوهم حتى بعد ان ينسحب العروسان الى غرفة النوم . اذ يجب على العروسين ان يستقبلا اصدقاءهما المقربين في غرفة النوم نفسها ، فما كان اجدادنا يعرفون الحياء المخادع ولا الظرافـة المنافقة . وكما قال هنري بولينغر بحق (كان بولينغر شخصاً يختلف بطبيعته عن ديلوني المرح الظريف ولكنه كان معاصراً لبيكوك ، وقد ترجم كوفيرديل ما كتبه ، فلندعه يتكلم اذن) : « بعد انتهاء العشاء يعاود المدعوون العزف والغناء والرقص . وينسحب العروسان الى غرفة النوم بعد ان يكونا قد تعبا من ضوضاء الحفلة الصاخبة ، وانهكتهما مضايقاتها العديدة . الا انهما لا يستطيعان ان ينعما بشيء من الراحة والهدوء اذ نجد عدداً من الناس الطائشين الذين لم تهذبهم الآداب ، يقفون على باب غرفتهما وينشدون « قصصاً شعرية » balates (ballads) ماجنة ، واغاني داعرة ، يسر بها الشيطان سروراً عظيماً ، ويحرز بها اعظم انتصاراته . » اي شيء لا نقدمه في سبيل واحدة من هذه « القصص الشعرية » الماجنة ، اليوم ؟

جاءت العروس مرغريت من كلير ، موطن آل بيكوك الاصلي،

الى كوغيسهول بعد حفلة تشبه حفلة الزفاف التي وصفناهـــا آنفاً .
وهي ابنة المدعو توماس هارولد الذي كان توماس بيكوك يكن لــــه اعظم الحب والاحترام حياً وميتاً . فعندما أوقف مالا لاجل الصلاة على أرواح الاموات في كنيسة كوغيسهول رغب ان تقصر هذه الصلاة على روحه ، وروح زوجته ، وروح امه وابيه ، وروح حميه توماس هارولد من كلير . وقـــد ترك خمس ليرات أوصى منفذي وصيته ان « يشتروا بها قطعة من الرخام يضعونها على قبر حميه توماس هارولد المدفون في كنيسة كلير ، وان يضعوا عليها صورته وصور زوجته وابنائه وبناته » (يعني ان يقيموا له لوحة تذكارية) كما اوصى لكنيسة كلير بخمس بقرات او بثلاث ليرات نقـــداً ، « لتعني بقبر حمي توماس هارولد وتحافظ عليه . » وترك في وصيته مقداراً من المال لاخ زوجته واخواتها . وتوفيت مرغريت بيكوك قبل زوجها ، دون عقب . والاطفال الوحيدون ، الذين يحملون اسم الاسرة الذين شاهدهم توماس بيكوك في حياته يلعبون في قاعة داره الرفيعة او يتسلقون خزانة ادوات المائدة ليجدوا الرأس الصغير بحجم البندقة المخفي بين نقوش السقف ، انما كانوا ابناء وبنات اخته روبرت ومرغريت ابنشر ، وجون ابن اخيه جون ، وتوماس وروبرت ، وإما أولاد اخيه روبرت . وربما كان يجد بينهم غريس غودّاي الصغيرة ابنته في العماد . ولعل توماس بيكوك قد تزوج مرة ثانية من فتاة تدعى آن كوتون على امل ان يحظى بولد يورثه اسمه وبيته . وكانت آن زوجة شيخوخته « آن زوجتي الطيبة الصالحة » . ولا شك في ان وجودها كان يجعل الدار الجميلة التي اصبحت صامتة موحشة منذ وفاة مرغريت ، تشرق بالفرحة وتنبض بالحياة ، وقد ورد اسم

والدها في الوصية كما نال اخواها ريتشارد ووليام ، واختها الينور مبالغ وافرة من الارث . على ان توماس وآن لم ينعما بالحياة الزوجية الا مدة قصيرة. فقد توفي قبل ان يولد ابنه الوحيد . وراعى توماس بيكوك حق زوجته آن في الميراث وحسب حسابها في وصيته . فقد اوصى لها بخمسمئة جنيه كما اوصى ان تكون الدار الجميلة ملكاً لها ما دامت على قيد الحياة . وهو يضيف الى الترتيبات المفصلة التي أوصى ان تتبع في انتقال الدار بالارث هذه الجملة : « على شرط ان تكون الدار ، التي عشت فيها ملكاً لزوجتي آن ما دامت على قيد الحياة تتصرف بها كما تشاء ، وكذلك « بيت الحمام » والبستان الملحقان بالدار » . وتوجد فجوة في الوصية تجعل من العسير علينا ان نقرر فيما اذا كان ابن توماس بيكوك قد عاش او مات بعد ولادته، واغلب الظن ان الطفل قـد مات فور ولادته او انه كان بنتا . فقد ورّث بيكوك الدار فيما اذا لم تكن له ذرية من الذكور الى ابن اخيه جون (وهو ابن اخيه الكبير جون) وفي سنة ١٥٧٥ نجد الدار ملكا لجون هذا ، بينما كانت الدار المجاورة لها ملكاً لتوماس بيكوك آخر هو ابن اخيه روبرت . وقد توفي توماس هذا حوالي عام ١٥٨٠ ، تاركاً وراءه بنات فقط . وتوفي جون بيكوك بعده بقليل عام ١٥٨٤ . وقد وصف سجل الابرشية جون بهذه الجملة الحزينة : « آخر من يحمل اسم اسرته في كوغيسهول . » على هذه الشاكلة خرجت الدار الجميلة من يد هذه الاسرة العظيمة من تجار القماش التي ظلت محتفظة بملكيتها ما يقرب من مئة عام .

وبامكاننا ان نعرف بعض الشيء من صفات توماس بيكوك الشخصية، وخلقه ، من وصيته. كان توماس ، ولا ريب ، مستخدماً

رقيق القلب ، كريم المعاملة لمن يعملون في خدمته ، عطوفاً عليهم ، رفيقاً بهم . تشهد على ذلك عنايته بعماله وبأبنائهم ، وتفكيره الدائم في مصالحهم . وكثيراً مـا كان يطلب اليه ان يكون عراباً لاطفال كوغيسهول وهو يذكر في وصيته ان يكون في احتفال دفنه ، والاحتفالات التي تعاد في اليوم السابع ، وفي الشهر الذي يليه « اربعة وعشرون او اثنا عشر ، ولداً في كنيسة روتشيت يحملون الشموع في ايديهم . ويوصى بأن يفسح المجال لاكبر عدد من هؤلاء ليكونوا ابنائي في العماد ، ويعطى لكل واحد منهم سته شلنات وثمانية بنسات ، ولكل ولد من الاولاد الآخرين اربعة بنسات . وكذلك لكل ولد من اولادي الآخرين في العماد ستة شلنات وثمانية بنسات . » واغلب الظن ان جميع هؤلاء كانوا من الكادحين الاطفال الـذين اخذوا يشتغلون منـذ نعومة اظفارهم ، في فرز صوف توماس بيكوك وتصنيفه ، سعياً وراء لقمة الخبز . يقول توماس ديلوني : « الفقراء ، الذين انعم الرب عليهم بوفرة الاولاد ، يدفعون بأولادهم الى العمل في هذه الصناعة حتى اذا ما بلغوا السادسة او السابعة أصبحوا قادرين على تحصيل قوتهم بأنفسهم . » وعندما سافر ديفو من بلاكستون إدج الى هاليفاكس ، ملاحظاً صناعة النسيج التي كانت تعم جميع القرى الواقعة في ويست رايدنغ ، كان احد الاسس التي بني عليها اعجابه بهذه البقعة : « ان جميع الناس ، اطفالا وشيوخاً يشتغلون بحيث يندر ان تجد مخلوقاً يزيد عمره عن اربع سنوات لا يعيش من عمل يديه . » ان استخدام الاطفال في هذا العمر الذي يجب ان نعتبره نحن اليوم مبكراً جداً ، لم يكن ابداً ظاهرة جديدة جاءت بها الثورة الصناعية .

وتشهد المبالغ التي خلفها توماس في وصيته على انه كان له اصدقاء

عديدون ليس في كوغيسهول فحسب ، بل وفي القرى المجـاورة ايضاً . وتظهره الوصية ايضاً رجلا ذا احساس ديني عميق . إذ كان أخاً لرهبان كولتشيستر من حملة الصليب . وقد ترك لهم في وصيته خمسة جنيهات ليصلوا « من اجلي ومن اجل الذين يجب علي ان اصلي لهم . » وقد جرت العادة في القرون الوسطى ان تمنح اديرة الرهبان والراهبات امتياز اخوية الدير للمحسنين والوجهاء المبرزين من الناس. ويجري منح هذا الامتياز باحتفال طويل بالغ الروعة يتقبل خلاله « الاخ » قبلة السلام من جميع اخوانه الرهبان . ان اصطفاء رهبان كولتشيستر حاملي الصليب توماس بيكوك ليكون اخاً لهم دليل على ما كان يتمتع به من احترام في الريف . ويبدو انه كان يعطف على طغمة الرهبان عطفاً خاصاً. فقد ترك لكل واحد من رهبان كولتشيستر «الشيب»، ولرهبان مالدون، وتشيلمزفورد وسدبري عشرة شلنات لاقامة قداس، وثلاثة شلنات واربعة بنسات لاصلاح دورهم، وترك لرهبان كلير عشرين شلنا لاقامة قداسين. « وبرميلا من السمك الاحمر (الرنجة (١)) عند الصوم الكبير (٢) ، بعد وفاتي » وكان عظيم الاهتمام بـدير كوغيسهول الذي يبعد عن داره مسافة ميل او نحوه . ولا ريب في انه كثيراً ما كان يدعى الى مائدة رئيس الدير ايام الاعياد ويحضر القداس في كنيسة الـدير . ولقد تذكر الدير وهو يحتضر . وكانت اصوات نواقيسه التي تتعالى داعية الناس الى صلاة الغروب تتسلل اليه من الشباك برفق، محمولة على نسمات ايلول الناعمة الندية . وقد اوصى « لسيدي رئيس الدير ، وللدير » ثوباً من ثيابه الفضفاضة الشهيرة

---

(١) herring نوع من السمك يسمى في مصر رنجة

(٢) Lent الصوم الكبير ، او صوم الاربعين (المترجم)

واربعة جنيهات نقداً ، ليقيموا قداساً على روحي ، ويطلقوا الانغام الحزينة ، ولتدق نواقيسهم عند دفني في الكنيسة وليفعلوا مثل ذلك في اليوم السابع ، وفي ذكرى مرور شهر على وفاتي ، على ان يقيموا في ذلك ثلاث صلوات اذا استطاعوا اقامتها ، والا فعندما تسمح لهم الظروف ، ويكون المجموع عشرة جنيهات . »

ويبدو تقاه فيما تركه من مبـالغ من المال لكنائس برادويل ، وباتسويك ، ومارشال ، وهي ابرشيات مجاورة لكوغيسهول ، وما وصّى به لكنائس ستوك نيلاند ، وكلير وبوسلنغفورد وأوفينغتون وبوشام سانت بول الواقعة على حدود ايسيكس ، في المقاطعة الـتي جاءت منها اسرة بيكوك . اما اهتمامه الاعظم فكان موجهاً بطبيعة الحال لكنيسة كوغيسهول . ويحتمل ان يكون احد ابناء بيكوك قد انشأ الجناح الشمالي منها حيث كرس المذبح للقديسة كاترين، وحيث تقوم جميع قبور آل بيكوك . وقد اوصى توماس بيكوك ان يدفن امام مذبح القديسة كاترين واوصى بالهبات التالية للكنيسه : « اوصى للمذبح العالي في كنيسة كوغيسهول عوضاً عن العشور وغير ذلك من الاشياء التي نسيت تقديمها للكنيسة ، مبلغاً مجموعه اربعة جنيهات . واوصي لهيكل الثالوث في المذبح العالي ، ولهيكل القديسة مرغريت في كنيسة القديسة كاترين حيث تنتصب صورة السيدة العظيمة مبلغاً مجموعه مئة مارك ستيرلنج وذلك لأجل نقش هذا الهيكل وتحليته بالذهب . وأوصي للكنيسة بمبلغ مجموعه مائة « نوبل » (١) ، وذلك

---

(١) Noble . عملة انكليزية ذهبية . ظلت شائعة الاستعمال حتى سنة ١٤٦١ بسعر ٦ شلنات و٨ بنسات . (المترجم)

لاجل اصلاح الكنيسة والنواقيس ، ومن اجل السماح لي بالرقود في الكنيسة.» واوقف مالا لاجل الصلاة على روح الاموات في الكنيسة، وترك مبلغاً من المال ، يدفع كل اسبوع ، لستة من الفقراء يحضرون القداس ويصلون على روحه ثلاث مرات في الاسبوع . ان هذه المبالغ من المال التي تركها لبيوت الدين والكنائس شواهد مبينة على تقاه وعلى كبرياء الاسرة واعتدادها بنفسها . وهنالك سلسلة اخرى من المواريث اتخذت شكلا يمثل طابع العصور الوسطى قد تشهد على عادات توماس بيكوك . ولا شك ان توماس بيكوك كان كثيراً ما يسافر ليطلع على احوال العمال الذين يشتغلون له ، او ليزور اصدقاءه في القرى المحيطة بكوغيسهول . وقد تطول سفرته فيذهب الى كلير ليرى اولا دار اجداده ، ثم ليطارح مرغريت هارولد خطيبته الغرام. وبعد ان تزوج مرغريت كان يذهب بصحبتها الى كلير لزيارة حميه المحبوب . وكان توماس يرثي ولا شك لحالة الطرق التي يمر بها سواء كان ذاهباً الى الكنيسة في كوغيسهول او كان راكباً يغذ به الحصان في طريق الريف ودروبه . ولا ريب في انه كثيراً ما كان يقتحم سيولا من الاوحال في الشتاء او يتعثر في العديد من الحفر والاخاديد في الصيف . ففي القرون الوسطى كان امر العنايـــة بالطرق متروكاً للصدقات الشخصية او للكنيسة. واغلب الظن ان جميع الطرق باستثناء الطرق العمومية الكبيرة ، كانت مهملة . ويشير لانغلاند في كتابه « بيير بلومان » الى « اصلاح الطرق الشريرة » (وهو يقصد الطرق الرديئة لا العادات السيئة الرديئة) كاحد اعمال البر والاحسان التي يجب على الاغنياء ان يقوموا بها لخلاص ارواحهم . ولا شك في ان التفات توماس بيكوك للطرق ، ووقفه الاموال على اصلاحها يعكس لنـا

كثيراً من الرحلات المتعبة التي عاناها في حياته حيث كان يعود الى الدار متعباً منكداً تغطي الاوحال ثيابه . وكان يعزي نفسه على الطريق بانشاد « جون راينر رَجُلي » او « هنري بريغز خادمي » أو بتذكر مرغريت ، وهي تتطلع من الشباك بلهفة وشوق منتظرة ايابه . وقد ترك في مدينته مـــا لا يقل عن اربعين جنيهاً يصرف عشرون منها على اصلاح قسم من « الشارع الغربي » (حيث تقوم داره) وتصرف العشرون جنيهاً الباقية على « الطريق السيئة الممتدة بين كوغسهول وبلاكووتر » ، وهو قد عانى ولا شك شرور هذه الطريق اثناء ذهابه الى الدير . وقد ترك عشرين جنيهاً لاصلاح « الطريق السيئة » الممتدة بين كليرو اوفينغتون ، وعشرين جنيهاً اخرى لاصلاح الطريق الممتدة بين اوفينغتون وبو شامب سانت بول .

ولا شك في ان توماس بيكوك ، وقد اوشكت حياته على نهايتها ، اخذ يقلل من رحلاته وجولاته . فقد كانت ايامه تمر في دعة وسلام . وقد نمت تجارته وازدهرت . واصبح محترماً محبوباً في كل مكان ؛ وكان يفخر بداره الجميلة ، التي ما فتيء يجملها ، ويحسن فيها . ولا شك في انه كثيراً ما كان يقف خارج بستانه في سكون المساء الرطيب ناظراً الى رهبان الدير الكبير يصطادون السمك من بركتهم التي تلوح عبر الحقول، او رافعاً عينيه الى حيث تميل آخر اشعة الشمس لتتكسر على سطح مخزن المحصولات الزراعية الكبير الخاص بالعشور والمغطى سقفه بالأشنة ، ثم على صف المستأجرين وهم يحملون حزم الحنطة على طول الطريق . وربما طاف بفكره ان جون مان وتوماس سبونر ، مستأجري ارضه ، صديقان طيبان ، وفيان ، وان من الخير له ان يورثهما رداء او جنيهاً عند وفاته . ولا شك في انـــه غالباً ما كان

يجلس ، في اخريات ايامه مع زوجته في حديقته التي يقوم فيها بيت الحمام ، يراقب الحمامات البيض وهي تحوم حول شجرة التفاح ويبتسم لما على الشجرة من ورود وازهار . وربما كان يرتدي معطفه الفرو في امسيات الشتاء ويتمشى الى « دراغون إن » حيث يستقبله ادوارد ايلوارد صاحب الحان بالتحيات والانحناءات ، وحيث يتناول قدحاً من البيرة مع جيرانه يحسوها بأشد البطء واعظم الوقار كما كان يليق بأعظم تجار القماش في المدينة ان يتصرف ، وهو يلقي نظرات العطف والاحسان على سمّاره . على انه كان يعبس احياناً ، عندما يبصر احد الرهبان الكسالى ينسلّ من الدير الى الحان انسلالا ليشرب كأساً على الرغم من كل اوامر الاساقفة ورؤساء الاديرة التي تمنع ذلك . وربما هز رأسه وشكى من ان الدين لم يعــد كما كان في الايام الخوالي الطيبات . ولكنه لم يكن ليعني الكثير مما كان يقول كما تظهر وصيته، ولم يكن ليحلم ابداً بأن الرهبان ورؤساءهم سوف يشردون بعد عشرين سنة من وفاته ، وان خدام الملك سينزعون الرصاص من سقف دير كوغيسهول ويبيعونه في المزاد العلني . ولم يكن ليحلم ابداً بأن داره ستظل قائمة ، بعد اربعمئة سنة من وفاته ، طرية ندية محببة بسقفها المنقوش تزينه شارة التاجر الفخورة في حين اضحى الدير مجرد ظل على سطح حقل يلفحـــه القيظ ، وفي حين اضحت جميع بنايات الدير خرائب تحتمي بها عربات التبن الزرقاء من المطر في مقاطعة ايسيكس .

كذلك كانت ايام توماس بيكوك تدنو من نهايتها وسط السكينة والجمال اللذين تنعم بهما اعرق المقاطعات الانكليزية في انكليزيتها . « السمينة المخصبة المثمرة الملأى بالاشياء المريحة. » والتي كان كونستابل

يجب ان يصور في لوحاته جبالها الصغيرة الحادرة وسماءها الفسيحة الغائمة واشجار الدردار المنتشرة فيها . وفي ذات يوم من ايام ايلول خيمت الكآبة والعبوس على شوارع كوغيسهول وصمتت دواليب المغازل في الاكواخ ووقف الغزالون والحائكون جماعات قلقة ملتاعة ، خارج الدار الجميلة المطلة على الشارع الغربي ، فقد كان تاجر القماش العظيم يجود بأنفاسه في غرفة عرسه ذات السقف الرفيع النبيل ، تحيط به زوجته والهة تبكي مؤمنة بأنه لن يرى طفله ابداً . ولم تنقض غير بضعة ايام حتى هجرت الاكواخ من جديد وسارت جموع الناس الباكين تشيع توماس بيكوك الى مقره الاخير . وكانت مراسيم الدفن فخمة تلائم ما كان يتمتع به من حرمة وتوقير ، فقد اشتملت على صلوات عديدة ليس فقط في يوم الدفن نفسه بل وفي اليوم السابع الذي يليه ، وبعد انقضاء شهر على الدفن. وقد وصفت الوصية مراسيم الدفن احسن وصف . فقد اتبع توماس العادات السائدة في زمانه فأعطى لمنفذي وصيته التعليمات المفصلة عن مراسيم الدفن وطقوسه :

« ووصيته باختصار هي : ان يقام عن روحه وارواح الموتى في يوم جنازته وفي اليوم السابع وفي اليوم الثلاثين بعدها في كل مرة ثلاثة قداسات ، على ان يحضرها اكبر عـدد ممكن من الكهنة وان يكون هناك صبيان للمشاركة بالترنيمات اللازمة ، ويجب ان تلعب الموسيقى المناسبة ، وان يقام بالاضافة قـداس كبير في كل مرة . ويجب ان يعطى لكل كاهن يكون حاضراً ٤ بنسات لكل مرة ، ولكل رجل يحمل المشعل بنسان اثنان لكل مرة ، ولكل امرأة او ولد بنس واحد لكل مرة . اما كل فليون له (للموصي) فيعطى ستة شلنات وثلثي الشلن . وقارعو الاجراس يعطون عشرة شلنات للايام الثلاثة .

تختلف هذه الوصية اختلافاً عظيماً عن وصية توماس بتسون المتواضعة التي يقول فيهـا « يجب ان لا تكون نفقات دفني باهظة ، ولا مسرفة ، ويجب ان يجري الدفن بصورة هادئة وقورة معتدلـة . ويجب ان تكون النفقات موجهة نحو عبادة الرب القدير وحبه . » ولم يكن تاجر الجوخ المعتبر ساهيا عن عبادة توماس بيكوك وحبه للرب ، فقد انفق ما يزيد عن ٥٠٠ جنيه ، محسوبة بالاسعار الحالية ، على مراسيم دفنه ، بالاضافة الى ما اوقفه من مال على الصلاة من اجل روحه . ومن حسن حظ توماس بيكوك ان الموت اطبق جفنيه قبل ان يلغي « الاصلاح الديني » كل وقفيات الصلوات على ارواح الموتى في انكلترا ، ومنها وقفية آل بيكوك في جناح كنيسة القديسة كاترين التي انعمت بالصدقات على ستة من الفقراء يتناولونها كل اسبوع . كان توماس بيكوك ينتسب الى الايام القديمة الطيبة ؛ فقد بدأت ايسيكس تتغير وتتحول ولما يمض ربع قرن على وفاته . ولقد هجر الرهبان الدير ، الذي اضحى دون سقف ، وتشردوا . ولم تعد اصداء اللغـة اللاتينية الجهورية تتردد في الكنيسة . ولم يعد القسس يصلون هناك من اجل راحة نفس توماس بيكوك ، وزوجته ، وابويه ، وحميه . وحتى صناعة النسيج اخذت تتغير ، وأخذت البلاد تزداد ثروة وغنى بإدخال نوع جديد من القماش الجيد جاء به غرباء ماهرون . إنه « الجوخ الجديد » الذي عرف باسم «بيز وسيز .» وكما يقول المثل :

حشيش الدينار والاصلاح ، و « بيز » ، والبيرة ،
جاءت الى انكلترا كلها في سنة واحدة .

وقد كتب لكوغيسهول ان تصبح اعظم شهرة بنوع جديد من

القماش يدعى « كوكسول هوايت » كان يصنعه ابناء اخ توماس بيكوك عندما كان هذا الاخير يرقد في قبره . على ان شيئاً واحداً لم يدركه التغيير . فقد ظل بيته الجميل قائمـاً في « الشارع الغربي » قبالة الكنيسة ، وكان فرحة لكل من ينظر اليه . وما زال قائماً الى الآن . وعندما ننظر اليه اليوم ، ونتذكر توماس بيكوك الذي عاش فيه ذات يوم ، الا نذكر قول يشوع ابن سيراخ : « فلنمدح الآن النجباء المشهورين وآباءنا الذين انجبونا .

فيهم انشأ الرب مجداً وابدى عظمته منذ الدهر ،
رجال غنى واقتدار يحيون في بيوتهم بهدوء وسلام ،
اولئك كلهم كانوا مبجلين في اجيالهم وكانت ايامهم تفخر بهم »

فهرست المحتويات

ف. ب. (٢)

مطابع سميا
شارع عبد الوهاب الإنكليزي
تلفون : ٣٤٨٧٠
بيروت

« ... والكتاب الذي نحن في صدده يؤرخ للحيـــاة الاجتماعية في القرون الوسطى بمختلف جوانبها ونواحيها ويصور حياة الطبقات المختلفة تصويرا دقيقا تدعمه الوثائق . فهناك حياة الفلاح والتاجر وحياة اسرة مـن اسر الطبقـة الوسطى وآراء القرون الوسطى في المراة وحالة الصناعـة كما تنعكس كلها في حياة الافراد العاديين . ولعل ظهور هذا الكتاب الطريف في حلته العربية ينبه مؤرخينـا الى الاهتمام بهذه الناحية الخطيرة من التاريخ العربي فيقوم بعضهم بسد حاجتنا الملحة الى هذا الجانب الهام من تراثنا التاريخي ... »

« من مقدمة الدكتور نبيه فارس »

« كتاب جدير بالقراءة »

ايلين بور (محمد توفيق حسين)

نماذج بشرية من العصور الوسطى

دار الثقافة